الثقافة النفسية المتخصصة

العددان 87 ـ 88 تموز/ يوليو. تشرين الأول/ أكتوبر 2011

ملف العدد

السيكولوجيا السياسية في مجال الجاسوسية

* الثورات العربية: تطبيقات الطب النفسي السياسي في حالة الثورات العربية
* مدارس العلاج النفسي: الفاعلية العلاجية للموسيقى
* الطب النفسي الاجتماعي: سيكولوجية المنافق، الضلالي.. والبلطجي
* الوبائية النفسية: الكآبة الحضارية!!
* التحليل النفسي للأدب: من المجاز اللغوي إلى المجاز التحليلي
* سيكولوجيا الرقميات: هل الهاتف النقال وسيلة للتقارب الإنساني
* التراث النفسي العربي الحديث: مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي وآفاق تطويرها
* شخصية العدد: الرائد المرحوم الدكتور يوسف مراد

مركز الدراسات النفسية والنفسية ـ الجسدية
Center d'Etudes Psychiques et Psycho Somatique C.E.P.S
طرابلس ـ لبنان ـ شارع عزمي ـ بناية قاديشا ص.ب 3062 ـ التل
تلفون: 961-6-441805
فاكس: 961-6-438925
E.mail: ceps50@hotmail.com

"Mais que vient-il donc faire dans cette galère ?"

Cette paraphase de Géronde, dans les "Fourberies de Scapin" pourrait bien illustrer mes propos. Loin de me perdre dans des données historiques, politiques ou théoriques, je consacre cette étude à l'élucidation de la catastrophe libanaise, du point de vue psychiatrique.

Cette catastrophe, aux effets traumatisants, est devenue quotidienne dans la vie du Libanais. L'histoire de cette guerre est jalonnée de situations catastrophales quand elle n'est est pas elle même une.

Dans cette cours folle, le rôle du psychiatre qui cherche à faire une distinction entre le domaine quantitatif et le domaine qualitatif des troubles, semble bien difficile. Ne pouvant accomplir ce rôle, le psychiatre doit alors étudier les nuances des aspects psycho-socio-somatiques, car je suis parti de la définition suivante de la psychiatrie :

"La psychiatrie ne se limite pas au seul rôle curatif mais elle le dépasse pour jouer un rôle dans l'organisation de la défense et promovation de la santé mentale".

ما حدود الشرق الأوسط؟

أين يبدأ، وأين ينتهي؟

لماذا هذا السعي الغربي المستميت لنشر الإصلاح الاقتصادي والسياسي، والديمقراطية، والحكم الصالح، وحقوق الإنسان، وتمكين المرأة، ونشر حرية وسائل الإعلام، في هذه المنطقة؟

وهل حقاً مشروع الشرق الأوسط الكبير يحمل كل هذه القيم النبيلة ليقدمها للعالم العربي والشرق أوسطي هدية مجانية؟

هل استشيرت شعوب تلك المنطقة بهذه الخيارات ووافقت عليها؟

ام انّ وراء الأكمة ما وراءها؛ فهناك أطماع سياسية وعسكرية واقتصادية مخبأة خلف هذا المشروع!

هذا الكتاب يوضح المخبوء خلف هذا المشروع من أهداف استراتيجية ومرحلية مباشرة.

والمؤلف مفكر استراتيجي معروف بدراساته السياسية والنفسية.

مركز الدراسات النفسية والنفسجسدية
Centre d'Etudes Psychiques et Psycho-Somatiques C.E.P.S
طرابلس، لبنان شارع عزمي، بناية فاطيما ص.ب 3026، التل
تلفون: 961-6-441805
فاكس: 961-6-438925
E.mail; ceo50@hotmail.com

مركز الدراسات النفسية والنفسية - الجسدية
Center d'Etudes Psychiques et Psycho Somatique C.E.P.S

الثقافة النفسية المتنوعة

رئيس التحرير
محمد أحمد النابلسي

INTERDISCIPLINAR PSYCHOLOGY
Editor in chief: Naboulsi.M (M.D.PH.D)

PSYCHOLOGIE INTERDISCIPLINAIRE
Chef Editeur: Naboulsi M. (M.D. ph D.)

إن الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كتابها، وهي لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.

يرجى مراجعة شروط النشر المنشورة في صفحة مستقلة.

تعطى أفضلية النشر وفق خطة التحرير وبحسب المحاور المحددة مسبقاً.

توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير على عنوان المركز المبين أدناه.

طرابلس لبنان شارع عزمي بناية قاديشا
P.O .BOX: 3026 - Tal
تلفون: 961-6-441805
فاكس: 961-6-438925

E-mail: ceps50@hotmail.com

سكرتاريا التحرير

حسن الصديق — عبد القادر الأسمر

هيئة التحرير

رور ماري شاهين — سلمى المصري دملج

سامر رضوان — جليل شكور

الهيئة الاستشارية

احمد عبد الخالق جامعة الكويت. كلية الآداب.
احمد ابو العزايم رئيس الاتحاد العالمي للصحة النفسية.
انور الجراية مستشفى الهادي شاكر للطب النفسي.
بشير الرشيدي رئيس مجلس امناء مكتب الإنماء الاجتماعي.
جمال التركي استشاري الطب النفسي / بريطانيا.
جيمي بيشاي مشفى المحاربين القدماء / الولايات المتحدة.
على وطفة كلية التربية. جامعة دمشق.
صفاء الأعسر مركز دراسات الطفولة / عين
طلعت منصور جامعة عين شمس / كلية التربية.
عادل الأشول جامعة الكويت / كلية التربية.
قتيبة شلبي الولايات المتحدة.
زايد الحارثي جامعة أم القرى / السعودية.
عبد الستار إبراهيم جامعة الملك فهد / الظهران.
عبد الفتاح دويدار جامعة الإسكندرية.
عبد العزيز الشخص جامعة عين شمس / كلية التربية.
عبد الرزاق الحمد جامعة الملك سعود / كلية الطب.
عبد المجيد الخليدي جامعة عدن / كلية الطب.
عدنان التكريتي رئيس تحرير المجلة العربية للطب النفسي.
علي زيعور الجامعة اللبنانية / كلية الآداب.
فاروق السنديوني جامعة واغا واغا / استراليا.
فرح عبد القادر طه عضو المجمع العلمي المصري.
فيصل الزراد مستشفى الطب النفسي / ابو ظبي.
قدري حنفي قسم الدراسات الإنسانية / عين شمس.
محمد الطيب عميد كلية التربية / جامعة طنطا.

قيمة الاشتراك السنوي
الأفراد ٤٠ دولاراً أميركيا - للمؤسسات ١٠٠ دولار أميركي- ثمن النسخة عشرة دولارات أميركية، أو ما يعادلها - الاشتراك الشامل للمجلة وإصدارات المركز كافة ١٥٠ دولاراً أميركياً

شروط العضوية

منذ مطلع العام 1990، ومع صدور العدد الأول من الثقافة النفسية المتخصصة، والمركز يعمل على إرساء خطاب نفسي عربي جامع، يترجم أهداف خدمة الاختصاص في الدولة العربية. وعلى هذا الطريق عقد المركز ثلاثة مؤتمرات عربية جامعة مع انتظام صدور دوريته الثقافية النفسية المتخصصة، حتى توصل المركز إلى كسب ثقة زملاء من كافة أنحاء العالم العربي، فأصبح أعضاؤه موزعين على الدول العربية. هذا ويسعى المركز إلى توسيع دائرة التواصل بين الاختصاصيين عبر المجلة، والمشاريع التوثيقية التي يتبناها، ومنها مشروع الصفحة المعلوماتية العربية على شبكة الإنترنيت.

يتوجب على طالب العضوية استيفاء الشروط التالية:

1- أن يكون متخصصاً في أحد فروع العلوم النفسية. ويحدد نوع العضوية بناء على المؤهلات، إذ يعتبر عضواً متمرناً المنتسب الحائز على الليسانس. عضواً منتسباً الحائز على الماجستير، وعضواً مؤهلاً من كان حائزاً على الدكتوراه، أو على التخصص في الطب النفسي، أو الطبيب الباحث في ميدان السيكوسوماتيك. كما يعتبر عضواً عاملاً الاختصاصي المشارك في النشاطات الأساسية للمركز. وتمنح عضوية شرف المركز للمشتركين مدى الحياة في المجلة، كداعمين لاستمراريتها. وكذلك لأصحاب الإسهامات المميزة الداعمة للمركز.

2- أن يرسل سيرته العلمية المفصلة مع صور الوثائق، والسماح بإدراجها في الصفحة العربية للعلوم النفسية، وفي صفحة المركز التي ستضم أسماء أعضائه وسيرهم العلمية.

3- الالتزام بالدعوة لتكييف مبادئ الاختصاص، بما يلائم البيئة الثقافية العربية.

4- أن يشارك في نشاطات المركز ضمن إطارات اهتمامه.

5- أن يشترك في مجلة المركز الثقافية النفسية المتخصصة. حيث يعتبر هذا الاشتراك هو رسم الاشتراك في عضوية المركز. وتتوزع أنواع الاشتراك كمايلي:

- اشتراك عادي 40 دولار سنوياً (يحصل على أعداد المجلة).
- اشتراك شامل 100 دولار سنوياً (يحصل على كافة إصدارات المركز عن سنة الاشتراك من كتب ونشرات وغيرها).
- اشتراك مدى الحياة 500 دولار.

للاشتراك يرسل طلب الاشتراك مبيناً فيه بوضوح: الاسم والعنوان، والمستوى الأكاديمي، ومكان العمل، وفئة العضوية المطابقة. ويرسل الاشتراك بموجب حوالة باسم رئيس التحرير د. محمد أحمد النابلسي على الحساب التالي: المصرف: الشركة العامة اللبنانية، الأوروبية المصرفية ش.م.ل/ فرع طرابلس رقم الحساب:

(1- 01- 330384- 360-001-010).

صاحب الحساب: محمد أحمد النابلسي

قسيمة الاشتراك

الاسم:

التخصص:

التخصص الدقيق:

مكان العمل:

نوعية الاشتراك وقيمته:

العنوان (بما فيه أرقام الهاتف والفاكس والبريد العادي والالكتروني)

قواعد نشر البحوث

في مجلة الثقافة النفسية المتخصصة

تعمل مجلة الثقافة النفسية المتخصصة على تقديم أفضل مستوى ممكن من الإحاطة بمستجدات الاختصاص في كافة فروع العلوم النفسية، محاولة بذلك الاستجابة لحاجات المتخصصين والمهتمين، خصوصاً بعد تداخل تطبيقات الاختصاص مع مختلف فروع العلوم الإنسانية. وذلك من خلال إطلاع القارئ على اتجاهات البحوث العالمية، وتعريفه بأخبار ومستجدات هذه البحوث، وعبر بعض الترجمات المفيدة. أما بالنسبة للبحوث العربية، فإن المجلة تسعى لتقديم فرصة عرض الدراسات والبحوث الرصينة والمسايرة للمستجدات وللحاجات الفعلية لمجتمعنا العربي.

وصفحات هذه المجلة مفتوحة أمام كل الباحثين العرب، وهي ترحب بمساهماتهم الملتزمة بشروط النشر التي حددتها الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير على الشكل التالي:

قواعد عامة

1- الالتزام بالقواعد العلمية في كتابة البحث.
2- أن يكون البحث مطبوعاً ومراجعاً من قبل كاتبه.
3- أن لا يكون البحث قد سبق نشره أو عرضه.
4- أن يقدم الباحث إقراراً بعدم إرساله إلى جهة أخرى.
5- أن لا يزيد عدد صفحات البحث عن 20 صفحة.
6- كتابة العناوين الرئيسية وسط السطر، والعناوين الفرعية على الجانب الأيمن.
7- إرسال نسخة واحدة من البحث مع الديسك.
8- السيرة العلمية المختصرة بالنسبة للكتّاب الذين لم يسبق لهم النشر في المجلة.

قواعد خاصة

1- كتابة عنوان البحث، واسم الباحث ولقبه العلمي، والجهة التي يعمل لديها على صفحة الغلاف.
2- يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي:
3- تسجيل أسماء المؤلفين والمترجمين متبوعة بسنة النشر بين قوسين، ثم بعنوان المصدر، ثم مكان النشر، ثم اسم الناشر.
4- تخضع الأعمال المعروضة للنشر للتحكيم العلمي السري، وفقاً للنظام المعتمد في المجلة، ويبلغ الباحث في حال وجود اقتراحات تعديل من قبل المحكمين.
5- توجه جميع المراسلات الخاصة بالنشر إلى رئيس التحرير.
6- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كتابها ووجهات نظرهم.
7- تلتزم المجلة بإبلاغ الباحث عن قرار النشر، وهي لا تعيد الأبحاث المرفوضة لأصحابها.
8- لا تدفع المجلة مكافآت مالية عن البحوث التي تنشرها.

المحتويات

إفتتاحية الختام نهاية العصر الورقي 7

عزيزي القارئ نحو رؤية تكاملية للثورات العربية/ أسرة التحرير 11

قضية حيوية:

دروس الانتصار/ د. قدري حفني 15

علم النفس حول العالم

إعداد: نشأت صبوح، وبدرية نعمان، وسناء شطح 21

الثورات العربية

تطبيقات الطب النفسي السياسي في حالة الثورات العربية/ د. محمد أحمد النابلسي 33

مدارس العلاج النفسي

الفاعلية العلاجية للموسيقى/ د. السعيد عبد الصالحين محمد 41

الطب النفسي الاجتماعي

سيكولوجية المنافق، الضلالي.. والبلطجي/ د خليل فاضل 51

الوبائية النفسية

الكآبة الحضارية(1)/ د. صادق السامرائي 55

التحليل النفسي للأدب

من المجاز اللغوي إلى المجاز التحليلي 67

سيكولوجيا الرقميات

هل الهاتف النقال وسيلة للتقارب الإنساني/ ترجمة: د. سامر رضوان 79

التراث النفسي العربي الحديث

مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي وآفاق تطويرها/ د. نزار عيون السود 87

ملامح من تاريخ الطب النفسي في السودان/ لواء طبيب: نور الهدى محمد الشفيع 117

الندوات والمؤتمرات ١٠ 125

مكتبة العدد 129

شخصية العدد

الرائد المرحوم الدكتور يوسف مراد 141

ملف العدد

السيكولوجيا السياسية في مجال الجاسوسية 143

إصدارات مركز الدراسات النفسية

طرابلس – لبنان ص. ب: 3062 التل
فاكس: 438925 - 6 - 00961
هاتف: 441805 - 6 - 00961

1- المعجم النفيس
مصطلحات طبية ونفسية وعصبية
ذياب والجراية وعمار (40 دولاراً أميركياً)

2- سيكولوجية السياسية الإسرائيلية – النفس المغلولة
إصدار 2001 (10 دولارات أميركية)

3- الصدمة النفسية – علم نفس الحروب والكوارث (6 دولارات أميركية)

4- سيكولوجية السياسة العربية – العرب والمستقبليات
إصدار 1999 (10 دولارات أميركية)

5- معجم مصطلحات الطب النفسي (10 دولارات أميركية)

نهاية العصر الورقي

صدرت هذه المجلة مطلع العام 1990، لتكمل بهذا العدد عامها الثاني والعشرين، متخلية عن طموحات ثبت لاجدواها بعد هذه التجربة التي عايشت كل مظاهر الإهمال، وكل تناقضات الواقعين اللبناني والعربي، وأزماتهما التي تفجرت عبر ينابيع الغضب الشعبي، بغض النظر عن تقنينها في المسارات الصحية، أم لا.

يوم إطلاقنا للمجلة فصلنا تماماً بينها وبين ربطها بأشخاص، فسعينا إلى ضم قائمة من الاختصاصيين اللبنانيين والعرب والأجانب إلى هيئتها الاستشارية، فاتحين الباب أمام مساهمات مختلف الفروع النفسية، كما أمام مختلف المواقف، حيث تلامس العلوم النفسية كافة الإنسانيات، فالحديث عن الإرهاب والآثار النفسية للحروب تحتمل خلافات المواقف السياسية.

أبسط من ذلك، طرحت المجلة شعار "نحو علم نفس عربي"، وأقامت تحت هذا الشعار مؤتمرها الأول عام 1992، فكان الشعار كافياً لإطلاق حملة شعواء ضد الشعار، وعبره، ضد المجلة وضدنا شخصياً. وفيما قصدنا جمع وتنظيم الجهود والمساهمات النفسية العربية في مختلف الفروع والتعريف بروادها، طرحت أسئلة من نوع "علم نفس عربي أم إسلامي؟".

حاولنا إنصاف المؤسس الرائد، وأستاذ أساتذة العلوم النفسية العرب البروفيسور مصطفى زيور، بتخصيصه بجائزة سنوية رمزية تحمل اسمه.

حاولنا إقامة الاتصال المباشر بين الباحثين العرب عبر مؤتمرات المجلة الأعوام 1992 و1994 و1996

اللبنانية، ما أدى إلى إيقاف هذه المؤتمرات.

حاولنا التعريف بمساهمة الزملاء العرب في إثراء المكتبة النفسية بكتب جديدة تدعم ركن المراجع العربية فيها، وتتيح للدارسين فرص اطلاع جديدة.

حاولنا التعريف برواد الاختصاص العرب عبر مقابلات نشرتها المجلة، كما عبر عرض السير العلمية لهم.

حاولنا تسهيل التواصل بين الاختصاصيين العرب بإصدار الدليل النفسي العربي، ومن بعده دليل الاختبارات النفسية العربية، ومن ثم دليل المكتبة النفسية العربية، وغيرها من جهود الفهرسة.

حاولنا متابعة المؤتمرات النفسية العالمية، حيث يكاد يغيب الحضور العربي في هذه المؤتمرات.

حاولنا ترجمة جديد البحوث النفسية العالمية، ووضعها بين يدي القارئ.

حاولنا تحويل المجلة إلى مؤسسة لا ترتبط بشخص لضمان استمراريتها، وفي انتظار ذلك تحملنا أعباء إصدارها على مدى اثنين وعشرين عاماً دون جدوى.

الملابسات والتفاصيل وانعكاسات هذا العمل علينا كانت معيبة، ومدعاة للتجاهل، من منطلق الحديث الشريف "الكريم من كتم إهانته". أما عن الظروف المادية، فهي مرتبطة بالاهتمام الرسمي اللبناني والعربي بالبحث العلمي، ووصول الفساد إلى تقاسم المخصصات الضئيلة للبحث العلمي.

المجلة العلمية ليست مشروعاً تجارياً ناجحاً، ولا يمكنه أن يكون كذلك، وهي دون جدال مشروع لا يتوخى الربح، لكنه يحتاج إلى تمويل. ولعل من المفيد عرض تجربتنا في مجالات الحصول على التمويل علها تفيد مشاريع عربية شبيهة قد ترى النور مستقبلاً، حيث تفيد تجربتنا بانسداد قنوات التمويل التي تحفظ للعمل كرامته، وتقليدياً فإن هذه القنوات تصنف كالتالي:

1 ـ مساهمة الباحثين في التمويل: درجت المجلات العلمية العالمية على طلب بدل نشر من مؤلفي البحوث المقبولة للنشر لقاء حصول المؤلف على عدد من مستنسخات بحثه. في المقابل، فإن مؤلفينا، وبخاصة الذين يسعون لنشر بحوثهم من أجل الترقية، لم يكلفوا أنفسهم مجرد عناء الاشتراك في المجلة، ولو لسنة واحدة، بل إن بعضهم يستلم نسخه ليعود فيطلب نسخاً إضافية بحجة عدم استلام النسخ المرسلة سابقاً. وبمراجعة التكلفة العالية للبريد اللبناني، تتحول هذه الحالات إلى أعباء تفوق أحياناً تكلفة نشر المجلة. حتى أن أحدهم أرسل رسائل إلكترونية يشهر بالمجلة، مدعياً عدم استلامه لنسخ يفترض أنها من حقه، دون اشتراك، ودون تمويل النشر، ورغم إرسال النسخ له ثلاث مرات بناء على طلباته الملحة. وبالمتابعة، أدركنا أن بعض الدول العربية لا تسمح

بتحويل العملات لشراء الكتب والمجلات العلمية، لذلك يلح باحثوها للحصول على أكبر عدد ممكن من النسخ، كما أن بريد الكتب لا يصل دائماً لأصحابه، نظراً لسهولة بيع الكتب بأنواعها في أسواق متعطشة للكتاب، ولم يكن أمامنا سوى الامتناع عن نشر البحوث الواردة من تلك البلدان.

2 ـ إعلانات الأدوية: كانت المجلة تتابع البحوث المنشورة حول سلبيات بعض الأدوية النفسية، بما فيها تلك التي تسحب من التداول في الدول المنتجة، مع استمرار تصديرها لدول العالم الثالث. وهذه المتابعة هدفت لوقاية المريض العربي من هذه الأدوية، وتعريف الأطباء بجديد هذه البحوث الدوائية، حيث بإمكان المريض الأميركي المتضرر أن يحصل على تعويضات كبيرة عبر القضاء الأميركي، فيما يمكن للمريض العربي أن يموت نتيجة هذه الأدوية دون أن يجد من يتحدث عن الموضوع. وهذه المتابعات المتصلة وضعت المجلة في حالة عداء مع شركات الأدوية التي عزفت تماماً عن الإعلان في المجلة. وكان الإعلان الوحيد الذي استضافته المجلة تحت ضغط الزملاء العراقيين الراغبين بالحصول على المجلة خلال حصار العراق وفترة النفط مقابل الغذاء. وفي هذا الإطار، نشرت شركة دواء مهتمة بالسوق العراقية إعلاناً لأحد أدويتها لمدة سنة واحدة، من مبدأ "مجبر أخاك لا بطل". ولسنا متأكدين من أن إلغاءنا لباب متابعات أضرار الأدوية كان ليجلب لنا الإعلانات، إذ تفضل شركات الأدوية أن تتصل مباشرة بالطبيب، وتقدم له الهدايا مباشرة على أن تصرف مخصصات دعايتها على منشورات علمية.

3 ـ إشتراك المؤسسات والجامعات: وهنا تبرز مآسي البحث العلمي في الدول العربية، حيث تعجز معظم الجامعات العربية عن الاشتراك في المنشورات العلمية بسبب شح الموارد. والطريقة الوحيدة لإيصال المجلة إلى هذه الجامعات هي إرسالها مجاناً إلى هذه الجامعات. أما الجامعات القادرة مالياً فهي تمارس رقابة صارمة على المحتويات، وتضع المنشورة على اللائحة السوداء إذا ما احتوت أسماء علماء معينين، أو تطرق أحد مقالاتها لموضوع غير مرغوب. وهكذا، خرجنا من تجربة أكثر من عقدين بسبعة اشتراكات لجامعات عربية لا غير. بالإضافة إلى ثلاث مؤسسات عربية، ومكتبة عامة واحدة، أما في لبنان فقد واجهتنا معضلة أن الأساتذة اللبنانيين لا يقرأون باللغة العربية!!!... وهي معاداة للغة العربية صعدتها ثورة الأرز التي أحبت الحياة بغير اللغة العربية.

4 ـ وسائل أخرى: كنا ضمن هيئة الإيسيسكو لوضع استراتيجية لعلاج أطفال الانتفاضة، باستضافة إحدى الدول العربية العام 2001، والتقينا وزير التعليم في تلك الدولة، الذي نصحنا بالبحث عن تمويل هذا المشروع العلاجي من خارج الدول العربية. وبين الوزير أن الدول العربية غير مهتمة بدعم مشاريع علمية، بل هي تبحث عن مشاريع مجدية إعلامياً، وهو يعني ضمناً بلده، وإلا لكان عرض تمويلها للمشروع، وكانت رائحة الفساد تفوح من داخل الهيئة، وكان طبيعياً أن ينتهي المشروع، ويستبدل بنوع من العيادة داخل فلسطين ممولة من مؤسسة أميركية. وفي لبنان، تمارس الوكالة الأميركية للتنمية نشاطات واسعة، وتوظف أموالاً بأسلوب مخابراتي حديث يستهدف البنى الاجتماعية والثقافية اللبنانية. ولكن المجلة أطلقت لأهداف أسمى وأبعد عن الشبهات المحيقة بنشاطات التمويل الأميركي.

5 ـ لبنان منارة الثقافة: تبلغ تكلفة البريد اللبناني لإرسال نسخة واحدة من المجلة، أو من كتاب علمي بحجمها عشرة دولارات أميركية، علماً بأن النسخة تباع بعشرة دولارات، وهذه التكلفة تعكس طلائع الخصخصة الفاسدة في لبنان، ومعها تضخم الضرائب غير المباشرة لدفع فوائد المديونية اللبنانية الضخمة، حيث ابتلعت هذه المديونية ليس فقط مخصصات البحث العلمي، بل هي اغتالته بوسائط متعددة، ومنها تكلفة البريد. كما تكرست لايقينية الوطن اللبناني عبر رفض البحوث العلمية العربية، والإصرار على المراجع الأجنبية، على سبيل الشوفينية، والخوف من العربية، وهي فوبيا منتشرة ومهددة، وهي التي نعنيها بلايقينية الوطن اللبناني، هذا في مقابل الإعجاب والإقبال العربيين على إنتاج المطابع اللبنانية باللغة العربية.

هذه تجربتنا نضعها بين أيدي القارئ، كما نضعها بتصرف المشرفين على تجارب مشابهة، والطامحين لمثلها. نستودع قراءنا الله، شاكرين لهم مشاركتهم، واهتمامهم بمواكبة مسيرة هذه المجلة..... آملين أن نتمكن من المضي قدماً في نشاطات مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية، رغم معاناته من ظروف مجلة الثقافة النفسية المتخصصة ذاتها، التي كان يصدرها (1990 ـ 2011).

رئيس التحرير

عزيزي القارئ

نحو رؤية تكاملية للثورات العربية

د. محمد أحمد النابلسي
رئيس المركز العربي للدراسات المستقبلية

لاتزال تأثيرات الثورات العربية توالي انعكاساتها وآثارها وفق دوائر تنطلق من مركز كل ثورة، وتتسع تدريجياً لغاية تلاقيها مع الدوائر الأوسع للثورات الأخرى. والأمر يشبه إلقاء حجر في بحيرة مياه راكدة، حيث يسهل رصد الدوائر التي يحركها كل حجر على صفحة هذه المياه.

إلا أن إلقاء حجر ثان وعاشر في هذه المياه يخلق مساحات مختلطة تختلط فيها الدوائر الواسعة لهذه الأحجار جميعها، بحيث تصبح هذه المناطق منطقة مشتركة بين كل الأحجار، بغض النظر عن حجم الحجر ونوعه، وسرعة إلقائه في الماء. وهنا يصعب تحديد أثر كل حجر (ثورة عربية) في إحداث هذه الموجات المائية المشتركة. وحيث تشكل كل موجة منها معادلة رياضية، لا يمكن حلها إلا عبر معادلات قواعد الهولوغرام المؤدي إلى رؤية ثلاثية البعد لهذه الموجات.

وللتوضيح، فإن الهولوغراف يعطي صورة ثلاثية الأبعاد، خلافاً للفوتوغراف ذي الصورة ثنائية البعد، لأن كل نقطة من فيلم الهولوغراف تحتوي على الصورة كاملة، بينما تحتوي كل نقطة من الفيلم الفوتوغرافي على نقطة موازية من الصورة، وذلك بحيث يعطي فيلم الهولوغراف آلاف الصور المتطابقة، ما يجعل صورته ثلاثية الأبعاد.

من جهتها، مدرسة الجيشتالت تنطلق من مبدأ أن "الكل" يختلف عن "مجموع الأجزاء" المكونة له. وعليه، فإن تناول المناخ العربي العام بعد الثورات يختلف عن تناول المناخ في كل

بلد على عربي على حدة، وهو أكثر اختلافاً بين البلدان التي شهدت الثورات، أو انطلاقات احتجاجية لم ترقَ لمرحلة الثورة.

وإذا كان من الطبيعي أن يسعى كل بلد من البلدان العربية المتعرضة لهذه التغييرات المفاجئة للسعي من أجل الحفاظ على استقراره وفق المعادلة الإقليمية الجديدة، فإن من الطبيعي أيضاً أن يسعى الخارج الإقليمي والدولي، صاحب المصالح في المنطقة العربية، للتكيف مع قواعد اللعبة الجديدة في المنطقة مع تسخير الإمكانيات المتاحة للتأثير في التوازنات الجديدة.

المؤسف أن الطبيعة العاطفية الانفعالية لاتزال تتحكم في معظم الكتابات الاختصاصية النفسية، بحيث تتواصل ضبابية الرؤية في كل بلد عربي على حدة. ومنها مقالات تحول الأوضاع العربية إلى الأمراضية، لغاية التنافس على وضع تشخيص نفسي لحالات بعض الرؤساء العرب السابقين في التنحي ومحتملي السقوط.

في المقابل، فريق آخر أكثر استدعاء للضبابية، بدعوته للتوقف عن تشخيص حالات هؤلاء الرؤساء، لأن وصمهم بالمرض النفسي يعفيهم من المسؤولية.

ولعل الأكثر إدهاشاً هو اختلاف الجميع على الرؤساء المعنيين بوصمة الجنون، وكأن الطب النفسي وتشخيصاته هو الذي يحدد مصير الحراك الاجتماعي العربي واتجاهاته. وأغلب الظن أن هؤلاء الزملاء قد نسوا مبدأ "الانتباه العائم"، وأصيبوا بنسيان ضرورة الإصغاء لدى فحص وتشخيص الحالة، فما بالنا والحالة تتعلق بمستقبل شعوب ومجتمعات.

رغم ما تقدم، ورغم ما نعتبره من إساءات لاستخدام وتوظيف الاختصاص، فلقد بتنا نتلمس بدايات الخروج من هذه الضبابية، عبر ضغوط المسؤوليات والتحديات المطروحة على الاختصاص، حيث بدأت المهام العملية تفرض نفسها على المعالجين النفسانيين، حيث تكشف سقوط بعض الأنظمة العربية، وتراخي بعضها عن ضحايا تعذيب قاسٍ تعرض له بعض المعتقلين السياسيين السابقين، وهي حالات تدخل في إطار الاختصاص، كواحدة من أصعب الحالات علاجاً، كون هذه الحالات ناجمة عن صدمات اصطناعية وقصدية ومتكررة.

ومن هذه البدايات أيضاً، دعوة الزميل قدري حفني (مصر) لتسخير الاختصاص ليس فقط لتدعيم مناعة الثورات، ولكن أيضاً تنبيه حفني للخطر المحيق بوجود الوطن نفسه، حيث محاولات إشعال الفتنة تستخدم وقود الانفعالات، مهددة وجود الوطن نفسه.

من جهتنا، فإن قلقنا الكبير يتركز على الخوف من فقدان الإرادة قبل القدرة على الرؤية الهولوغرافية لتطورات الأحداث في المنطقة، وذلك في مقابل قدرات أجنبية يدعمها العلم

والمعلومات لتحقيق اختراقات كافية لدفع المتغيرات الجيوسياسية المصاحبة للثورات نحو المشاريع الدولية المعدة للمنطقة، وبخاصة مشروع تغيير الخارطة العربية، حيث تلوح معالم الجراحات الجغرافية الوحشية في أكثر من بلد عربي.

وبالمناسبة، كنا قد تعرضنا مراراً منذ العام 1995 لما يسمى بتقارير التنمية العربية معترضين على معايير السعادة التي تعتمدها هذه التقارير، والتي تفرض على مجتمعاتنا معايير السعادة الأميركية، وهو ما نقصده عندما ننتقد ما سمي يوماً "نحن نحب الحياة"، وبذلك خالفنا تكراراً ضبابية السائد، بما عرضنا لانتقادات تشبه تلك التي نتعرض لها لمجرد طلبنا تأجيل البحث النفسي في موضوع الحراك الشعبي المقنن على قياس تقارير التنمية لحين جلاء المشهد، والتعرف على حقائقه وخلفياته.

إلا أننا هذه المرة نجد الدعم في دراسة أميركية، حيث سجل باحثون أميركيون وبريطانيون مفارقة، وهي أن معدلات الانتحار الأعلى موجودة في الدول والأماكن التي تعد الأكثر سعادة.

ويشار إلى أن كندا، وسويسرا، وآيسلندا، وأيرلندا، تعد من بين الدول الأكثر سعادة، لكن معدلات الانتحار فيها مرتفعة جداً أيضاً.

ولفت الباحثون إلى أنه نتيجة اختلاف الثقافات، والتخلف عندنا، في خصوص الكشف عن عديد حالات الانتحار، فإن نتائج هذه الدراسة ليست حازمة.

وأشاروا إلى أنه في أميركا تعد ولاية يوتا أكثر الولايات رضا عن الحياة، لكنها تاسع ولاية لجهة أعلى مستويات الانتحار، في حين أن نيويورك في المرتبة الـ45 من حيث السعادة، لكنها سجلت أدنى مستويات الانتحار في الولايات المتحدة.

وبهذا الاعتراف الغربي، تتكرس دعوتنا المعارضة لتقارير التنمية البشرية التي صممت أساساً لتكريس الدول العربية على أنها الأماكن الأكثر تعاسة وبؤساً في العالم، في مقابل تكريس الغرب كأماكن هي الأكثر سعادة في العالم، كما يسيمها التقرير.

بعد هذا الاعتراف الغربي، هل بات من حقنا تكرار المطالبة بإضافة معايير معدلات الانتحار، والإدمان، من كحول، ومخدرات، إلى الاستمارات التي يعد على أساسها تقرير التنمية البشرية في الوطن العربي؟.... دعوتنا بدأت العام 1995 لإدراج هذه المعايير، فهل تدرج يوماً ما؟... أم أن علينا أن نستسلم لوصمة "العربي أتعس المخلوقات على سطح الكرة الأرضية!!

ربما لمجرد كونه عربياً...

هل تشتمون رائحة العنصرية...

هي الرائحة التي نشتمها من العودة الأميركية للحديث عن نشر الديموقراطية، وإدعاءات دعم الشعوب العربية، باستثناء الشعب الفلسطيني، الذي لا يسمح نتنياهو بمجرد تظاهر أوباما بدعمه، بعد الجرائم الأميركية في العراق، دون أن ندري كيف تبرر واشنطن أخلاقياً وإنسانياً استمرارية سلوكها المؤدي إلى جرائم ضد الإنسانية...

لقد قرأنا تقارير مراكز البحوث الأميركية عن اعتماد إدارة أوباما للحروب غير المنتظمة، التي تعني تجنب التورط العسكري الأميركي على طريقة بوش، واستبداله بإثارة الأزمات في أنحاء العالم.

هي سياسة العصا والجزرة، حيث أعطي الشارع العربي جزرة الثورة التونسية، والمصرية بعدها، كي يتم الانقلاب عليهم بثورات مضادة مدعومة أميركياً. وبعد كفاية تونس ومصر، جاءتنا إدارة أوباما بتحريك الأزمات المهددة بحروب أهلية في الدول الصديقة والممانعة لأميركا على حد سواء.... مع محاولات محمومة لسلب ما حققته الثورتان التونسية والمصرية...

هو الإصرار على مشروع تغيير الخارطة العربية، ونشر الفوضى في كافة الدول العربية، مدعوماً من قطعان جيفري فيلتمان في لبنان والدول العربية....

أسرة التحرير

قضية حيوية

دروس الانتصار

د. قدري حفني
kadrymh@yahoo.com

ظللت محتفظاً بتفاؤلي من ظهيرة 25 يناير إلى أن رأيت مراسم إعلان تنحي الرئيس الساعة السادسة من مساء 11 فبراير 2011، وشاهدت ممثل المجلس الأعلى للقوات المسلحة يودع القائد الأعلى السابق للقوات المسلحة بكل الاحترام، ثم يرفع يده بالتحية العسكرية تقديراً لشهداء الثورة، ومؤكداً أن المجلس الأعلى للقوات المسلحة ليس بديلاً للشرعية، ثم شاهدت الجموع المليونية تحتشد من جديد منذ يومين في جمعة النصر 18 فبراير 2011.

وبدأتُ خلال ذلك أستعيد ذكريات أعوامي التي تجاوزت السبعين، متأملاً ما أنجزه الأحفاد صناع ثورة 25 يناير، الذين أثبتوا استحالة قراءة واقع جديد بنظارات قديمة، لعلها كانت صالحة لرؤية الواقع القديم. ولذلك فقد حاولت منذ ظهيرة 25 يناير أن أرصد بنظاراتي القديمة ما أصبح غائباً عنها؛ أي أرصد ما لم أعد أراه، فاكتشفت سقوط أوهام التعصب الديني، والعنف الجماهيري الكامن، والعجز عن المشاركة، وتدهور الإحساس بالانتماء والقدرة، والصورة الشيطانية للإخوان المسلمين؛ أوهام كنت أراها كحقائق أكاد ألمسها بيدي.

ومع تحقيق الثوار لهدفهم الأساسي المعلن، عدت لأراجع مرة أخرى مخزوني الفكري القديم لشروط الثورة وآلياتها، لأكتشف أن ذلك المخزون الفكري قد عفا عليه الزمن.

أولاً: ضرورة القائد

لم أجد في مخزوني الفكري نموذجاً واحداً لثورة دون رمز يتمثل في قائدها. هكذا كان عرابي، وسعد زغلول، وعبد الناصر، وأبو عمار، وكاسترو، ولينين، وغيرهم على امتداد الجغرافيا والتاريخ. تعلمنا أن القائد ضروري ليعلن أهداف الثورة، ويضبط مسارها، وساورني القلق في البداية من تلك الظاهرة غير المسبوقة. ترى من هو المتحدث المعتمد باسم الثوار؟ لقد توافد عديد الرموز السياسية الوطنية إلى ميدان التحرير، ولاقاهم الثوار بكل توقير واحترام، ولكن دون اختيار أحدهم قائداً، أو رمزاً، لثورتهم. ولعل السلطة كانت تبحث من ناحيتها وفقاً للإطار الفكري القديم عن قائد خفي للثورة يمكن اصطياده لإغوائه، أو تهديده، أو التفاهم معه، أو حتى تصفيته. وفضلاً عن ذلك، فلم يكن للثوار تنظيم واحد يجمع بينهم جميعاً، بل تنظيمات عديدة تشمل الأطياف المصرية جميعاً، من مجموعات الفيس بوك، إلى جماعات الاحتجاج السياسي والاجتماعي، إلى جماعة الإخوان المسلمين، إلى الشيوعيين، إلى جماعات أو حتى أفراد يعبرون عما لحقهم من ظلم.

ولا يستطيع المرء مهما بلغت سذاجته أن يتصور حشداً مليونياً يدير أموره الحياتية من إعاشة وحماية وعلاج، بل وإعلام وترفيه، دون هيئة تتولى تنظيم ذلك. إنني موقن علمياً من ذلك، حتى دون دليل ملموس، ولكن يبقى الجديد هو الذي أضافته ثورة يناير للتراث الثوري العالمي، إمكانية أن تنجز الجماهير ثورة منتصرة دون أن تضيع وقتها في الحوار التاريخي حول من هو الأحق بالقيادة، ودون أن تمكن تلك الجماهير أحداً من اختراقها.

لقد كان نجاح الثورة دون حاجة للقائد الرمز، أو التنظيم الثوري القائد، أمراً إيجابياً لا نظير له في المخزون الفكري القديم.

ثانياً: الثورة السلمية

حين شاهدت طلائع مسيرات الثوار استوقفني أنهم كلما اقتربوا من مبنى مؤسسة، أو اقتربت منهم جنود الشرطة، ارتفعت أصواتهم بهتاف "سلمية سلمية". وعدت إلى مخزوني الفكري القديم، حيث يقبع ملف قديم يحمل عنوان الكفاح السلمي، أو السلام الهجومي. لقد تملكني اليأس بعد أن كتبت طويلاً في الموضوع، وكيف أن موازين القوي المادية ليست وحدها العامل الحاسم في الصراع، وأن للجماهير المسالمة أسلحتها النضالية. وتكاتفت قوى عديدة لوصم ذلك النوع من الكفاح بكافة الإدانات الثورية التي تؤكد أنه لا تغيير دون

سلاح، ولا ثورة دون أنياب. وجاء ثوار 25 يناير بهتافهم العبقري "سلمية سلمية"، ليثبتوا عملياً رغم ما واجهوه من عنف دموي أن الجماهير المسالمة المحتجة المليونية يستحيل أن يقهرها أحد، وأن تلك الجماهير هي أنياب الثورة ودرعها الواقي.

ثالثاً: الجيش يلحق بالثوار، وليس العكس

لقد عرفنا من خلال خبراتنا القديمة أن طلائع الجيش الثوري ينبغي أن تسبق الجماهير، وتعبر عن آمالها، وتحمي تحقيق تلك الآمال، وأنه إذا ما حدث العكس فتحركت جماهير مسالمة، أو حتى أقل تسليحاً، فإن الجيش سوف يبادر إلى قمعها حماية لشرعية السلطة القائمة. وجاءت ثورة 25 يناير لتضيف للخبرة الثورية إضافة غير مسبوقة. الثورة السلمية تنتشر في مدن مصر، وتستمر رغم سقوط الشهداء، وتصدر الأوامر في اليوم الخامس لقوات الجيش المصري بالنزول من معسكراتها إلى الشوارع لإعادة الانضباط. وصاحب نزول دبابات الجيش إلى الشوارع تحليق بعض الطائرات العسكرية فوق المتظاهرين، ولعل رعباً لم يصب الثوار الشبان، ولكن منا نحن المسنين من أصابه رعب له ما يبرره بطبيعة الحال، فتحليق هذه الطائرات الحربية في ميدان التحرير أعاد إلى الذاكرة الأحداث الدموية المرعبة الدموية التي تم فيها سحق المتمردين، حيث قتل في ساحة تيانمين في الصين عام 1989 ثلاثة آلاف متظاهر، وسقط في الثورة الإيرانية عام 1979 ثلاثة آلاف قتيل، وسقط في حماة عام 1982 أكثر من عشرين ألف قتيل، وقتل في ثورة إندونيسيا عام 1998 قرابة ألف شخص.

ولكن عيون المصريين رأت مشهداً فريداً سيظل عالقاً في وعيهم الجديد. لقد وقفت دبابات الجيش المصري لتحول بين الثوار وبلطجية فلول النظام، وسمعت المسؤول العسكري الميداني عن ميدان التحرير لجموع المحتجين أن أحداً من رجال الجيش لن يطلق عليكم رصاصة، وفي الوقت نفسه لم تتحول مدافع الدبابات إلى السلطة لتزيحها بعمل انقلابي. ترى، هل كان ذلك يعني دعوة للثوار لرفع أصواتهم عالياً لتسمعها السلطة وتقتنع بأنه لا سبيل أمامها سوى الامتثال لمطلب الثوار؟ قد تحمل لنا الأيام من التفاصيل ما يفسر ما كان يدور بين قادة الجيش المصري آنذاك، ولكن بصرف النظر عن تلك التفاصيل، فسوف يبقى راسخاً ذلك المشهد الفريد غير المسبوق: الجيش يلتحق بالثوار، وليس العكس.

رابعاً: الثوار حماة الثورة

رسخ لدينا من مسلمات الزمن القديم أنه لابد للثورة الشعبية من ضامن يقوم على حمايتها، وتجنيبها مخاطر الثورة المضادة، ومخاطر الانحراف، ومغامرات المتربصين، وسادت بناءً على ذلك الفكر القديم أن الجيش هو الضمان. وأظن أن ذلك الجيش العظيم الذي لحق بالثوار، ورفض أن يقف في مواجهتهم، بل وتكفل بحمايتهم، ذلك الجيش هو الذي في حاجة إلى ضمان يكفل له إلا يتعرض لانشقاق، أو انقلاب، أو تهاون. وليس من ضمان سوى ذلك الشعب الذي انضوى تحت راية ثورة 25 يناير. إن أي صانع قرار في مصر الغد، وأياً كان لونه الفكري، أو انتماؤه العقائدي، أو حتى نوعية ولائه القومي، أو الديني، أو الدولي؛ لن يبرح ذاكرته قط مشهد تلك الملايين التي اندفعت فجأة، ودون توقع، لتصنع ثورة 25 يناير 2011، متحدية كافة أساليب القمع الدموي والتشويه الفكري. وسوف يكون هذا المشهد بتفاصيله هو الضمان الذي يضغط على الجميع: "ترى ما الذي يحول دون الجماهير المليونية من التدفق من جديد؟" ولعل التجمع المليوني غير المسبوق في جمعة الانتصار 18 فبراير دليلاً على إمكانية ذلك التكرار.

خامساً: الخبز يلحق بالحرية

كان التصور السائد هو أن تتطور الاحتجاجات والإضرابات والاعتصامات العمالية والفئوية لتصبح بمثابة القاطرة التي تلحق بها بقية فئات المجتمع المتعاطفة مع من يطلبون "الخبز"، ولعله من الملفت للنظر في ما يتعلق بمسار ثورة 25 يناير أن طليعتها كانت من شباب مثقف ميسور الحال لا يعاني من شظف عيش، أو بطالة، ولكنه كان يفتقد الكرامة والحرية، ومن ثم فقد غيرت ثورة 25 يناير المعادلة التقليدية، حيث احتل من يطلبون الحرية مقدمة المشهد في البداية، لتلحق بهم وتلتف حولهم جموع المطالبين بالخبز، ممن يشكون شظف العيش والبطالة والفساد واتساع الفجوة بين الأجور.

سادساً: آليات جديدة لتشكيل الجبهة

لقد جمع الحشد المليوني في ميدان التحرير ألوان الطيف السياسي المصري كافة، من الإخوان المسلمين، إلى الشيوعيين، إلى حزب الجبهة، إلى الحزب الناصري، إلى حركة كفاية، إلى أنصار الدكتور محمد البرادعي، إلى جماعة خالد سعيد، وجماعة 6 أبريل، و25 يناير، إلى آخره.

حين نظرت إلى تلك الصورة المعقدة تساءلت بمنظوري القديم: ترى كيف لهؤلاء أن ينسقوا جهودهم لتكوين جبهة يتوافق عليها الجميع؟ واستعدت ذكريات محاولات فاشلة لتكوين الائتلافات والجبهات، في مصر، وفي العالم العربي، إلى حد بروز ظاهرة تفتت التيار السياسي الواحد إلى مجموعات متصارعة. تذكرت كيف كان المناضلون يمضون وقتاً طويلاً في تحديد ماذا بعد الإطاحة بالعدو، أو بالنظام الفاسد. وتذكرت كيف انقسم حزب البعث العربي الاشتراكي على نفسه. وتذكرت كيف كنا نتحدث طويلاً عن صورة فلسطين بعد التحرير: اشتراكية، أم إسلامية، أن لا شرقية ولا غربية. وكيف كنا نبذل جهداً شاقاً لا يثمر كثيراً في البحث عن صيغة لتنظيم مظاهرة، مجرد مظاهرة، يشترك فيها الشيوعيون، والإخوان المسلمون، والوفديون. كانت تشغلنا قضية: وماذا بعد الانتصار، وكان المبرر الذي بدا للكثيرين مقنعاً آنذاك: إننا إذا ما لم نتفق على المستقبل بتفاصيله، فسوف ينتهي بنا الأمر إلى التقاتل والفوضى.

وفوجئت بأن تلك الجموع المليونية من الثوار، دون تنسيق سياسي مسبق، تخطوا تلك العقبة الكأداء، ورفعوا شعاراً واحداً أجمعوا عليه "الشعب يريد إسقاط النظام"، والتف الجميع حول هذا الشعار، دون أن يتنازل أحد عن توجهاته الفكرية الأصلية. ظل كل على قناعاته دون أن ينكرها، أو يتنكر لها، معترفاً بحق الآخرين في الاحتفاظ بقناعاتهم، ويعلن الجميع التزامهم بعد الانتصار بالاحتكام إلى الجماهير، والخضوع لإرادتها في ظل حكم مدني يعبر عن إرادة الشعب عبر انتخابات نزيهة.

ختاماً:

ترى، هل انتهت الأخطار التي تهدد تلك الثورة؟ لا أظن ذلك، ومن هنا فثمة قلق مشروع، ولكن الفارق كبير بين التشاؤم والقلق. التشاؤم يعني ترجيح أن الثورة مآلها الفشل، ولعله من مسلمات علم النفس السياسي أن سيطرة الإحساس بالتشاؤم، وتوقع الفشل، يمكن في حد ذاته أن يؤدي إلى تحول هاجس الفشل إلى واقع فعلي، أما القلق فهو يعني أن الثورة في حاجة إلى أن تظل عيون الثوار، وكذلك آذانهم، مفتوحة.

إن القراءة النفسية للحرب على العراق هي مهمة ملقاة على عاتق فروع اختصاصية متداخلة. وهي ستشغل العاملين في هذه الفروع على مدى سنوات قادمة. وعليه فإن ما نقدمه في هذه الدراسة ليس سوى مقدمة لقراءات نفسية لاحقة تنتظر ظهور معلومات جديدة عن خلفيات هذه الحرب وأسرارها وصفقاتها الخفية.

محمد أحمد النابلسي

الحرب النفسية في العراق

متابعة للجوانب النفسية في الحرب الأميركية على العراق

علم النفس حول العالم

إعداد: نشأت صبوح، ورمزية نعمان، وسناء شطح.

أعلى معدلات الانتحار في أكثر الأماكن سعادة

سجل باحثون أميركيون وبريطانيون مفارقة، وهي أن معدلات الانتحار الأعلى موجودة في الدول والأماكن التي تعد الأكثر سعادة.

ويشار إلى أن كندا، وسويسرا، وآيسلندا، وأيرلندا، تعد من بين الدول الأكثر سعادة، لكن معدلات الانتحار فيها مرتفعة جداً أيضاً.

ولفت الباحثون إلى أنه نتيجة اختلاف الثقافات والتخلف عندنا، للكشف عن عديد حالات الانتحار، فإن نتائج هذه الدراسة ليس حازمة.

وأشاروا إلى أنه في أميركا تعد ولاية يوتا أكثر الولايات رضا عن الحياة فيها، لكنها تاسع ولاية لجهة أعلى مستويات الانتحار، في حين أن نيويورك في المرتبة الـ45 من حيث السعادة، وإنما سجلت فيها أدنى مستويات الانتحار في الولايات المتحدة.

وبهذا الاعتراف الغربي، تتكرس دعوتنا المعارضة لتقارير التنمية البشرية التي صممت أساساً لتكريس الدول العربية على أنها الأماكن الأكثر تعاسة وبؤساً في العالم في مقابل تكريس الغرب، كأماكن هي الأكثر سعادة في العالم، كما يسيمها التقرير.

بعد هذا الاعتراف الغربي، هل بات من حقنا تكرار المطالبة، بإضافة معايير معدلات الانتحار والإدمان من كحول ومخدرات إلى الاستمارات التي يعد على أساسها تقرير التنمية البشرية في الوطن العربي؟.... دعوتنا بدأت العام 1995 لإدراج هذه المعايير، فهل تدرج يوماً ما؟... أم أن علينا أن نستسلم لوصمة "العربي أتعس المخلوقات على سطح الكرة الأرضية!!... ربما لمجرد كونه عربياً... هل تشتمون رائحة العنصرية...

مرض التوحد يشغل العالم وأسبابه تظل غامضة

رغم مرور أربعة أعوام على إعلان الثاني من أبريل يوماً عالمياً للتوعية باضطراب التوحد، لاتزال أسباب المرض مجهولة، ولم يتوصل الباحثون إلى علاج جذري له.

ويعد مرض التوحد من أكثر الاضطرابات "النمائية" تأثيراً على المجالات الرئيسة، كالتفاعل الاجتماعي والتواصل اللغوي والمجال الإدراكي، ومن هذا المنطلق فقد جذب اهتمام الاختصاصيين والباحثين.

وتشير الإحصائيات الأخيرة التي جمعتها مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية إلى أن عدد الأطفال الذين يعانون من التوحد في تزايد مستمر، ففي الولايات المتحدة الأميركية يصاب طفل من بين 110 أطفال بهذا المرض.

وتختلف حدة أعراض المرض ما بين سطحية إلى حادة، ويمكن أن تظهر الأعراض من سن12 شهراً، وتصبح واضحة عند سن العامين.

ويؤكد الأطباء أن الاكتشاف والتدخل العلاجي المبكر للمرض، يؤدي أحياناً كثيرة إلى تحسن كبير في حياة الطفل.

وربما يكون الحدث الأبرز المرتبط بمرض التوحد هذا العام هو الدراسة الذي نشرتها المجلة الطبية البريطانية في يناير/ كانون الثاني الماضي في ثلاثة أجزاء، كشفت فيها عدم صدق البحث المثير للجدل الذي نشره الدكتور "أندرو ويكفيلد" في عام 1998.

ودراسة ويكفيلد كانت قد ربطت تزايد المرض باللقاحات الخاصة بالحصبة والنكاف والحصبة الألمانية، ما جعل كثيراً من الآباء يعزفون عن تلقيح أبنائهم ضد هذه الأمراض، خشية أصابتهم بمرض التوحد.

وأثبت التقرير تزوير ويكفيلد للتاريخ المرضي لـ12 مصاباً بالتوحد، يشكلون إجمالي الحالات التي استند إليها في دراسته.

وتجري حالياً دراسة واحدة كبيرة في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأميركية، تحت اسم" الدراسة الوطنية للطفولة،" تبحث في الآثار المترتبة على البيئة، لتشمل عوامل مثل الهواء، والماء، والغذاء، والصوت، وديناميكيات الأسرة والمجتمع والتأثيرات الثقافية، والجينات الوراثية، وتأثيرهم على تنمية وصحة الأطفال.

وسيتابع الباحثون الأطفال منذ بدأ تكوينهم داخل رحم الأم، وحتى بلوغهم 21 عاماً.

فربما تستغرق هذه الدراسة وقتاً طويلاً، لكنها ستقدم بالتأكيد بيانات ستساعد الباحثين لسنوات عديدة قادمة.

إدمان حبوب النشوة يسبب فقدان الذاكرة

أفاد بحث جديد نشرته غارديان أن الأشخاص المدمنين على تعاطي ما يعرف بحبوب النشوة Ecstasy لفترة طويلة يتعرضون لخطر الإصابة بتلف في الدماغ، وفقدان الذاكرة، وزيادة فرصة الإصابة بداء ألزهايمر، الذي هو مرض انتكاسي يصيب الجهاز العصبي المركزي، وأبرز شواهده الخرف عند كبار السن.

فقد استخدم باحثون هولنديون تقنية المسح بالرنين المغناطيسي لدراسة أدمغة عشرة رجال في أواسط العشرينيات كانوا يتعاطون 281 حبة نشوة في المتوسط لـ6.5 ست سنوات مضت، وسبعة آخرين تناولوا عقاقير أخرى.

ووجد العلماء أن "الحصين" - وهي منطقة تشريحية في الدماغ تتحكم في الذاكرة - كان أصغر 10.5٪ بين متعاطي حبوب النشوة، وكانت المادة السنجابية في الجملة العصبية أقل 4.6٪.

وقالوا إن "هذه البيانات تقدم دليلاً أولياً على أن متعاطي حبوب النشوة قد يكونون عرضة للإصابة بتلف الحصين، وهذا الأمر قد يساعد في تفسير فقدان الذاكرة المشاهد بين هؤلاء الأشخاص في دراسات سابقة".

وأضاف العلماء أن "ضمور الحصين علامة بارزة لمرض ضعف الإدراك التدريجي عند المرضى المسنين، مثل مرض ألزهايمر.

ومع ذلك، قال الأستاذ ديفد نت، وهو مستشار حكومي سابق بشأن سوء استخدام المخدرات، أن الدراسة المذكورة تفتقر إلى الآلية الكافية لإيجاد دليل محدد على تأثير حبوب النشوة". وأضاف أن الدليل يشير إلى أن كثيراً من المخدرات، بما فيها الخمر، يمكن أن تتلف ذاكرة الشخص.

مرضى السكري يشيخون مبكرا

أكد باحثون أميركيون أن مرضى السكري قد يشيخون في وقت مبكر عن نظرائهم الذين يتمتعون بصحة سليمة.

وقالت الطبيبة المسؤولة عن الدراسة كريستين سيغول، من جامعة ميشيغان للطب، أن مرضى السكري الذين تتراوح أعمارهم بين 51 و70 عاماً تتطوّر لديهم أمراض الشيخوخة، مثل الضعف المعرفي، وعدم التحكم بالبول، والدوخة، ومشاكل النظر، والشعور السريع بالألم، أكثر ممن لا يعانون منه.

وأشارت الباحثة إلى أن نسبة تطور حالات كهذه تتضاعف عند مرضى السكري هؤلاء، بينما يبدأ هذا التفاوت بالاختفاء مع وصول الأشخاص المصابين وغير المصابين بالسكري إلى عمر الثمانين.

وقالت سيغول "وجدنا أن الراشدين المصابين بالسكري في منتصف العمر يبدأون بالمعاناة من هذه المشاكل المرتبطة بالشيخوخة".

وأضافت أنه بسبب تأثير السكري على أنظمة عضوية معددة، فإنه يساهم بشكل ملحوظ في تطوير عدد من المسائل المتعلقة بالشيخوخة.

آلية جديدة لضبط مستويات سكر الدم

أماطت دراسة بريطانية جديدة اللثام، ولأول مرة، عن طريقة غير معروفة سابقاً يستخدمها الجسم للسيطرة على مستويات السكر (الغلوكوز) في الدم، بعد تناول أي وجبة من الوجبات، بحسب بيان لجامعة ليستر أتاحته خدمة (سَيَنْس ديلي).

أجرى الدراسة فريق بحثي من علماء الطب بجامعة ليستر البريطانية، ونشرت حصيلتها في النسخة الإلكترونية المبكرة من المجلة العلمية الدولية (وقائع أكاديمية العلوم الوطنية) (PNAS).

قاد هذا الإنجاز البحثي البروفيسور أندرو توبين، أستاذ بيولوجيا الخلية بجامعة ليستر، وباحث أول لدى (ويلكم ترست)، التي مولت هذا البحث.

وبحسب البروفيسور توبين، يتركز اهتمام هذا العمل البحثي - الذي أجري بكامله في

مختبرات جامعة ليستر. حول الآليات البيولوجية التي تستخدمها أجسامنا في السيطرة على مستوى السكر في الدم بعد تناول وجبة.

تنشيط وتغير

ويضيف الباحث البريطاني أنه وفريقه قد وجدوا أنه من أجل الحفاظ على المستويات الصحيحة المطلوبة من سكر الدم، هنالك بروتين موجود لدى الخلايا التي تفرز الإنسولين ينبغي أن يكون نشطاً.

يسمى هذا البروتين M3 ـ muscarinic receptor أو "مستقبل م3 ـ المسكاريني"، وينبغي له أن لا يكون نشطا فقط، بل أن يخضع أيضاً لتغير معين. هذا التغير هو الذي يطلق عملية إفراز الإنسولين، وبالتالي تحدث السيطرة على مستويات سكر الدم.

ويشدد البروفيسور توبين على أنه من دون حدوث هذا التغير في بروتين "مستقبل م3 ـ المسكاريني"، يمكن لمستويات السكر في الدم أن ترتفع على النحو نفسه الذي يحدث لدى مرضى البول السكري.

ويشير الباحثون إلى أنهم بالطبع يقومون باختبارات للوقوف على ما إذا كانت الآلية التي اكتشفوها هي إحدى الآليات التي تعطلت في حالات مرض السكري.

وإذا ما كان الأمر كذلك، فإنه سيكون لهذا الاكتشاف آثار هامة على الأبحاث الموجهة لمرض السكري.

مضادات الاكتئاب خطر على القلب

كشفت دراسة أن الرجال متوسطي العمر الذين يستخدمون مضادات للاكتئاب أكثر عرضة للإصابة بضيق في الأوعية الدموية، وهو ما يزيد من احتمالات الإصابة بأزمات قلبية وسكتات دماغية مقارنة بغيرهم الذين لا يتناولون هذه العقاقير.

وأظهرت الدراسة التي أجريت على عدد من التوائم أدلة على تصلب الشرايين في قياس السُمك الداخلي للشريان السباتي، بصرف النظر عن نوع مضاد للاكتئاب المستخدم.

واكتشفت أن استخدام مضادات الاكتئاب تسبب زيادة قدرها 37 ميكرون في سمك الشريان السباتي، أو نحو 5٪، وشملت الدراسة خمسمئة توأم من الرجال متوسط أعمارهم 55 عاماً، وعرضت بالاجتماع العلمي لطب القلب الأميركي في نيو أورليانز.

وقال الدكتور إميت شاه زميل طب القلب بجامعة إيموري في أتلانتا، الذي عرض

الدراسة، "لأننا لم نر علاقة بين الاكتئاب في حد ذاته وضيق الشريان السباتي، فذلك يدعم حجة أنه من المرجح جداً أن مضادات الاكتئاب، وليس الاكتئاب الفعلي، قد تكون سبب هذه العلاقة".

وأضاف أن الأدوية لها في الغالب آثار جانبية لا يُشعر بها "ويتعين علينا دوماً أن نأخذ ذلك في الاعتبار" تقدم هذه العقاقير كثيراً من الفوائد، ولكن يتعين التعامل مع كل حالة على حدة.

ورجح شاه أن تكون زيادة مستويات مواد كيميائية بعينها في المخ، مثل السيروتونين، والبافراز، نتيجة استخدام مضادات الاكتئاب قد تسبب انقباض الأوعية الدموية، مما يؤدي إلى نقص في تدفق الدم إلى الأعضاء، وارتفاع الضغط، وهو ما يزيد من خطورة الإصابة بتصلب الشرايين.

وقال أيضاً "لأنها كانت دراسة على توائم، فقد أجرينا تحليلاً دقيقاً يقارن بين أشقاء متشابهين جينياً بأي حال من الأحوال، بنسبة تتراوح ما بين خمسين ومئة في المئة، ونشأوا في البيئة نفسها".

دراسة:
الكحول مسؤول عن 10٪ من إصابات السرطان في أوروبا

بينت دراسة شملت مدن أوروبية عدة، نشرتها مجلة "بريتيش ميديكال جورنال" الجمعة 8 . 4 . 2011 على موقعها الإلكتروني، أن نحو عشرة في المئة من الأمراض السرطانية التي تصيب الرجال، وثلاثة في المئة من تلك التي تصيب النساء تعود إلى احتساء الكحول.

ودرس الفريق الذي يترأسه مادلن شوتسه من معهد "بوتسدام - ريهبرويكيه" الألماني لغذاء الإنسان، بيانات ثمانية بلدان مشاركة في دراسة "إيبيك" الأوروبية للتوقعات حول السرطان، وهي: فرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، وبريطانيا، وهولندا، واليونان، وألمانيا، والدنمارك. وقد شملت الدراسة نحو 364 ألف شخص، وبالنسبة لفرنسا وهولندا، تم احتساب النساء فقط.

وأوضحت الدراسة أنه في العام 2008 شكل احتساء الكحول، سواء في الوقت الحالي، أو في الماضي، سبباً لسرطانات المجاري التنفسية - الهضمية العليا بنسبة 44٪ للرجال، و25٪ للنساء، وتشمل هذه الأمراض الفم والبلعوم والحنجرة والجيوب الأنفية.

كذلك تسبب ذلك بـ33٪ من سرطانات الكبد عند الرجال، و18٪ عند النساء. وقد أدى أيضاً إلى 17٪ من سرطان القولون لدى الرجال، و4٪ لدى النساء، كما ترتبط به 5٪ من حالات سرطانات الثدي.

وكانت أكثر من نصف حالات الرجال المصابين بسرطانات المجاري التنفسية - الهضمية العليا والكبد والقولون المنسوبة إلى الكحول في إيطاليا وإسبانيا واليونان وألمانيا والدنمارك، قد أتت على أساس استهلاك أكثر من كأسين من المشروبات الروحية يومياً.

أما بالنسبة إلى النساء، فإن نحو 80٪ من 21500 حالة من سرطانات المجاري التنفسية - الهضمية العليا والكبد والقولون والثدي المنسوبة إلى الكحول في البلدان الثمانية التي تمت دراستها، قد أتت على أساس استهلاك أكثر من كأس واحد في اليوم.

وقال مادلن شوتسه أن "نتائجنا تبين أن عدداً كبيراً من حالات السرطان كان من الممكن تفاديها من خلال وضع حد لاستهلاك الكحول لا يتعدى يومياً كأسين للرجال، وكأساً واحداً للنساء.. وذلك بحسب ما يوصي به عدد من الهيئات الصحية".

وأضاف "كذلك يمكن تفادي حالات أكثر إذا ما خفض الأشخاص استهلاكهم للكحول وفقاً لنقاط الاستدلال هذه، أو إذا ما عدلوا عن احتساء الكحول كلياً".

الحمية تجعلك متوترا وسريع الغضب

كشفت دراسة جديدة أن اتباع نظام ما يعرف بالحمية الغذائية يجعل الناس أكثر عرضة للشعور بالانفعال والغضب بسرعة.

وأشارت دراسة نشرتها صحيفة ديلي تلغراف البريطانية إلى أربع تجارب أجريت على متطوعين، وكشفت أن الجهد المبذول في ممارسة ضبط النفس عند الأكل يمكن أن يؤدي إلى ميل عدواني للذهن، بل وحتى تفضيل أفلام العنف.

وقال معدو الدراسة التي أجريت بجامعة نورثويسترن في شيكاغو، وجامعة كاليفورنيا، إنهم شرعوا بدراسة ما إذا كانت ممارسة ضبط النفس يمكن أن تودي فعلاً إلى مجموعة كبيرة من السلوكيات الغاضبة والأفضليات في وقت لاحق، حتى في المواقف التي تكون فيها هذه السلوكيات بالغة الرقة.

وبين البحث أن ممارسة ضبط النفس تجعل الناس أكثر ميلاً للتصرف بعدوانية تجاه الآخرين، والأشخاص الذين يتبعون أنظمة غذائية يكونون أكثر انفعالية وسريعي الغضب. وقال الباحثون إن صناع السياسة العامة بحاجة إلى أن يكونوا أكثر إدراكاً للعواطف السلبية المحتملة الناجمة عن تشجيع العامة على بذل مزيد من ضبط النفس في الاختيارات اليومية.

وختمت الدراسة التي نشرت في مجلة أبحاث الاستهلاك بأن التدخلات السلوكية البديلة

يمكن أن تعتمد على مجموعة أوسع من الطرق لتعزيز السلوكيات الإيجابية تجاه الأهداف الطويلة الأجل.

لوجود صلة جينية بين المرضين

علماء أميركيون يؤكدون أن مرضى الشلل الرعاش أكثر عرضة للإصابة بالسرطان

اقترحت دراسة حديثة أن مرضى الشلل الرعاش Parkinson's disease قد يعانون مخاطر متزايدة للإصابة بسرطان الأورام السوداء، ومرض سرطان البروستاتا، وهي المخاطر التي قد تمتد لأقاربهم.

وقد اكتشف باحثون من كلية طب جامعة Utah الأميركية إمكانية وجود هذه الصلة بعد تحليل بيانات شعب ولاية Utah، والتي اشتملت على الميلاد والوفاة والعلاقات الأسرية لأكثر من 2.2 مليون شخص. بعض من هذه البيانات تعود لأكثر من 15 جيلاً.

وقد اعتمدت البيانات أيضاً على تقارير مرضى السرطان بالولاية، وكذلك شهادات الوفاة التي ترجع إلى عام 1904.

في هذه الدراسة، حلل الباحثون بيانات حوالي 3000 شخص من ثلاثة أجيال، ممن ماتوا بسبب مرض الشلل الرعاش. وقد تبين أن مخاطر الإصابة بسرطان البروستاتا والأورام السوداء كانت أعلى من المتوقع بين هذه الفئة من الأشخاص، وكذلك أقاربهم من الدرجة الأولى والثانية والثالثة.

وأوضح د. ستيفان بولست أستاذ علم الأعصاب في نشرة صحفية "في دراستنا هذه اكتشفنا مخاطر كبيرة للإصابة بسرطان البروستاتا، والأورام السوداء، بين مرضى الشلل الرعاش وأقاربهم، وبالعكس كانت هنالك مخاطر الإصابة بمرض الشلل الرعاش عند الأشخاص المصابين بهاذين النوعين من السرطان وأقربائهم".

وأضاف "هذه النتائج تؤكد أن هنالك صلة جينية بين مرض الشلل الرعاش وهذين النوعين من أمراض السرطان".

"كما تشير النتائج لوجود تغيرات فسيولوجية مشتركة بين مرض الشلل الرعاش ومرض سرطان البروستاتا والأورام الميلانية (السوداء) الجلدية"، صرحت كاتبة الدراسة المساعدة ليزا كانون البرايت أستاذ الأمراض الباطنية ورئيس قسم علم الأوبئة بالجامعة.

وأضافت أن معرفة الصلات الجينية بين هذه الأمراض الثلاثة يمكن أن تحسن من فهمنا

لمرض الشلل الرعاش، وتؤثر على استراتيجيات الكشف المبكر لمرض سرطان البروستاتا وسرطان الجلد.

بكتيريا القرحة تقود إلى باركنسون

قال باحثون إن البكتيريا التي تسبب قرحة المعدة قد تساعد في علاج مرض باركنسون. وذكرت صحيفة إندبندنت أن الباحثين خلصوا إلى هذه النتيجة بعدما حقنوا الفئران ببكتيريا هيليكوباتر بيلوري المسببة للقرحة، فظهرت لديها أعراض مرض باركنسون بعد خمسة أشهر.

وقالت الدكتورة تريسي تيسترمان من جامعة لويزيانا أن هذه النتيجة تعني أن بكتيريا هيليكوباتر بيلوري قد تلعب دوراً هاماً في مرض باركنسون لدى البشر.

وقد تم ربط مرض قرحة المعدة بمرض باركنسون في ستينيات القرن الماضي، لكن لم يكن معروفاً في ذلك الوقت أن بكتيريا هيليكوباتر بيلوري مسؤولة عن قرحة المعدة.

وفي المدة الأخيرة، أثبتت دراسات عدة أن المصابين ببباركنسون هم أكثر عرضة للإصابة بهذه البكتيريا.

وقام فريق الدكتورة تيسترمان بحقن فئران فتية وأخرى مسنة بثلاثة أنواع من بكتيريا هيليكوباتر بيلوري، وتمت متابعة حركاتها، ومستوى الدوبامين في الدماغ. وقاد نوع واحد إلى التسبب في ضرر لدى المجموعتين، وقالت تيسترمان أن النتائج كانت مثيرة، سواء عند الفئران الفتية، أو المسنة، وأوضحت وجود تغيرات باركنسون نفسها لدى الفئران كما البشر.

الكشف عن متغيرات جينية تجعل بعض الأشخاص عرضة للاكتئاب

أكد فريق من العلماء الدوليين بقيادة بريطانية أنهم تمكنوا من التوصل لأول دليل على وجود متغيرات جينية في بعض الأشخاص تجعلهم عرضة للإصابة بمرض الاكتئاب الذي يعد من أكثر الأمراض العقلية شيوعاً وكلفة في العالم. وتوافقت نتائج هذه الدراسة الدولية مع دراسة أخرى قام بها فريق من جامعة واشنطن على عينة أخرى من الأشخاص.

ويأمل الباحثون أن تساعد هذه النتائج العلماء على التوصل لعلاجات أكثر تأثيراً لمرضى الاكتئاب، حيث أن الأدوية المتاحة حالياً لا تؤثر سوى بنصف المرضى تقريباً.

وقال جيروم برين من معهد الطب النفسي بجامعة كينج بلندن الذي قاد أحد هذه الدراسات: "ستساعدنا هذه النتائج في تتبع جينات بعينها توجد عند مرضى الاكتئاب"، مشيراً إلى "أن أي عقار يُصنع بناء على تلك النتائج لن يكون متاحاً بالأسواق قبل 10 إلى 15 عاماً".

وفي الدراسة الأولى، قام الباحثون بتحليل بيانات 800 أسرة ظهرت بها حالات متكررة من مرضى الاكتئاب، بينما فحصت الدراسة الثانية حالات الاكتئاب والتدخين في سلسلة من الأسر من أستراليا وفنلندا.

وتم نشر الدراستين بجريدة الطب النفسي الأميركية، وكشفت نتائجهما عن وجود صلة قوية بين الاكتئاب والمتغيرات الجينية في منطقة محددة من الكروموزومات.

ويصيب الاكتئاب ما يقرب من 20٪ من الأشخاص في مرحلة ما من حياتهم، إلا أن حالات الاكتئاب الحادة تصيب ما يقرب من 4٪ من الأشخاص، ويكون من الصعب علاجها.

وقد تنبأت منظمة الصحة العالمية بأن مرض الاكتئاب سيفوق أمراض القلب كأكبر المشاكل الصحية التي تواجه العالم عام 2020.

ووفقاً لدراسة أجريت عام 2006، ثبت أن الاكتئاب مسؤول عن ضياع 100 مليون يوم عمل بالعام في إنكلترا وويلز، الأمر الذي يترجم لخسارة مادية تصل إلى 9 مليارات جنيه إسترليني (حوالي 14.6 مليار دولار أميركي).

وقد أشارت الدراسات التي أجريت على عدد من الأسر إلى أن هذا المرض له صلة جينية. ويعتقد العلماء أن الجينات تسهم في ما يقرب من 40٪ من أسباب المرض، بينما تتشكل النسبة الباقية من العوامل البيئية والخارجية المختلفة.

المدخنون يواجهون مهمة صعبة
المخ والنيكوتين والمتعة يتحالفون ضد المقلعين عن التدخين

الإقلاع عن التدخين لم يكن يوماً بالأمر الهيّن، حيث يعاني بعض المدخنين صعوبة كبيرة للإقلاع عن هذه العادة. وقد بررت دراسة حديثة ذلك باحتمال وجود متغير بالمخ يعطي المدخن متعة أكبر في تعاطي مادة النيكوتين.

وربما تساعد هذه الدراسة التي نشرت أخيراً في نشرة أكاديمية العلوم القومية بأميركا في الوصول لاستراتيجيات أكثر تأثيراً للإقلاع عن التدخين.

وقد استعان الباحثون بصور لمقاطع من مواضع الإفرازات بالمخ للحصول على صور لمتلقيات

تعرف بـ mu . opioid في مخ المدخنين، والتي مع زيادتها تمنح المدخنين متعة كبيرة من مادة النيكوتين، الأمر الذي يصعب من مهمة الإقلاع عن التدخين.

وتقول كاتبة الدراسة كارين ليرمان، مدير مركز بحوث استخدام السجائر بجامعة بنسلفانيا بفيلادلفيا: "تعمل هذه المتلقيات على تقديم حوافز للتدخين. كما أن قدرة بعضهم على الإقلاع عن التدخين تتأثر بعدد من العوامل النفسية والاجتماعية والبيئية، بالإضافة للعوامل الجينية".

وأضافت أن "نتائج الدراسة لا تشجع على الاستمرار في التدخين، بل على تجنب إدمان التدخين في المقام الأول. وهنا تأتي أهمية الطب الفردي، فالإقلاع عن التدخين يحتاج للوصول إلى علاجات جديدة، بالإضافة للوصول للاختيار المناسب وفقاً لجينات كل شخص".

وتابعت: "من المهم ألا يأخذ المدخنون هذه النتائج كحجة لتبرير عدم قدرتهم عن الإقلاع عن التدخين. وأقول للمدخن: لا تستسلم فربما كنت بحاجة لطريقة علاجية خاصة بك. نأمل أن ندرس هذا الأمر بتمعن أكبر لفهم ما إذا كان باستطاعتنا الوصول للعلاج المناسب لكل فرد بتتبع خلفيته الجينية ومعرفة عدد المتلقيات بالمخ".

ويعلق د. رايمون نيورا، الأستاذ المساعد بمعهد شرودر للعلوم، على الدراسة قائلاً: "هنالك تأثيرات جينية تجعل الشخص يدمن مادة النيكوتين والتبغ، وتعرقل عملية الإقلاع عن التدخين".

وأضاف أن الأشخاص الذين لديهم هذا المتغير الجيني قد يستفيدون من العلاج المطول، موضحاً أن "هؤلاء ربما يكون لديهم نوع من الحساسية لمادة النيكوتين، الأمر الذي قد يفسر لماذا أصبحوا مدمنين في المقام الأول، ولماذا يحتاجون لتناول بدائل النيكوتين لفترات أطول للإقلاع عن التدخين".

العلاج النفسي للأسرى

وضحايا العدوان

تأليف

الدكتور محمد أحمد النابلسي

الأمين العام للاتحاد العربي لعلم النفس

يسجل للمؤلف سبق إصداره لأول الكتب العربية الباحثة في موضوع الحروب وضحاياها على المستويات النفسية والسيكوسوماتية. فقد أصدر النابلسي دراسته عن الحرب اللبنانية في العام 1985 وهي استخدمت مرجعاً في غالبية الدراسات التي تناولت هذه الحرب.

ويأتي هذا الكتاب ليتوج أعمال المؤلف في هذا المجال حيث يركز على موضوعين هامين هما رعاية الأسرى ومعاناة الضحايا من الوساوس المرضية ومخاوف الموت التي تنتشر بصورة وبائية في المجتمعات المتعرضة للحروب والكوارث. مما يجعل من هذا الكتاب ضرورة ملحة لكل معالج عامل في هذه المجتمعات.

تطبيقات الطب النفسي السياسي في حالة الثورات العربية

د. محمد أحمد النابلسي
رئيس المركز العربي للدراسات المستقبلية

تطوعت الشبكة العربية للعلوم النفسية لنقل انطباعات أعضائها من الاختصاصيين في مختلف الفروع النفسية للثورة التونسية، ومن ثم المصرية، من بعدها. ورغم أن بعض الكتابات التي نشرتها الشبكة اتصفت بالانطباعية، وأحياناً بالانفعال، إلا انها كانت انفعالات إيجابية، وربما من النوع الذي تدعو إليه بعض التيارات العلاجية النفسية الحديثة، ما أخّر نقاش الشبكة للناحية الأخلاقية المهنية إلى ما بعد بروز التداخلات السياسية المعقدة في منطقتنا العربية، حيث طموحات الثورة المصرية مثلاً تواجه بالحديث عن عودة الانقسامات العربية، ومعها عودة دول محور الاعتدال العربي (الخليجية خصوصاً) للضغط من أجل عدم محاكمة الرئيس مبارك، ومن ثم تقديم عروض مالية سخية لإطلاق سراحه، وصولاً للحديث عن تمويل هذه الدول لثورة مصرية مضادة. وكلها عوامل حدت ببعض أعضاء الشبكة للدعوة إلى الانسحاب من نشر هذه المواضيع السياسية، أو على الأقل خفض نسبة نشرها. وفي المقابل، أصر متخصصو الطب النفسي السياسي العرب على مواصلة النشر، ولكن مع الالتزام بالموضوعية العلمية في هذه الكتابات، حتى لا تتحول الشبكة إلى ما يشبه برامج "التوك شوو" العربية".

في هذا المجال، برز رأي للبروفيسور قدري حفني، ملخصه: حين تابعت الحوار الدائر حول الإشفاق علي شبكتنا من الخوض في غمار السياسة، والإشفاق عليها أيضاً من النأي بعلم

النفس بعيداً عما يجري في عالمنا العربي، تذكرت مقالاً قديماً لي عرضت فيه خبرتي الشخصية في اكتشاف هذه العلاقة، وما أدى إليه ذلك الاكتشاف الشخصي من تعديل لرؤيتي في علم النفس.

ولقد عايشت عبر تاريخي الشخصي الأكاديمي تلك العلاقة المتبادلة بين التخصص الأكاديمي في علم النفس، وممارسة العمل السياسي المباشر، ولم أشعر قط بحاجتي لطي الثوب الجامعي خلال ممارستي السياسية، ولا أحسست أبداً بضرورة إنكار انتمائي السياسي، أو التنكر له خلال ممارستي لتخصصي الأكاديمي في علم النفس؛ غير أنني كنت في بداية تخصصي في علم النفس أتصور أن كافة علماء النفس الأميركيين، وهم أصحاب الثقل الأكبر في ما كنا ندرسه في علم النفس، يضعون معرفتهم بالإنسان في خدمة أهداف الإمبريالية الأميركية، إلى أن استوقف انتباهي عنوان لمقال نشره عالم نفس أميركي في صيف عام 1969، هو شسترو فبورشتاين، وكان العنوان "اسم المريض: الولايات المتحدة. المرض: فيتنام".

وختم حفني أن أحداً، مهما علت مكانته العلمية، لا يملك أن يتحدث باسم أبناء تخصصه جميعاً، كما لو كان يمتلك الحديث باسم "علم النفس"، أو غيره من العلوم.

من جهتنا، لم نوافق الزميل حفني الرأي، فكان لنا الرد التالي:

وعلى الود الموصول بعلاقتنا القديمة التي يصحبها الاختلاف المزمن الذي كان دوماً أصغر من أن يباعدنا، وأكبر من تلاقينا على الصعيد الفكري الاختصاصي، أختلف مجدداً مع البروفيسور قدري حفني حول دعوته لممارسة توظيفات الاختصاصات النفسية في السياسة وفق القناعات الشخصية، وهو بذلك ينسجم مع فكره وكتاباته الليبرالية التي استحقت كل الاحترام.

أما عن موقفي، ويمكنك وصفه بـ"المحافظ"، لو أردت، أو بالموقف الطبي الملتزم بالقسم الهيبوقراطي وأخلاقياته، فإني أدعو، وبإصرار، إلى تطبيق المقاييس الاخلاقية التقليدية، وبالتالي غير الليبرالية، على ممارسات الاختصاص. وبعد التذكير باستبعاد الاتحاد السوفياتي من الجمعية الدولية للطب النفسي لأسباب أخلاقية، وعدم عودته إليها إلا بعد سقوط الاتحاد السوفياتي (مؤتمر أثينا العام 1989 سجل هذه العودة) إليكم بعض الأمثلة:

1. **توظيف العلوم النفسية لترويج السلع**؛ وهو بات موضوع ممارسة، وتحده برأينا عدم الوصول إلى حدود مساعدة الاختصاصي على رسم خطط الغش والاحتيال على المستهلك...

2 ـ **التوظيف المخابراتي للاختصاص:** وهو بدوره ممارس، ويدخل في جدلية الانتماء والوطنية، وتحده في رأينا مساهمة الاختصاصي النفسي في ابتداع طرق جديدة لتعذيب البشر.

3 ـ **التوظيف السياسي للاختصاص، وهو موضوعنا:** ولا أريد الإطالة، فأختصر بالموافقة على ما ذهب إليه البروفيسور حفني، إذا كان الاختصاصي يعبر عن قناعاته الفعلية مع ملكيته للمعلومات الكافية وموافقته على نتائج الأحداث التي يتابعها، مؤيداً، أو معارضاً....

وفي تقديرنا الشخصي، فإن المساهمة النفسية الاختصاصية في مجال السياسة يجب أن تلتزم بأحد قطبين لا ثالث لهما.

الأول: أن يكون الاختصاصي في قلب الحدث، وأن يشارك فيه مشاركة العارف العالم ببواطن وخلفيات وأخطار وطموحات الحدث موضوع البحث. وفي هذا الإطار، ندرج التدخل العقائدي للاختصاصي النفسي. وفي حالتنا العربية الراهنة أن يكون مؤيداً أو معارضاً للثورة، ولكن بناء على قناعات ثابتة، وليس استجابة للعصف الإعلامي، والشائعات المروجة، والشعارات المشبوهة.

الثاني: أن يتصرف الاختصاصي من مبدأ الاعتراف بالسلطات الأمنية والسياسية القائمة، بما يعطيها فرصة تقنين انفعالات الجمهور، والاحتياط لأخطار الفوضى، بتوجيه هذه الانفعالات في الاتجاهات المناسبة. وفي هذه الحالات يتدخل الاختصاصي على الصعد التالية:

1 ـ التدخل المبكر لعلاج الآثار الصدمية المحتملة للحدث على الصعيدين الفردي والجماعي.

2 ـ التدخل للمساعدة في تقنين الفوضى لدى تحولها إلى هيستيريا جماعية جالبة لتهديدات الأمن الاجتماعي.

3 ـ جمع المعلومات اللازمة للتصدي لتحليل الحدث بصورة موضوعية تبعد الاختصاصي عن التورط في مواقف لا علاقة لها بالموضوعية العلمية.

4 ـ في اعتقادنا، إن الاندفاع في دعم كافة التحركات الشعبية العربية، باعتبارها فرعاً لأصل واحد، هو مكافحة التسلط (ومعه الفساد، والديكتاتورية، وغيرها) كان اندفاعاً خاطئاً. ومع تفرع هذه التحركات وصل الجميع إلى الطريق المسدود الذي يقتضي بصورة قسرية فصل تحرك، أو أكثر، عن باقي التحركات العربية. وتحديداً، انفجر هذا التمييز في حالتي البحرين وسوريا، حتى قالت المعلومات بوجود معادلة "البحرين مقابل سوريا".

هذا الاندفاع يجد تبريراته لدى المحللين والصحافيين، وحتى لدى الفضائيات، ومنها قناة الجزيرة التي خضعت للمعادلة سابقة الذكر، فاعتمدت خيار التعتيم على الحركة الشعبية البحرينية، والتحريض لصالح الحركة الشعبية السورية. وهو خارج المسموح في حالة الباحث النفسي السياسي، حيث نرى أن مهمات هذا الباحث في حالتنا العربية الراهنة هي التالية:

1. **رصد مستوى حصانة الدول في مواجهة التحركات الشعبية**، وذلك وفق معايير تصنيف موضوعية تأخذ في اعتبارها عوامل المشهد السياسي الداخلي في البلد المعني (بما فيها تركيبته الاثنية ـ العرقية والعشائرية والدينية والمذهبية، وغيرها)، حيث حدة الأحقاد الداخلية بين المكونات من شأنها تحويل التحرك الشعبي إلى حرب أهلية لا يمكنها أن تكون هدفاً إنسانياً لايقاع مئات آلاف الضحايا، وتهديد كيان الدولة المعنية. وهنا نذكر أن الجراحة، وإن كانت العمل الطبي الراديكالي، فهي ليست مطروحة بدون شروط.
2. **رصد مستويات التدخل الخارجي للتحركات الشعبية**، حيث بدأت المعطيات تتوافر من مصادر رسمية حول هذا التدخل في مختلف الدول العربية التي شهدت تحركات شعبية، بما فيها مصر، حيث يجري الحديث عن اختراقات مخابراتية لبعض جماعات الثورة، كما يجري الحديث عن استمرار الاستعدادات لثورة مضادة، وغيرها من المعطيات التي تنتظر استكمالها.
3. **التحليل الاستقرائي للتحركات الشعبية**، وهو تحليل يستوجب مراجعة ظروف التحركات الشعبية في المنطقة، وفي الدولة المعنية. فإذا ما استثنينا الثورة التونسية، بوصفها ثورة نقابات في بلد يبين التحليل الاستقرائي قدرة نقاباته على قيادة الثورات، نجد أن باقي التحركات العربية لا تجد لها هيكلية تنظيمية مقنعة. وأتوقف تحديداً عند الثورة المصرية، حيث نجحت الحركة الشعبية باجتياز امتحان التنظيم مدعومة بخزان بشري هائل لم يتوقعه الداعون للتحرك المصري. وهذا الخزان البشري هو الذي حول الحراك المصري إلى الثورة. وبقيت مرحلة الإرباك هي المقررة لمصير الثورة... وفي رأينا، فإن الرئيس مبارك كسب معركة الإرباك عبر خطابه الشهير الذي دفع بالجمهور للانسحاب من ميدان التحرير. لكن هذا الفوز تعطل عبر موقعة الجمل، التي أعادت الجمهور إلى الميدان. وبهذا يمكن القول إن مبارك ذهب ضحية موقعة الجمل أكثر مما ذهب ضحية الثورة. ووفق التحليل الاستقرائي، فإن الجمهور المصري المحتشد في الميدان منح عفوه للرجل الذي خاطبه حاملاً كفنه، طالباً العفو من ثأر

الشعب. وخسر الرجل هذا العفو بعد الموقعة العدوانية التي جاءت بعد ساعات لتلغي هذا العفو. ولسنا مستعدين للجدال في هذه المسألة طالما طرحت الثورة المضادة كاحتمال وارد.

4. القراءة التحليلية لفتيل تفجير التحركات الشعبية، وهي مسألة لم تكتمل عناصرها بعد.

هنا ينتهي الرد، لنصله ببعض تحليلاتنا المتعلقة بتكوين معايير موضوعية للحكم على التحركات الشعبية العربية، من تونس، ولغاية اليمن. حيث نبدأ بـ:

تصنيف الحركات الشعبية العربية

انطلاقاً من مسؤوليتنا بالدعوة لتسخير الاختصاصات النفسية لخدمة المجتمع العربي، وتجاوز النقل الأعمى عن التجارب الغربية عن هذا المجتمع. وفي خطوة وقائية للعقول الاختصاصية الأسيرة، نجد من واجبنا تقديم هذا الاقتراح التصنيفي للحركات الشعبية العربية، وهو اقتراح ينطلق من المحاور التشخيصية التالية:

المحور التحريضي: هل تستند الحركة الشعبية المعنية إلى دعوة إصلاحية شعبية شاملة تنضوي تحتها مختلف تلوينات الجمهور في الدولة المعنية بطوائفها وأعراقها وتجمعاتها؟ أم أنه حراك يقتصر على طائفة من الجمهور دون غيرها؟ بحيث يمكن للتحرك أن يواجه بتحرك مقابل يفتح أبواب الانشطار الوطني، وربما المواجهات الأهلية.

المحور الوطني: وهو امتداد للمحور السابق، ويتعلق بالهوية الوطنية، والاتفاق على تعريفها، واشتراك المواطنين في رؤية جامعة لمستقبل البلد ودوره وعلاقاته بمحيطه الجغرافي، وغيرها من عناصر الاشتراك في الهوية التي يتراجع دورها الجامع بقدر وجود تاريخ من الاختلافات حولها.

المحور الشبكي: ويتعلق بمستوى مساهمة شبكات التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت بتنظيم هذا التحرك، إذ أن هذه الشبكات تمد التحرك بمخزون من التجمعات والقيادات الافتراضية الكفيلة بتشكيل نواة صلبة للتحرك المبني على تعريفات دقيقة لأهداف التحرك وحدوده. مع لفت النظر إلى أن سيرورة تحول الجماعات الشبكية من افتراضية إلى واقعية تقتضي لزوماً تطابق تحركها مع المشاعر الشعبية التي تحول

افتراضية إجماعات الشبكية إلى واقع عبر التفافها حول نواة التحركات الشبكية.

المحور التراكمي: التواصل الشبكي ليس سحراً، ولا هو وسيلة حديثة لإطلاق عمليات غسيل مخ جماعية، إذ تقتصر قدراته على تكوين نواة افتراضية للتحرك الشعبي، إلا أن القرار الحاسم يبقى بيد الجمهور الأوسع القابل للتجمع حول هذه النواة. مثال ذلك أن مصر عرفت في العام 2010 لوحده 906 إضرابات مطلبية عمالية، بالإضافة إلى تراكمات الاحتجاجات المطلبية الأخرى، ومنها ما يتعلق بشلل وعجز مؤسسات الدولة عن مواجهة الطوارئ الصحية، ومراقبة الأغذية الفاسدة، بالإضافة إلى الشكاوى المتفرعة عن الفقر، وهذا النوع من التراكمية ضروري لتجد دعوات التحرك قاعدتها الشعبية.

المحور العربي: التوزيع الاصطناعي للدول العربية إلى معتدلة وممانعة ليس مستجداً، لكنه يشهد تغييراً في العناوين. وهو في أصله خلاف بين أصدقاء أميركا، ومعاديها، أو ممانعيها العرب. وتشير المتابعة إلى انحياز الشارع العربي لمعارضي السياسة الأميركية. وهو انحياز تدعمه المواقف الأميركية من القضايا العربية، كما تدعمه المواقف غير الشعبية التي تتبناها الدول الصديقة بضغط أميركي لا يراعي دائماً أصدقاءه. وبتطبيق هذا المحور على الحالتين التونسية والمصرية، نجد أنهما حظيتا بدعم غير مشروط من الشارع العربي.

آفاق البحوث السيكولوجية في الثورات العربية

مما تقدم، تتضح الأهمية الحيوية للدور الملقى على عاتق الاختصاصيين النفسانيين العرب في دراسة هذه الحركات الشعبية، بوصفها نتاجاً للعقل الجمعي القطري والعربي، إذ إنها تشكل مجالاً لاقتفاء أثر احتلال العراق على البنى النفسية ـ المجتمعية في الدول العربية، وهو أثر لا يقف عند حدود توافد مقاتلين عرب إلى العراق وانخراطهم في مقاومة الاحتلال تحت العناوين المختلفة، إذ تتعلق المسألة باحتلال عاصمة عربية من اكثر العواصم ملامسة لتراث ومكونات العقل الجمعي العربي. كما تأثرت البنى النفسية ـ الاجتماعية العربية بالفوضى الجيوسياسية الناجمة عن الاحتلال، وتهديدها لمستقبل الشعوب العربية، ومساهمتها بترسيخ الأزمات الاقتصادية في كل البلدان العربية، وعليه نقترح محاور البحث التالية:

مراجعة المسلمات: ولقد سبقنا إلى هذا الطرح ومارسه ميدانياً الزميل المصري قدري

حفني، الذي تجاوز انفعالاته الشخصية العميقة، كمناضل مزمن، إلى موضوعية طرح الأسئلة، وإعادة محاكمة المسلمات، وهي لعمري خطوة مؤسسة تفتح الطريق أمام فهم موضوعي لحقائق الواقع، بدل العيش خارجها، فقد أثبتت ثورة مصر، خصوصاً، أن قائمة من مسلماتنا السابقة للثورة كانت مجرد قناعات خاطئة تستوجب المراجعة والاستبدال بقناعات صائبة وموضوعية.

توظيف الاتصال الرقمي في خدمة المجتمع: وهو يستتبع البحث عن حجم المساهمة الحقيقي التي قدمها الفايسبوك في الثورة المصرية، وذلك عبر متابعة دقيقة لدينامية حركات الفايسبوك وقياداتها، كما عبر متابعة العبر المستفادة من قبل الأحزاب السياسية المصرية التي عاشت حالة تواطؤ سياسي مع النظام، دون أن تتمكن حتى من القيام بوظيفة المعارضة السياسية الديموقراطية المشروعة. كما يجب عدم إهمال احتمالات إساءات توظيف واستخدام الاتصالات الرقمية بصور ضارة للمجتمع.

الشخصية المصرية: كانت لافتة استجابة الجمهور المصري لخطاب مبارك الداعي للحفاظ على كرامته. وهي استجابة سيهملها التاريخ الذي يكتبه المنتصرون. لكن العلوم يجب ألا تهملها، بل أن تتعمق في دراستها، فهي تشكل لحظة انفعال قصوى تفتح الأبواب عريضة لدراسة الشخصية المصرية وعبرها العربية. كما أنها تعكس حس المسؤولية من قبل شعب يريد الإصلاح، ولكنه إصلاح يتجنب الفوضى والمجهول وفتح أبواب التدخلات الخارجية تأسيساً على هذه الفوضى. أما خطاب مبارك فهو نموذج لدراسات سيكولوجية الزعامة، فقد تمكن الرجل بكلمات قليلية أن يخلق حالة من التعاطف الشعبي حوله أربكت المعارضين والمتظاهرين. على أمل ألا تثير هذه الملاحظات العلمية لدى المتحمسين للثورة ما يتجاوز موضوعية طرحها.

بطريركية المجتمع العربي: المحتجون الشباب تحاوزوا البحث في هذه الإشكالية في تحركات عفوية صادقة للمطالبة بحقوقهم المشروعة التي أرادوا الحصول عليها دون الخوض في جدالات تخص هيكلية المجتمع وبنيته السياسية الاجتماعية. لكن حضور الجمهور الشعبي الداعم لهذه الحركات أعاد طرح الخطوط الحمر والمحرمات الاجتماعية، مذكراً الشباب بها. ومع أننا لا نجد في البطريركية تهمة، كما يجدها آخرون، إلا أننا نطرح الموضوع من زاوية البحث في دينامية العلاقة بين الجماعات الافتراضية، والجماعات الشعبية الواقعية، وسبل انتظام هذه العلاقة والعقد الاجتماعي السياسي الذي قامت عليه.

ثغرات الحركات وتحصينها: هي تجربة غير مسبوقة شابتها جرعات من العفوية الصادقة، وتلقت عديد الاتهامات بالتخوين، عبر ثغرات تبررها ظروف التجربة، وهي كلها عوامل من واجب الاختصاصي النفسي طرحها للمناقشة، وليس فرض رؤيته لها، بهدف إنتاج لقاحات نفسية تقي حركاتنا الشبابية ونشاطاتنا الرقمية من أخطار سوء التوظيف والاستغلال.

الفاعلية العلاجية للموسيقى

عرض لأطروحة د. السعيد عبد الصالحين محمد.
مدرس علم النفس، كلية الآداب، جامعة المنيا
Elsalhen@yahoo.com

مقدمة

تركزت معظم بحوث سكنر (Skinner)، منذ الخمسينيات، في التعلم على دور التدعيم، أو التعزيز، كمحددات أساسية للتغيير السلوكي، فإعطاء أوامر للعميل وحده لا يكفي، إذ أنه من المهم تدعيم السلوك المرغوب، كما أنه من المهم أيضاً سحب التدعيم من السلوك غير المرغوب.

ولما كان من الأهمية بمكان أن يكون التدعيم المقدم للكائن أو للفرد محبباً ومفضلاً، لكي يكون مؤثراً، فقد وقع اختيار الباحث على الموسيقى، تلك الظاهرة الأكثر ارتباطاً بعواطفنا وانفعالاتنا وإيقاعنا الشخصي، لما له من طاقة تؤثر في مشاعرنا ووجداننا.

استخدم أسلوب حل المشكلات إجراء تدعيمياً، لما يتميز به هذا الأسلوب من توليد بدائل وحلول جديدة لمواجهة المشكلات، وذلك بهدف المقارنة بين فاعلية التدعيم بهذا الأسلوب والتدعيم بالموسيقى في خفض التوتر، وضغط الدم المرتفع، ورفع كفاءة الإدراكية والاستدلال الحسابي.

إذ يعد التوتر، وارتفاع ضغط الدم، من أهم الاضطرابات السلوكية التي تواجه الفرد في عصر متغير ذو إيقاع سريع، أو كما أطلق عليه عصر القلق، فالجدة، وسرعة الزوال، والتنوع، والتزايد، أصبحت سمات معترف بها كمواصفات أساسية للحياة العصرية

المتحضرة، كما أن التدفق الغامر للمعلومات والاختيارات أصبح سبباً في الضغوط النفسية.

تلك المتغيرات التي جعلت من التوتر وارتفاع ضغط الدم إفرازاً طبيعياً للأفراد في المجتمع، نتيجة لفقدانهم التحكم والسيطرة والضبط الذاتي، مما يجعل البحث عن حلول وأساليب تعامل فعالة لمواجه مثل هذه الاضطرابات يعد ضرورة ملحة، ومطلباً أمام المتخصصين في العلوم السلوكية.

بدت مشكلة هذه الدراسة، في ضوء انتشار عديد المدارس العلاجية المختلفة، نتيجة لتعدد مكونات السلوك الإنساني، أو لصعوبة الاتفاق على تعريف الصحة النفسية والمرض (إم كولز، 1992)، ففي عام 1986 أقر كارسو (Karsao، 1986) وجود (400) نوع من أنواع العلاجات النفسية تتجمع في أربع فئات هي: العلاجات المعرفية، والسلوكية والوجدانية والتكاملية (Thomson &Campbell 1992)، الأمر الذي أدى إلى إثارة الشكوك في جدوى كثير من هذه المدارس العلاجية. أضف إلى ذلك ظهور اتجاه علمي يتزايد في النمو، ويركز على تقييم الإجراءات العلاجية المختلفة من خلال المقارنة بين نقاط الضعف أو القوة في منهجين علاجيين، أو أكثر.

من أجل ذلك، تحاول الدراسة بحث المقارنة بين التدعيم بالموسيقى، إذ يسيطر نصف المخ اليمن من خلال الاستمتاع بنغمات الموسيقى وتذوقها جمالياً، والتدعيم بالتدريب على مهارات حل المشكلات، إذ يسيطر نصف المخ اليسر المسؤول عن العمليات التحليلية العليا، وذلك بهدف معرفة فاعلية أحد الأسلوبين، أو كلاهما، في تشكيل أنماط من السلوك المرغوب (خفض التوتر وضغط الدم المرتفع، وتحسين كفاءة السرعة الإدراكية والاستدلال الحسابي).

الجدير بالذكر أن هنالك دراسات أشارت إلى أن الموسيقى لها تأثير إيجابي في تخفيض ضغط الدم المرتفع، والقلق، والتوتر، والشعور بالألم، والاكتئاب، وزيادة الاسترخاء، وانتظام معدل التنفس (نبيلة يوسف 1979 ـ 1985 ـ 1999) Bunt0، 1997 Eidson، Bradford 1991، Kourt 1989، 1987)، كما أظهرت دراسات أخرى فعالية الموسيقى في زيادة معدل الاستدعاء والحفظ، وخفض القابلية لشرود الذهن، وزيادة الاستدلال البصري المجرد (Mailyn Cynthia 1995 Morton et la 1999، 2001 Newman، etal 1995).

فضلاً عما انتهت إليه دراسات أخرى إلى فاعلية استخدام أسلوب حل المشكلات في علاج الاكتئاب والعدوى، ومحاولات الانتحار، والإدمان، والشعور بالضغوط، والشعور باليأس (Nezu 1985 Marry 1993 Arean، 1991 Sussman 1992).

ثانياً: أهمية الدراسة:

الأهمية النظرية:

- لما كانت التدعيمات (المعززات) لها تأثير فعال في مواقف التعلم، وتعديل السلوك، وفق نظريات سكنر وبالفوف وثورنديك وولبي)، فقد كان البحث عن أكثر أنواع التدعيم فاعلية في تقدم العملية العلاجية، ويعد من أهم المشكلات التي تواجه المتخصصين في مجالات الإرشاد النفسي وتعديل السلوك.
- تزايد الجدل والاهتمام بالموسيقى ودروها الكبير في التأثير على السلوك، لذا تحاول الدراسة الوقوف على طبيعة الموسيقى، ومدى إمكانية استخدامها كتدعيم إيجابي في تعديل السلوك.

الأهمية التطبيقية:

- تأتي الدراسة الحالية استجابة للاهتمام المتزايد، والذي انصب على نوعية الأساليب المستخدمة من قبل اختصاصيي الإرشاد والعلاج النفسي عند تعاملهم مع المسترشدين في ميدان الصحة النفسية، إذ تعمل الدراسة الحالية على الإسهام في تزويد المرشدين والمعالجين النفسيين بأساليب إرشادية وعلاجية جديدة مستمدة من علم النفس المعرفي وسيكولوجية الموسيقى، لمواجهة المشكلات السلوكية، وتحقيق التوافق النفسي إذا ما ثبتت فاعلية أحد الأسلوبين، أو كلاهما.
- كما تتضح الأهمية التطبيقية للدراسة من خلال تدريب الطلاب عينة البحث تلك المرحلة السنية الحرجة على استخدام المهارات المعرفية، ومهارات التذوق الموسيقى، حيث يمكن استخدامهما كأساليب تعامل فعالة مع أحداث الحياة الضاغطة، بغية توظيف تلك المهارات واستخدامها مع مشكلات سلوكية أخرى مستقبلاً.

ثالثاً: أهداف الدراسة:

تسعى الدراسة إلى تحقيق الهدفين الآتيين:

- تحديد بعض الإجراءات التجريبية التي يمكن بواسطتها تخفيض التوتر وضغط الدم المرتفع، أو رفع كفاءة بعض العلميات العقلية.
- المقارنة بين مدى فاعلية أسلوب التدعيم بالموسيقى، وأسلوب حل المشكلات في إمكانية تشكيل بعض أنماط من السلوك المرغوب محل الدراسة.

رابعاً: التعريفات الإجرائية لمتغيرات الدراسة.

- الموسيقى: الصوت الذي تحدثه الآلات الموسيقية، والذي تعبر عنه المقطوعات الموسيقية المفضلة للمفحوصين، والتي يتم الاستماع لها من خلال جهاز الكاسيت.
- التدريب على مهارات حل المشكلات: توظيف عدد من المهارات المعرفية بهدف الوصول إلى حلول ممكنة من خلال اختيار أحد البدائل المناسبة وفق الخطوات الآتية.
- تعريف المشكلة وتحديدها.
- جمع معلومات عن المشكلة.
- توليد البدائل والحلول الممكنة.
- اختيار وتطبيق طريقة عمل.
- تقييم النتائج لمعرفة مدى تحقيق الأهداف.
- السرعة الإدراكية: السرعة في تحديد العناصر الصغيرة والدقيقة في مجال إدراكي معين. وتقاس من خلال اختيار شطب الكلمات.
- الاستدلال الكمي: القدرة على تركيز لإجراء علميات فكرية وحسابية وتقاس من خلال اختبار بناء المعادلات.
- التوتر النفسي: استجابة المفحوص النفسية والبيولوجية للتهديدات الناتجة عن التغيرات التي تحدث في الموقف التجريبي بالدراسة.
- ضغط الدم:
- ضغط الدم الانقباضي: وهو المستوى الأعلى من الضغط في الشرايين.
- ضغط الدم الانبساطي: وهو المستوى الأقل من الضغط في الشرايين.

ويقاس ضغط الدم في الدراسة الحالية من خلال جهاز إلكتروني يوضع على معصم اليد.

- معدل ضربات القلب: نبض القلب المستمر لضخ الدم في كل أجزاء الجسم، ويقاس معدل النبض بجهاز قياس الضغط نفسه.

خامساً: حدود الدراسة:

تقع حدود الدراسة الحالية في ضوء خصائص العينة المستخدمة، والتي تكونت من 120 طالباً جامعياً من الذكور في الفرقة الأولى، قسم علم النفس، بكلية الآداب، جامعة المنيا في صعيد مصر.

المنهج والإجراءات:

أولاً: عينة الدراسة:

تكونت عينة الدراسة المبدئية من 150 طالباً، وبعد استبعاد بعض الحالات وصل عدد العينة إلى 120 طالباً من الذكور في الفرقة الأولى، قسم علم النفس، بكلية الآداب، جامعة المنيا، بمتوسط عمري قدره 18.7 سنة، وانحراف معياري قدره 1.2، قسموا إلى ثلاث مجموعات، هي:

1 ـ المجموعة التجريبية الأولى تتلقى تدعيماً بالموسيقى.

2 ـ المجموعة التجريبية الثانية، وتتلقى تدعيماً بالتدريب على مهارات حل المشكلات.

3 ـ المجموعة الثالثة: ضابطة، ولا تتلقى معالجات تجريبية.

ثانياً: أدوات الدراسة:

أ. أدوات سيكومترية، وهي:

1 ـ اختبار الإحساس بالجمال للمثيرات السمعية، تأليف عبد السلام الشيخ 1982.

2 ـ اختبار أسلوب حل المشكلات، تأليف توني وإليزابيت Tony & Elihtabbth 1993، ترجمة وإعداد السعيد عبد الصالحين.

3 ـ اختبار التوتر، تأليف السعيد عبد الصالحين.

4 ـ اختبار شطب الكلمات، تأليف أكستروم وآخرون Ekstrom et al 1967، ترجمة وإعداد أنور الشرقاوي وآخرون 1993.

5 ـ اختبار بناء المعادلات، من اختبار ستانفورد بينية الصورة الرابعة. إعداد نروندیك وهاجن وساتلر Thornmdkike hagen sattler 1986، إعداد لويس ملكية 1994.

ب. أدوات فسيولوجية، وهي:

جهاز قياس ضغط الدم، ويعطي ثلاث قياسات، وهي:

1 ـ ضغط الدم الانقباضي.

2 ـ ضغط الدم الانبساطي.

3 ـ معدل ضربات القلب.

أدوات أخرى، وهي:

1 ـ ساعة إيقاف.

2 ـ جهاز كاسيت.

3 ـ عدد من شرائط الكاسيت المسجل عليها المقطوعات الموسيقية المفضلة.

4 ـ بعض المسائل الحسابية التي تتضمن قدر من الاستنتاج والتفكير.

ثالثاً: فروض الدراسة:

تضمن الدراسة الفروض الآتية:

- توجد فروق وجوهرية في ما يتعلق بتحسن مستوى الأداء الزمن ـ الدقة ـ كما يظهر على اختبارات شطب الكلمات وبناء المعادلات، بين المجموعة التجريبية الأولى والمجموعة الضابطة لصالح المجموعة الأولى.
- توجد فروق جوهرية في ما يتعلق بانخفاض مستوى التوتر، كما يظهر على اختبار التوتر وقياسات ضغط الدم، ومعدل ضربات القلب، بين المجموعة التجريبية الأولى، والمجموعة الضابطة لصالح المجموعة التجريبية الأولى.
- توجد فروق جوهرية في ما يتعلق بارتفاع المشاعر الجمالية للمثيرات السمعية بين المجموعة التجريبية الأولى والمجموعة الضابطة لصالح المجموعة التجريبية الأولى.
- توجد فروق جوهرية في ما يتعلق بتحسن مستوى الأداء الدقة الزمن، كما يظهر على اختبارات شطب الكلمات، وبناء المعادلات بين المجموعة التجريبية الثانية والمجموعة الضابطة لصالح المجموعة التجريبية الثانية.
- توجد فروق جوهرية في ما يتعلق بانخفاض مستوى التوتر، كما يظهر على اختبار التوتر وقياسات ضغط الدم ومعدل ضربات القلب، بين المجموعة التجريبية الثانية والمجموعة الضابطة لصالح المجموعة التجريبية الثانية.
- توجد فروق جوهرية في ما يتعلق بتحسن حل المشكلات بين المجموعة التجريبية الثانية والمجموعة الضابطة لصالح المجموعة التجريبية الثانية.
- توجد فروق جوهرية في ما يتعلق بتحسن مستوى الأداء الدقة الزمن، كما يظهر على اختبارات شطب الكلمات وبناء المعادلات بين المجموعتين التجريبيتين الأولى والثانية لصالح المجموعة التجريبية الأولى.

- توجد فروق جوهرية في ما يتعلق بانخفاض مستوى التوتر، كما يظهر على اختبار التوتر، وقياسات ضغط الدم ومعدل ضربات القلب، بين المجموعتين التجريبيتين الأولى لصالح المجموعة التجريبية الأولى.

رابعاً: المعالجات الإحصائية:

استخدام الباحث المعالجات الإحصائية الآتية:

1 - المتوسطات والانحرافات المعيارية لعينة الدراسة الكلية لمعرفة اعتدالية التوزيع.

2 - تحليل التباين الأحادي لمعرفة الفروق بين المجموعات في بعض متغيرات التي روعي ضبطها لدى مجموعات الدراسة الفرعية.

3 - اختبار (كا) دلالة الفروق بين الفئات التعليمية بالنسبة لمتغير تعليم الوالدين لمجموعات الدراسة الفرعية.

4 - اختبار (ت) لبحث دلالة الفروق بين متوسطات درجات المجموعات على متغيرات الدراسة والتحقق من الفروض.

5 - أسلوب (d) لقياس حجم التأثير لكوهن (Cohen 1966)، ويستخدم ليكمل الدلالة الإحصائية لاختبار (ت) لا ليحل محلها.

6 - أسلوب (n) لقياس حجم التأثير لكوهن، ويستخدم ليكمل الدلالة الإحصائية قيمة (ف).

خامساً: نتائج الدراسة:

- وجدت فروق دالة إحصائياً بين المجموعة التجريبية الأولى والمجموعة الضابطة في تحسن السرعة الإدراكية والاستدلالة الحسابي لصالح المجموعة التجريبية الأول.

- وجدت فروق دالة إحصائياً بين مجموع التجريبية الأولى والمجموعة الضابطة في انخفاض مستوى التوتر لصالح المجموعة الأولى.

- وجدت فروق دالة إحصائياً بين المجموعة التجريبية الأولى والمجموعة الضابطة في انخفاض مستوى ضغط الدم المرتفع وانتظام معدل ضربات القلب لصالح المجموعة التجريبية الأولى.

- وجدت فروق دالة إحصائياً بين المجموعة التجريبية الأولى والمجموعة الضابطة في ارتفاع

مستوى المشاعر الجمالية للمثيرات السمعية لصالح المجموعة التجريبية الأولى.

- وجدت فروق دالة إحصائياً بين المجموعة التجريبية الثانية والمجموعة الضابطة في تحسن السرعة الإدراكية والاستدلال الحسابي لصالح المجموعة التجريبية الثانية.
- وجدت فروق دالة إحصائياً بين المجموعة التجريبية الثانية والمجموعة الضابطة في انخفاض مستوى التوتر لصالح المجموعة التجريبية الثانية.
- وجدت فروق دالة بين المجموعة التجريبية الثانية والمجموعة الضابطة في انخفاض مستوى ضغط الدم المرتفع وانتظام معدل ضربات القلب لصالح المجموعة التجريبية الثانية.
- وجدت فروق دالة إحصائياً بين التجريبية الثانية والمجموعة الضابطة في تحسن أسلوب حل المشكلات لصالح المجموعة التجريبية الثانية.
- وجدت فروق دالة إحصائياً بين المجموعتين الأولى والثانية في تحسن السرعة الإدراكية والاستدلال لصلاح المجموعة التجريبية الأولى.
- وجدت فروق دالة إحصائياً بين المجموعتين التجريبيتين الأولى والثانية في انخفاض مستوى التوتر لصالح المجموعة التجريبية الأولى.
- وجدت فروق دالة إحصائياً بين المجموعتين التجريبيتين الأولى والثانية في أن مستوى ضغط الدم معدل ضربات القلب لصالح المجموعة التجريبية الثانية.

توصيات الدراسة:

يمكن إيجاز توصيات الدراسة في النقاط الآتية:

1 - بما أن مجالات دراسة سيكولوجية الموسيقى والعلاج النفسي باستخدام الموسيقى لم تزل مجالات جديدة، فالتجارب فيها مازالت محدودة، لذا يجب أن تتاح للباحثين الاستفادة مما تم اكتشافه في هذا المجال والعمل الجاد من أجل المزيد من الأبحاث للوصول إلى نتائج جديدة تفيد البحث العلمي والمجتمع.

2 - ألقت الدراسة الضوء على عديد الدراسات والنماذج النظرية التي تؤكد على خطورة الإثارة الضارة للموسيقى الصاخبة التي تستبق سرعتها معدل إيقاعاتنا الشخصية، تلك الموسيقى التي يمكن أن ترفع ضغط الدم، وتثير سلوكيات عديدة، مرفوضة دينياً واجتماعياً، لذا توصي الدراسة بحماية الأجيال الحالية من خطورة الاستماع إلى الموسيقى الصاخبة، وذلك من خلال عمل أجهزة الإعلام في التحذير من خطورة تلك

الموسيقى، خاصة لذوي ضغط الدم المرتفع، أو من يعانون من ارتفاع نسبة الكورتيزول في الدم.

3 ـ إن ميدان العلاج النفسي بالموسيقى قد وصل إلى مرحلة متقدمة في أنحاء العالم، فلم يقتصر على التجارب والدراسة النظرية، بل امتد إلى المستشفيات لمتخصصة في العلاج بالموسيقى، وذلك يتطلب منا مواكبة هذا التطور، بإجراء مزيد من البحث الجماعي في هذا المجال لإنشاء مركز بحوث متخصص يتكون من فريق عمل يضم اختصاصيين في مجال الطب البشري، والطب النفسي، والعلاج النفسي، والتربية الموسيقية.

4 ـ التفكير في إنشاء مجلة، أو جمعية مصرية متخصصة في العلاج بالموسيقى، تعنى بالدراسات والمؤتمرات والندوات في هذا الشأن، وتكون على اتصال بالعالم الخارجي.

5 ـ التفكير في إنشاء مكتبة خاصة لطرق حل المشكلات، تكون قادرة على تقديم نماذج تشخيصية لأحداث الحياة الضاغطة، وأن تتخذ منحى وفق قواعد بيانات شاملة في المراكز العلاجية والإرشادية بالجماعات والمدارس ومؤسسات المجتمع الأخرى.

6 ـ قابلية أسلوب حل المشكلات للتنمية والتطور باستخدام البرامج التدريبية والإرشادية، ومن ثم فلتعمل مراكز الإرشاد النفسي في الجامعات والمدارس والمؤسسات المهنية الأخرى إلى التخطيط لعمل دورات تدريبية على استخدام الأساليب العلمية والفعالة في حل المشكلات داخل محل الدراسة أو العمل.

مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية

يدعوكم لزيارة مواقعه على الإنترنت

WWW.Filnafs.com

WWW.Psyinterdisc.com

naboulsi.comWWW.Psychiatre-

سيكولوجية المنافق، الضلالي.. والبلطجي
الأحوال النفسية لوضعية الموظف الصغير والكبير

الدكتور خليل فاضل
kmfadel@gmail.com

دأبنا أن نتعلم أن السمك الكبير يأكل السمك الصغير. كل السمك يعيش في الماء، لكن السمك الصغير في مصر الآن أصبح يأكل السمك الصغير، وبعض السمك الكبير، والكل يعيش في الماء والهواء الفاسد والملوث. ولأن السمكة عادة ما تفسد من رأسها، وداء المرض الاجتماعي هو (النفاق) بكل ما يحمله من أسماء وتلاعب وقبح؛ فإن التلاعب بالناس، بالسياسة، بالدنيا، والدين. المشي على حبل الغواية، والتأرجح كالأراجوز. الرقص كالبهلوان، ومسح الجوخ، ولبس الطراطير، على كل لون كالبلياتشو العجيب، مهنة من لا مهنة لهم، موجودون بكثرة، وفي كل مكان، لكن ظهروا على السطح، وسوقهم أصبح زحمة مع الاستفتاء، وظهور المعارضة ونزولها إلى الشارع. التلاعب نوع من التفاعل القذر بين جهة وأخرى، على المستوى العملي، وفي الساحة، يبدأه شخص، أو مجموعة للتأثير على مشاعر وسلوك الآخرين. مارسته الحكومة على الناس، ومارسه الحزب الوطني على الأحزاب الأخرى، وعلى الناس كلها، وتمارسه قوى خارجية على الحكومة، ومارسته الحكومة على الإخوان، وهم بدورهم مارسونه على الحكم، وهكذا...

يصب كل ذلك في بوتقة تجمع أهدافاً محددة، وتخدم مصالح معروفة. "المتلاعب" أو "الضلالي" (من نشر الضلال التي هي المعتقد الخاطئ الذي لا يقبل الشك)، يُصرّ إصراراً على أن يحصل على ما يريده (وجبات ساخنة، أو بضعة جنيهات هنا وهناك)، وبين هؤلاء في الشارع

وعلى الساحة، كان بيننا وبين الحاكم سلالم وقصور، وموتوسيكلات، وعربيات (4 × 4)، لاسلكي وموبايلات، ورغبة شديدة في إرضاء السيد ولي النعمة، تطل من بين كل ذلك حسب قول وائل عبد الفتاح وجهة نظر مهمة للغاية: (يسيطر على المسؤول شعور خفي بأن فساده شرعي. الفجر 2. 6. 2005)، أو كما قال بطل رواية (المرتشي)، أو (المقصوم) للطاهر بن جلون، (أتمنى إلا أكون مرتشياً بلا تجاعيد)، لأن الذي تظهر له تجاعيد التوتر والزمن والإحساس بالذنب يكون لديه الإحساس. أما المرتشون الذين بلا تجاعيد فهم كُثر. ذلك النموذج الذي يغطى (التلاعب والسيكوباتية) بقناع (الاتضاع)، هنا يبرز ذلك المفهوم الغبي لـ"المنافق الذليل"، يسلم ويستلم بيديه المنداة بالعرق البارد (مزج بعض الصراع الذي يخبو ويظهر)، يتزلف ويتملق مالك السلطة، وكأنه الكلب يبصبص بذنبه تودداً وإخفاءً لكرهه العميق لهؤلاء الذين خدعهم، ولاعتماديته المتواطئة المحسوبة على ولاءات وانتماءات مريضة، براعته في نسج الشرك، كل ذلك يجعله خطيراً خسيساً، جديراً بالازدراء. يمهد طريقه اللولبي كالدودة التي تبعث على الرثاء، مصعداً ثقته بنفسه بتجاربه كموظف كبير، أو صغير متسلق (مطمئن إلى أن مؤسسة الفساد في مصر، قوة تعاظمت وتزايدت في ظل غياب حركة تداول السلطة، وفي ظل تنامي مراكز القوى داخل النظام السابق السيئ طويل العمر).

بالتدريج، يحوّل الموظف الصغير ضعفه وصغره، إلى يد عليا في وزارته أو مؤسسته؛ (وقصص الفساد والصعود الإجرامي لموظفي الدولة الصغار كثيرة، تمتلئ بها صفحات الجرائد، لكننا لا نعتقد أن المسألة في انحسار نتيجة هذه التحقيقات، بل ونعتقد أن هؤلاء ما هم إلا قطرة في بحر الفساد، ويمثلون نسبة ضئيلة من الهمّ العام، وأنهم مجرد كباش فداء). وتتحول التبعية والخضوع إلى سطوة وسيطرة وفجور، ويتحول الموظف الكبير، أو رجل الأمن المنوط به (خدمة الشعب) إلى (خدمة السلطة)، يتحول إلى ممثل بارع، ومتلاعب فج بالناس.

المصيبة في أغلب هؤلاء المنتشرين في المناصب العليا لبعض الوزارات، والذين انكشف أمر بعضهم لاحقاً، أنهم يتمتعون بنوع من الجاذبية الخاصة، فهو يظهر مساعداً للناس، بل ويبدو في إطار الغواية يقدم الطعم لفريسته بذوق وعذوبة، ولكنه (في الباطن، ومن تحت لتحت) عدواني مسيطر، سافل، وفي أحسن أحواله (متعادل)، يحاول أن يوزن الأمور.

المتلاعبون أصحاب أهداف تختلف باختلاف الناس، مناصبهم، نفوذهم، مواقعهم، وأيضاً حسب ضحاياهم. ولكنها عادة ما تقع ضمن ثلاثة أطر: الأول والأكثر انتشاراً (تحقيق المنفعة الذاتية). والثاني أن يُفسد ويفْسَد، يتفقون ويبلطج، ينافق ويخدع في محاولة مرضية مميتة لتحقيق ثبات وتوازن اعتباره النفسي، الذي للأسف الشديد، يقوم على تدمير الآخر، محوه،

إذلاله، انتهاكه، السيطرة عليه. لأن المنافق، الضلالي والبلطجي مهتز مرتبك وضعيف، لا يملك القوة الداخلية، وداخله خواء ووهن وضعف وفقر نفسي شديد لا يمكنه من الوقوف على رجليه، ولا العيش إلا بسحق من أمامه تملقاً ونفاقاً للكبير، أو للوصول، وأن يصبح هو كبيراً، وكأنها (تدمير للقهر، للنفاق)، وكأنها دائرة مغلقة من الأسى والعنف غير المبرر، والرغبة في البقاء ولو على أنقاض الآخر، ولو بالعيش في المستنقع، وذلك الأسلوب المتعفن يستخدم إما للتكيف مع واقع جحيمي نشأ من كيانات طفيلية، أو للدفاع عن مصالح مسروقة من أصحابها، (بالواسطة، بالرشوة، بالخداع، بالتدليس)، يتواجد بعض ذلك، أو كله، في شخصيات تمتد لتشمل الكل في دوائر تتسع، وكأن حجراً أُلقي في الماء.

هنالك فروق هامة بين (السيكوباتي/ البلطجي) وبين المتلاعبين الآخرين، وأهمهم (النخبة السيكوباتية)، أو (الصفوة المنافقة)، وأهم هؤلاء المقاولون: مقاولو السياسة والبزنس، مليونيرات ومحترفو كذب ودهاء ومؤامرات. مقاولو السياسة ممكن أن يكونوا بلطجية، وأن يكونوا (لصوصاً)، وفي الوقت نفسه لا يظهر عليهم اجتماعياً أي شيء من ذلك، فهم ناجحون، أصحاب أسر مصونة، وأولاد في مدارس أجنبية، ويصفون في أوروبا، بينما (المسجل خطر)، محروم من المال والجنس، محروم من الغذاء والكساء والسكنى اللائقة، لكن العلاقة بين هذا وذاك وطيدة، وعلى الرغم من عدم سخاء المقاول (وليس بالضرورة أن يكون مقاول أنفار للحزب الوطني، لكن ممكن أن يكون مقاولاً بالمعنى الخطير في مطبخ السياسة ودهاليزها أن يكون (البزنس) الخاص به يخدم المؤسسة الحاكمة وأفرادها بشكل ما، أن يوظف حياته وماله للسير على درب الهوى، من أجل مصادرة الديموقراطية، وقهر الناس، وعدم السماح لأي (كلب) بأن يفتح فمه، بمعنى أن يؤصل لمصادرة المشاعر، وتأكيد التحرش وبيع الذمم وشرائها). في حالة مقاول السياسة ذي الجلد المضوي، والسحنة الممتلئة والطاووسية الخطيرة، يكون تلاعبه مطوعاً ومسهلاً ليرضي نزعاته الداخلية، أهدافه وأطماعه الراقدة في عقله الباطن Intrapsychic Aims ، وفي الوقت نفسه مربوطة بسلوكيات مرتبة تخدم أهداف الفئة، ولا نقول الطبقة، لأن الطبقة عادة ما تكون منسجمة مع ذاتها، لكن (الفئة تجمع أفراد من طبقات متعددة ووظائف مختلفة، مثل: البنكي، صاحب العمل، المسجل خطر، الانتهازي، رئيس التحرير، الوضيع، الواشي، الساعي، السائق، الضابط، وكلب الحراسة الذي يشم كل شيء ويهدف لشيء واحد فقط). البلطجية الجدد، المنافقون الممتازون أصحاب الياقات البيضاء، المتلاعبون الفاسدون والمفسدون بربطات العنق الأوروبية، والنظارات الإيطالية، والبدلات الفخمة، والسيارات الفارهة، يهيمنون ويتلاعبون بالحقيقة،

وبالوطن وثرواته، محققين مكاسب خارجة لهم (جاه وسلطان ونفوذ وفلوس)، مكاسب داخلية نفسية (خداع أنفسهم بأنهم شرفاء ناجحون محققون لذاتهم)، في حالة (السيكوباتي) المجرم المسجل خطر المحروم نفسياً وجنسياً ومادياً متعجل يعوز إشباع حاجاته بسهولة. وهنا يكون من السهل تأجيره واستخدامه وإشباعه وقتياً، وحتى مهمة أخرى، والإبقاء عليه في حالة الحرمان تلك، حتى يكون ذئباً ينهش اللحم المعارض وقت اللزوم وبأبخس ثمن، أما (الضلالي) الأنيق (النصاب الشيك؛ فيمكنه تأجيل رغباته لحين، لأنه يخطط ويرسم ويرمي بالشباك وعينه على الهدف الثمين والسمين، وهنا تكون اختياراته وأولوياته مرسومة بدقة؛ بعكس حالة (السيكوباتي) الذي يضطر اضطراراً لفعل ما قد يفعله من انتهاك أعراض، سرقة، ضرب، تحطيم، عنف، للحصول على المكافأة (هنا والآن)؛ لأنه مستعجل ونار الحرمان تأكله، جائع، والتلاعب هنا يكون وسيلة متعادلة يستخدمها الشرفاء لتحقيق هدف معين؛ بعكس البلطجية والضلالية الذين يستخدمونها كمركبة لتدمير البشر وسرقة الوطن من ضميره، ماله، وشرفه.

الاتجاه الحديث في الخطاب "الطبي النفسي السياسي" يركز على (التشخيص)، وعلى (اضطرابات) بعينها. لكن يبقى أمرٌ غاية في الأهمية في إطار كل هذا، إلا وهو عملية تقييم حيل النفس الدفاعية، الشخصية وأنماطها، لا لشيء إلا لأن (الشخصية) و(الدفاعات النفسية) من الممكن أن تنبئنا بذلك الصراع المرير قبل حدوثه، ذلك الصراع المراوغ قبل أن يبدأ، بل ويمكنها إرشاد القوى الوطنية بالمخاطر والأمور قبل وقوعها.

إن فهم يقين التلاعب والنصب، الفهلوة والبلطجة والنفاق، كعملية استمرارية لهؤلاء الموظفين الكبار في مناصبهم العامة، وهؤلاء الموظفين الصغار، في مكاتبهم المزدحمة.

وبالطبع، سيكون هناك من يتحسس موطئ قدميه، وهناك من سيصوب الرصاص على قدميه، وهناك من يتحسس رأسه التي عليها بطحة، وللأسف الشديد فإنهم كثر.

الكآبة الحضارية!!

د. صادق السامرائي
اختصاصي بالأمراض النفسية

المقدمة

مثلما يُصاب الأفراد بداء الاكتئاب، تصاب الأمم والشعوب به أيضاً. فدورة حياة المجتمعات البشرية كدورة حياة الأفراد، وما يصيبهم يصيب المجتمعات، أوَ ليست الأمم والشعوب حاصل تفاعل مجموع الأفراد مع بعضهم بعضاً، وهو تفاعل شامل ومتشعب.

إن الاكتئاب من الأمراض الخطيرة، لأنه يقلب البشر إلى قوة مضادة لنفسه، ويجرده تماماً من التفاعل مع الآخر فرداً أو محيطاً، كما أنه يسري في الأعماق بهدوء وتدرج، حتى يحيلها إلى عصف مأكول، وأعراضه تتغلغل فيها، فتلونها بالسواد، وتلغي منها أي لون آخر.

وكلما تأملت حالنا في القرن العشرين، أجدني أمام حالة من الاكتئاب الشعبي الشامل (mass depression) الفاعلة في أركان الأمة، وعلى مدى أجيال متعاقبة، وما استطاع أي جيل أن يشخص الداء ويصف الدواء، بل إن عطاءات الأجيال في القرن العشرين كانت مشحونة بالإبداع الفكري الاكتئابي، الذي يلوّن الحياة بالدم والموت، ويحولها إلى معضلة، وكأنها في نفق مظلم طويل لا نهاية له ولا شعاع ضوء قادر على التسرب إليه.

ويبدو أن حالة الاكتئاب الشعبي قد تفاقمت وامتدت إلى القرن الحادي والعشرين، وتجاوزت القنوط واليأس، وراحت تتخذ مسارات موجعة في هذا البلد، أو ذاك. ولا أدري إن كنت مصيباً في ما أرى، أم لا؟

أسباب الاكتئاب النفسي

1 ـ الفقدان (loss)، أي أن يفقد البشر شيئاً مهماً، أو عزيزاً.

2 ـ تفاقم المشكلات، وعدم وجود منفذ للخلاص منها.

3 ـ عدم التوازن ما بين الطموح والقدرات.

4 ـ الإحساس بالتخلف، أو التأخر.

5 ـ الخسائر بأنواعها.

6 ـ التوتر المزمن، أو المستديم (chronic stress).

الأعراض والعلامات

1 ـ المزاج الحزين.

2 ـ سرعة الغضب.

3 ـ فقدان الإحساس بالمتعة.

4 ـ العزلة والانشغال بالموت.

5 ـ الإحساس بفقدان القيمة.

6 ـ الشعور بالذنب، والندب، ونقد الذات وتقريعها وإذلالها واحتقارها.

7 ـ فقدان الأمل واليأس.

8 ـ ضعف التركيز وتشتته.

9 ـ عدم القدرة على اتخاذ القرار، وفقدان الثقة بالنفس.

10 ـ الشعور بالتعب والعجز والهياج والانكماش.

11 ـ التوقف والحركة البطيئة والمظهر الدامع الحزين.

والآن لننظر حالنا في القرن العشرين وفقاً لمنظور أسباب الكآبة:

1ـ الفقدان

لقد فقدنا عبر مسيرتنا الحضارية كثيراً من خصائص وجودنا القيادي المؤثر. وقد كانت فاجعتنا الكبرى بسقوط بغداد عام 1258 ميلادي. وعبر تأريخنا، وعلى مدى ثمانية قرون متلاحقة، كنا الضحية والخاسر الأول دوماً. وقد تكررت خسائرنا في القرن العشرين، وتعاظمت في جوانب متنوعة. وبرغم أننا قد حققنا ربحاً في مسيرتنا العامة ووجودنا مقارنة

بالقرن التاسع عشر. لكن الخسائر المتلاحقة قد حجبت عنا رؤية رافدنا الكبير، ففرقنا في الجداول والسواقي والبرك والمستنقعات، نحسبها كل ما في هذا العالم من حياة.

2. تفاقم المشكلات

بلداننا قاطبة قد تحولت في القرن العشرين إلى مستودع للمشاكل التي تفاقمت مع الأيام، وقد أجادت الأنظمة السياسية مهارات استثمارها وتطويرها. وهذه المشاكل مختلفة ومتنامية بأقصى سرعة ممكنة. وفي كل يوم هنالك إعلان عن مشكلة جديدة عديمة الحل. فأصبح بشرنا من المحيط إلى الخليج يتخبط في أمواج المشاكل المتعاظمة، والتي اشتدت عليه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكانت محوراً لتلك المشاكل قضية فلسطين التي استنزفت طاقات وجودنا الصاعد، إضافة إلى مشاكلنا القطرية التي لا تنتهي.

3. عدم التوازن ما بين الطموحات والقدرات

إن الأهداف التي ترددت في بلادنا على مدى القرن العشرين كانت تدعو إلى الوحدة والحرية والتقدم والإصلاح والنهوض إلى حيث يليق بنا وبتأريخنا. وما تحقق منها شيء يرقى إليها، بل إن جميع الأقطار قد اتجهت إلى ضد أهدافها وتطلعاتها. وعلى ذلك، عدم امتلاكها القدرات السياسية الكافية، وغياب خطة العمل المتوازنة للوصول إلى الأهداف، مما حقق إحباطاً متراكماً وشديداً في أعماق الناس، فتغلب عليهم الشعور بالأسى والخيبة الآمال وانهيار التطلعات.

لقد أراد العرب أن يلتقوا بماضيهم المجيد الزاهر الذي يستحق الفخر والتقدير. وهو هدف مشروع وممكن لو أن الأمة أدركت وسائل الوصول إليه، وعقلت المهارات اللازمة. وبسبب غياب خارطة الطريق الواصل ما بين الإرادة والطموح، أصابها الضياع والتخبط الذي ولّد جروحاً حضارية متقيحة ومتنامية، برغم توافر القدرات المادية والبشرية والفكرية، لكن القدرة على وعيها واستثمارها كانت غائبة، وما امتلكنا إلا قدرات تدميرها وإتلافها. فقد كنا نريد الوصول إلى مرتبة الأجداد ونحن نجهلهم تمام الجهل ونسبغ عليهم من ظنوننا البائسة ما هو مشين وقاتل لنا ولهم.

4. الإحساس بالتخلف والتأخر

منذ بدايات أيام اليقظة والنهضة العربية، صار العرب يقارنون بين حالهم في الماضي وواقعهم في الحاضر، فامتلأوا إحساساً بالتخلف والتأخر عن حقيقتهم التاريخية، وتأدية

رسالتهم ودورهم الإنساني والحضاري. وقد تم تغذية الشعور بالتخلف والتأخر من خلال الاحتكاك المباشر مع الغرب. وقد توفرت منابر فكرية عربية متنوعة لتأكيد هذا الشعور وتعميقه والتخندق فيه إلى أبعد ما يمكن. وكأن الأمر كان مطلوباً لتحقيق العجز الحضاري والشلل المعاصر للأمة. ولا أدري لماذا لم يتأكد هذا الشعور في أمة الصين التي أدركت حالها في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين. ونحن أدركنا أنفسنا في بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكان علينا أن نكون ونتجاوز حالنا المتخلف كما توهمنا وفق أبسط الحسابات الحضارية. لكننا أمعنا في تأخير أنفسنا وشعورنا بأننا كذلك برغم كل خطوات تقدمنا ونهوضنا وعلائم صيرورتنا.

5. الخسائر المتنوعة

نحن عندما نتأمل أنفسنا نجد أننا في دوامة من الخسائر المتلاحقة والانهيارات المتواصلة، وعلى جميع المستويات. ولا يوجد أي شعور حقيقي لدينا بأننا قد ربحنا معركة، أو دوراً، في الحياة، بل إننا على الدوام عندنا شعور بالاغتصاب والانتهاب والاستعباد ومصادرة الحقوق الإنسانية والمادية. وإن سلطان الخوف يلاحقنا أينما نكون، فإذا نطقنا برأينا إما نموت أو نكون في ظلمات السجون، وما علينا إلا أن نذعن ونستسلم لإرادة العابثين بمصيرنا والسارقين لحقوقنا من أبناء جلدتنا. فأبناء الأرض المبتلاة بالنفط يكابدون الفقر والجوع والمرض والخداع، وهم يعيشون على بحار من النفط الذي لا يعود عليهم إلا بالأسلحة التي تدمرهم وتقتل أبناءهم في حروب لا مبرر لها، إلا امتصاص طاقاتهم وقتل شبابهم وزرع الأحزان في بيوتهم، وهذا يولد شعوراً قاسياً بالخسران عند الأب والأم والأبناء، وعند كل من يعيش على أرض تحتها نفط.

6. التوتر المزمن

منذ الحرب العالمية الأولى، وحتى يومنا هذا، نحن نعيش في دوامة التوترات المتفاقمة، وعلى مختلف المستويات. وما استطاعت الأجيال أن تتخلص من التوتر والاضطراب، بل إن حجم التوترات في تنامٍ واتساع. وإن القوى الطامعة في الثروات النفطية تجد وتجتهد في تأجيج نقاط التوتر وخلق مراكز متجددة لزيادة شدتها وكثافة الأطراف المحترقة فيها. ولا توجد دولة واحدة من دولنا معافاة من التوترات السياسية والعرقية والاقتصادية والعسكرية.

لقد تحولت أرضنا إلى مسرح للقتل والدمار وتجريب الأسلحة والقتال بالنيابة عن أطراف

الحرب الباردة، وقد جربت عليها كل مبتكرات التدمير ووسائل التخريب، وتحولت فيها الحقائق إلى غرائب، والأوهام والبديهيات إلى مستحيلات. ومازالت تخضع لأحدث فنون الحرب النفسية الموجهة بقسوة ووحشية ضدها.

إن حالات التوتر المستديمة لها مصادر داخلية وخارجية، وكلها تتفاعل وتساهم في جحيمات التفاقم للأزمات وتنمية مآسينا وتدمير قدراتنا، بل إن طاقاتنا قد تبددت وتجمدت، وتحولت إلى ضدٍّ لإرادتنا، وسخرت لقتلنا والفتك بأهدافنا وطموحاتنا. فقد صرنا نُقتل بما نريد، لأن الآخر يعرف كيف يوظف ما نريد لتحقيق ما يريد. وما تعلمنا كيف نصل إلى ما نريد لإهمالنا لأهم ركن من أركان الإرادة، وهو العقل، وتدثرنا بالانفعالات الحارة المؤذية.

الأعراض والعلامات

1. المزاج الحزين

الطابع العام لأمزجتنا هو الحزن، أما الفرح فإنه حالة طارئة وغريبة في حياتنا، كعائلة، أو أمة. وهذا ينعكس في نتاجاتنا الأدبية والفكرية وأغانينا وأحاديثنا اليومية وسلوكنا العام. وبسبب ديمومة الحزن في أعماقنا، ترانا نشكو ونتأوه، ولا نعرف إلا أن نلقي بأسباب سوء الحال ورزاءة المآل على غيرنا، ونتهم الأقدار بما لم تفعل. وفي أكثر الأحيان نتخذ من السلطات الحاكمة وشاحاً نعلق عليه كل معاناتنا وويلاتنا وبكائياتنا، وما نفع تغيير السلطة مراراً في مداواة حزننا. فلينظر كل واحد منا إلى نفسه وعائلته ومجتمعه وسيرى مساحة الحزن الكبيرة في ساحات أيامه وأعماقه ومعظم أحاديثه وأحاديث الناس من حوله، وهذا يتكرر مع الأجيال بلا انقطاع أو توقف.

2. سرعة الغضب

المعروف عنا، قادة وأفراداً، وأينما كنا، سرعة الغضب، وفوران دمائنا، وإتلافنا لأنفسنا بسبب ذلك. ولولا نعمة الشمس التي تساعدنا على مجابهة الكآبة المستديمة فينا لهباء حالنا إلى أبعد مما هو عليه. فالحمد لله على وجود النور الساطع في أرضنا، والتي يعزو بعضهم سرعة غضبنا إلى كثرة سطوع الشمس، وأنا أخالفهم في ذلك، وأرى إنها أحد أسباب ديمومتنا وعلاجنا من كآبتنا.

إن السبب الحقيقي وراء غضبنا السريع هو الاكتئاب الشامل الذي يعصف في كيان الوجود العربي. وعندما نتخلص من كآبتنا، ستزول عنا هذه الصفة ونؤوب إلى رشدنا،

ونستخدم عقولنا بكفاءة. لقد تم استغلال هذه الصفة من قبل الآخرين، وحققوا من خلالها مشاريعهم وطموحاتهم، بل إنهم سخروها لاستنزاف طاقاتنا ومنعنا من الإمساك براية الانطلاق الحضاري المتفق مع حقيقتنا ورسالتنا الإنسانية.

3. فقدان الإحساس بالمتعة

إننا لا نتمتع بما نملك، وبما في أوطاننا من الخيرات والشواهد والثروات ومواطن الجمال والبهجة. ولا نراها إلا شيئاً جامداً ذليلاً خالياً من تحقيق الشعور الإنساني الجميل. نحن نملك كل شيء، ولا نملك شيئاً. عندنا معظم ثروات الأرض وما عندنا شيء.

نحن "كالعيس في الصحراء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول"، وقول الشاعر هذا ينطبق علينا تماماً. وعندنا ميزة عجيبة وفريدة ملخصها أننا لا نرى ما عندنا، ونرنو إلى ما عند غيرنا، فلا نتمتع بما نملك ولا نحصل على ما لا نملك. والأنكى من هذا، أننا نبخس ما عندنا، ونثمّن ما عند غيرنا، ونضفي عليه من خيالات عجبنا ما ليس فيه. كأننا نحوله إلى معشوقة نهيم بها ونتغنى بهواها ولقائها. وهذه الميزة مستفحلة في شخصيتنا، ومؤثرة في سلوكنا الفردي والجمعي.

4. العزلة والانشغال بالموت

الاكتئاب من أهم أسباب التخندق والانعزال في وطننا الكبير، فالعربي يفضل العزلة عن أخيه، وصار يشعر بالعزلة وهو في بلده، لأنه لا يجد من يتفاعل معه ويستمع إليه، لأن كل فرد صار مستودعاً متزايداً للهموم والآهات والأوجاع، ولا يعرف إلا كيف يتلفظها، ويأنس لتحمل تدفقها وانبثاقها من جميع خلاياه ووديان أعماقه الجريحة. وهذا ينعكس على كل مواطن مما رسخ التجزئة ومزق أية قدرة على التفاعل الصحيح مع أبناء الوطن. ومع تواكب الأعوام في القرن العشرين ازددنا عزلة، وصارت بلداننا خنادق حزن تضمنا، وسجوناً تأوينا. كما أن الهم الأكبر تحول إلى الانشغال بالموت وإهمال الحياة. فصرنا نسفه كل مفردات الحياة أمام حقائق الموت وفاعليته وسلطانه، ولهذا فقدت الحياة قيمتها وتسلطن الموت في الأعماق، فصرنا نعبر عنه في أفعالنا وأقوالنا وإبداعاتنا. وربما تغلب الموت بأفضليته على الحياة، وصرنا نردد "من الأفضل أن نموت ففي الموت حياتنا" وهذه أفكار اكتئابية عاصفة في حياتنا، ومؤثرة في دورنا الإنساني، وهنالك كثير من الشواهد عليها.

5. الإحساس بفقدان القيمة

هذا الشعور القاسي الوخيم، الذي لا يخلو منه بشرنا، قد استفحل في حياتنا، وتنامى في ديارنا. فأخذنا نقرأ ونسمع ونرى ما يدهش حقاً من الإمعان بتصغير أنفسنا وتجريدها من أية قيمة إنسانية، أو حضارية. وقد امتد تأثير الإحساس بفقدان القيمة إلى تراثنا وحاضرنا ومستقبلنا. ونحن كل يوم نقرأ في صحفنا مقالات تؤكد التعبير عن هذا الشعور الاكتئابي المريض. وكم قرأنا في صحفنا مقالات تجرد لغتنا من قيمتها ودورها وتراثنا من جدواه، بل وتريد أن تلقينا في أحضان النسيان والاندثار.

6. الشعور بالذنب والندب ونقد الذات وتقريعها وإذلالها واحتقارها

الشعور بالذنب متفاوت في درجاته، لكنه قائم في معظم أركان حياتنا. فكل فرد منا مشحون بطاقة الشعور بالذنب والاستسلام لعذابات الضمير، ونستطيع أن نجد الدليل على ذلك في كثير من نشاطاتنا الفكرية والثقافية. فنحن على درجة عالية من حساب الذات، وهذا يدفع إلى الندب، ونقد الذات، وتقريعها وإذلالها واحتقارها. فنحن من أقسى أمم الأرض على أنفسنا، ولا تخلو صحيفة من صحفنا من مقالات تهاجم حالنا، وتندب وجودنا، وتنهال علينا بما يشتهي كتابها من الصفات المشينة. ففي جميع كتاباتنا الفكرية هنالك تقريع ذاتي، وهجوم شرس على وجودنا وواقعنا وبأقلامنا. إننا دائماً نتهم أنفسنا ونقرعها، وما عرفنا الكتابات الإيجابية، بل اعتدنا على إبداعات الندب والنقد البائس الحزين.

7. فقدان الأمل واليأس

اليأس شعارنا، وفقدان الأمل سلاحنا وأسلوبنا في عصرنا الدامع الحزين، وهما يلونان وجودنا ويطغيان على جميع نشاطاتنا. وما رأيت أوضح من ظهورهما في كتاباتنا وأحاديثنا. وقد أثر اليأس على حركة الأجيال، وسرق من شبابها كل همة واندفاع نحو صيرورة متوازنة مع ما فيها من الطاقات. إن آفة اليأس تأكل الإنسان العربي كما تأكل "الأرضة" جذوع الأشجار، فتضعف مقاومتها للرياح، وتبيدها بصمت وهدوء.

نحن يائسون قانطون، وعندنا فكر السماء، وكل مفردات الإيمان والحياة الطيبة السعيدة، ومع هذا نعيش حالة مناقضة لما عندنا، فاليأس لا يتفق مع الإيمان، وإن طغى اليأس ذهب الإيمان.

8. ضعف التركيز وتشتته السريع

نحن بطيئون في كل شيء مقارنة بأمم الأرض الأخرى، وهذا البطء ناجم عن ضعف التركيز وتشتته. فنحن نقرأ ببطء لأننا لا نستطيع التركيز، فأفكارنا مشتتة، وأدمغتنا ممزقة بالمشكلات اليومية المتفاقمة. وبسبب ضعف التركيز، فقدنا القدرة على فهم أحوالنا، وفهم ماضينا، واستنباط الحقائق الضرورية لتطورنا وتنامي قدراتنا، فصار تراثنا عبئاً علينا، وانتهينا إلى غربة قاتلة وجهل مروع.

9. عدم القدرة على اتخاذ القرار وفقدان الثقة بالنفس

وذلك بسبب ضياع القابلية على تجميع الأفكار وصياغتها بأسلوب علمي، ولطغيان الطاقات الانفعالية على القدرات الفكرية وتحول العقل إلى عبد مطيع للعاطفة. وفي هذه الأجواء المشحونة باضطراب التفكير وتلاشي التركيز، يكون القرار الصائب الصحيح غير ممكن. وأن أي قرار يمتلك نتائج سلبية أكبر من النتائج الإيجابية. وهذا يفسر سلبية القرارات وشيوع اضطرابها وإتيانها بنتائج وخيمة، وتوليدها لمشكلات غير محسوبة. وهذا يدفع بدوره إلى فقدان الثقة بالنفس. فهل نحن واثقون بأنفسنا؟ ومن أين نأتي بأسباب وعوامل تأكيد الثقة بالنفس؟ فالأكثرية منا منزوعة الثقة بنفسها، وإن هذه الصفة تنعكس على سلوكنا بمختلف مستوياته وتفرعاته، وتتأكد في سلوكنا السياسي كدول وقادة. وقد تمكن الآخرون من ترسيخ فقدان الثقة بالنفس في جميع مفردات حياتنا، وصار الخوف والتردد والشك عوامل فاعلة في سلوكنا.

10. الشعور بالتعب والعجز والهياج والانكماش

سمات مهيمنة على أيامنا، فطريقنا يزداد طولاً، وهمومنا تزداد ثقلاً، وأمام كل خطوة نهم بالركون إلى قيلولة. وصار القريب بعيداً في ديارنا، فتعلقنا بأحلام اليقظة، واستحضرنا السندباد ومصباح علاء الدين، وإذا كل ما نريده يصير ضباباً تبدده أنوار الحقيقة الساطعة وسقوط الأقنعة. إننا نشعر بالتعب والعجز ولا شك في ذلك. والقارئ يرى ما تنشره صحفنا من آراء العاجزين وأقوال المتعبين، وكأننا في وادٍ مظلم ودوامة من المآسي المتزايدة. ولا توجد أمة أشد عجزاً منا في الوقت الحاضر، أو إحساساً بالتعب والملل، وهذا يعني بأننا سنتبرع بكل ما عندنا لغيرنا بسبب عجزنا على الاستمرار في امتلاكه.

إن ما نعانيه من اضطرابات متنوعة، يؤكد درجة الهياج الإكتآبي الناجمة عن اليأس المروع العاصف في أرجاء النفس عندنا. ويتخذ الهياج أشكالاً مختلفة ومتنوعة، ويعبر عنه بانفعالات وأقوال وجرائم قد تكون بشعة جداً، لأن البشر في حالات الهياج الاكتئابي يفقد صلته بالواقع، وتضيع منه الحكمة والقدرة على إدراك نتائج ما يقوله ويفعله، مما يؤدي إلى تزايد المشكلات والمعاناة، ونحن في واقع أمرنا نتأرجح ما بين الهياج العارم والخمول الشديد، وفي هذا جزء كبير من مآسينا.

11. التوقف والحركة البطيئة والمظهر الدامع الحزين

الأمة متوقفة عن المشاركة الحية والجادة في صناعة الحضارة البشرية المعاصرة، ولو أن أبناءها يساهمون في ذلك في معاقل إغترابهم، بل إن دورها غائب، وكأنها نائمة ومنقطعة عن الحياة، وهي التي ابتدأت مشروع التقدم والارتقاء منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومازالت تتحرك كالسلحفاة، وأكثر خطواتها تجرها إلى الوراء، في حين أن أمماً قد بدأت في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين سبقتها في كل الميادين. إن التوقف الحضاري هو علامة واضحة تؤكد شدة الاكتئاب الذي نعاني منه.

أما المظهر الحزين، فأننا صرنا معروفين بملامحنا المرسومة بمداد الألم والآهات والخسران. ويتفاوت مظهرنا من بلد إلى بلد حسب درجة المرارة واليأس المرسومة على وجوهنا. لكن المظهر العام لنا هو المظهر الكئيب المتجهم الذي تشيع منه علامات الانكسار والغضب والجراح، كما أن أحاديثنا عبارة عن بث للشكوى، وبكائيات ورثائيات وندب وتأسف ونقد مرير لوجودنا وأحوالنا المتحركة من سيئ إلى أسوأ، وقد عبرنا عن ذلك بوضوح في أشعارنا وأغانينا ومظهرنا العام، وبكل ما يمت بصلة إلينا.

إن الأجيال في قاموس الأزمان تكون كفرد، وأجيالنا الحاضرة إنما هي فرد دامع حزين ينفث الحسرات ويضرب كفا بكف!

الخاتمة والعلاج

تلك هي أعراض مأساتنا الحضارية وعلاماتها. وبما أن الكآبة مرض يمكن علاجه، فإن علينا أن نبحث في العلاج الذي يمكنه أن يشفينا منها. إن الأمة لا يمكن علاجها بالأدوية والعقاقير المضادة للكآبة، أو بالصدمة الكهربائية. إن العلاج الأمثل لكآبتنا الحضارية هو

بالعلاج الإدراكي COGNITIVE THERAPY، وهذا العلاج يرتكز على أن الأفكار تؤثر في المشاعر والسلوك البشري. وإذا غيَّر البشر طريقة تفكيره، فإن سلوكه ومشاعره سيتغيران. إن التشويه الإدراكي هو أصل الاكتئاب والتغيرات العاطفية والجسمية وباقي أعراض الكآبة، أي عندما تفكر بالأمور على أنها غير ما هي عليه، وننظرها بعيون أمامها عدسات تشويه ينعكس ما نراه على سلوكنا، فعندما نكون بلا طاقة، وعدم مبالاة، يكون ذلك ناتجاً عن الإحساس بالفشل وتوقعه في كل مناحي النشاط الذي نقوم به. وكذلك الشلل الشامل يكون بسبب اليأس وفقدان الأمل. كما أن الإحساس السلبي للذات وإدراكها على أنها وجود سالب ومقيت يدفع إلى الشعور بلا قيمة الذات، وعدم كفاءتها وحرمانها ونبذها من قبل الآخرين، وهذا بدوره يصنع إدراكاً سلبياً للعالم الخارجي، وهذا يؤسس لهزيمة الذات، وتوقع فشلها وعقوبتها واستمرار توقعاتها للصعوبات والمقاساة والخذلان.

إن العلاج الإدراكي يهدف إلى تشخيص وتحديد الذهنية السلبية والتشويهات الإدراكية المتراكمة واستبدالها بإدراكات جديدة مرنة ومفيدة لتحقيق القدرة على التفكير الذي يحقق انسجاماً ما بين الإدراك الإيجابي والسلوك الناجم عنه، وهذا يحقق الحياة الأفضل.

والخلاصة أن المشاعر والسلوكيات تتحدد بالطريقة التي نرى فيها العالم ونركبه في أذهاننا، وهذا العلاج يصلح لنا لأننا نمتلك مستويات عالية من الاضطراب الإدراكي، وهو يؤهلنا للتمييز بين المشاعر والأفكار، ويمنحنا الرغبة والإمكانية لصيرورة أفضل، ويزودنا بمهارات عالية في السلوك الإيجابي.

علينا أن نحدد الأفكار التلقائية، التي هي أفكار مشوهة ومختلقة من خلال التعامل مع الأحداث والمواقف، وهي تعترض التفاعل ما بين الذات بانفعالاتها وعواطفها والحدث الخارجي المحيط بها. فقد تعتقد أن الشخص الذي لم يسلم عليك يكرهك، بينما قد يكون ذلك لأسباب أخرى، منها مثلاً أنه مهموم ومشغول بأمر كبير ومزعج. إن تفحص هذه الأفكار، وعدم تضخيمها، والتصرف على ضوئها، وتحديد التكيفات السلوكية الخاطئة الناتجة عنها، ضروري لسلامتنا الفكرية والسلوكية.

إن التفسيرات السلبية لها فعلها في حياتنا، وهي تؤدي إلى آثار أليمة، ونتائج وخيمة، فنحن مهرة بالتعميمات وتثمير الأحداث الصغيرة وتحويلها إلى مسلمات وثوابت فكرية وسلوكية، فنقول إن المشكلة في هذا المجتمع وهذا الوطن، بينما هي مشكلة صغيرة في بيت من بيوتات مجتمعنا، فنلصق ما يحصل في بيت من بيوت المدينة بالمدينة كلها. وعلى ما يبدو فقد علمنا الآخرون استخدام لغة التعميم ضدنا لكي يحققوا ما يسعون إليه.

أما الإسقاطات، فإنها واضحة في سلوكياتنا بصورة عامة. فنحن نتحدث بلغة "هو"، ونجعل الآخر هو السبب الأول والأخير في ما يحصل، وننفي عنا أية مسؤولية، وهذا نوع من التفكير السلبي العائر الذي يوفر لمن يرغب بنا أسلوباً لتحقيق ما يريد.

ويبدو أن من الضروري أن نمتلك القدرة على التمييز بين التفسيرات السلبية والإيجابية، وأن نتمسك بالإيجابي منها. وأن نسعى لكي تكون توقعاتنا ذات معانٍ إيجابية ومشحونة بالأمل والتفاؤل، والإيمان بأن الغد أفضل دوماً. كما أن التمسك بالواقعية والعلمية في تفسيراتنا يساعدنا على العلاج، ويوفر لنا الأرضية لحياة صحيحة طيبة. وعلينا أن نكون معقولين وغير مضطربين بسبب احتدام العواطف والانفعالات في أعماقنا، مما يدفع إلى تشويه بصائرنا وإدراكاتنا وتعميم تصوراتنا. إن تنازلنا عن التعميمات، وابتعادنا عن الإسقاطات والتبريرات، ووقوفنا أمام أنفسنا بعلمية وثقة وصدق وإصرار على الصيرورة الحضارية الزاهية والدور الإنساني الواضح، يؤسس لتحقق حضاري جديد. أما إذا بقينا نتعامل مع الأيام بعقلية اكتئابية وتأنيبية وإمعان بالقسوة على الذات، وتحجيم قيمتها، والتفتيش عن كل السلبيات والعثرات، وصبها في بوتقة سلبية واحدة ذات لون أسود، وتوفير ذهنية مشوهة، فإننا لن نخطو إلى أمام مثل باقي البشر، وستغلبنا السلحفاة في وصولها إلى حيث تريد. إن إنجازنا في القرن العشرين أقل بكثير جداً من أمم بدأت بعدنا بعقود عديدة، وهذا يؤكد ويشير إلى ما سنكون عليه في القرن الجديد.

إن المفكر العربي عليه أن يتخلص هو الآخر، وبالدرجة الأساس، من الذهنية السلبية المشوهة التي على ضوئها يغوص في تحليلات سلبية، وينتهي إلى نتائج سلبية مشوهة تصب في ميادين إحباطنا، وزيادة شدة كآبتنا وانكماشنا وتلاشينا الحضاري.

المصادر:

1. Diagnostic Criteria from DSM - IV، APA 1996، Page 161 - 163.
2. Kaplan& Sadock، Psynopsis of Psychiatry، 8th edition، 1997، page 919 - 924.

ملاحظة: هذه الكلمات مكتوبة عام 1996، وتم مراجعتها في عامي 1998 و2001 للإعداد للنشر، وبعد أن اطلع عليها عدد من الأخوة حسبوها من الأفضل أن تكون في كتاب، وأن وقت النشر لم يحن بعد، وما جرى في تونس الخضراء، أعادها للحضور، ورأيت أن أشارككم بها.

إن القراءة النفسية للحرب على العراق هي مهمة ملقاة على عاتق فروع اختصاصية متداخلة. وهي ستشغل العاملين في هذه الفروع على مدى سنوات قادمة. وعليه فإن ما نقدمه في هذه الدراسة ليس سوى مقدمة لقراءات نفسية لاحقة تنتظر ظهور معلومات جديدة عن خلفيات هذه الحرب وأسرارها وصفقاتها الخفية.

محمد أحمد النابلسي

الحرب النفسية في العراق

متابعة للجوانب النفسية في الحرب الأميركية على العراق

من المجاز اللغوي إلى المجاز التحليلي

إعداد: د. خريستو نجم

إذا كانت طريقة التحليل النفسي تهدف إلى كشف دوافع اللاوعي عند مرضى العقول، أو المضطربين عصبياً، فإن صلتها بالأدب تكون في بعض النواحي التحليلية، ومنها ما يخص عملية التحليل، أو النقل، حيث يقوم المحلل النفساني في التبصر والتدخل في الحياة النفسية للمريض، ومن خلال هذه المعالجة تتحدد مشاكل المريض بلغة الموقف التحليلي نفسه، وذلك بشكل تدريجي منتظم، لتصبح المشاكل التي يتم علاجها في عيادة المحلل غير متطابقة مع مشاكل الحياة الحقيقية بالنسبة إلى المريض. وقد يكون لها نوع من العلاقة الوهمية بمشاكل الحياة الحقيقية وفقاً لما في النص الأدبي بالنسبة إلى مادة الحياة الواقعية التي ينقلها الكاتب.

بمعنى آخر، إن "علاج الكلام" حسب تشخيصات فرويد تكمن أهميته العلاجية في عملية النقل بين المحلل والمريض، بالعمل على نقل المشاكل النفسية التي يعانيها المريض من حالة اللاوعي إلى حالة الوعي. ومن ثم يتم إلغاء علاقة التحويل أو النقل هذه في الوقت الملائم من قبل المحلل. كما وهنالك بعض الطرق الأخرى التي تشمل هذه المعالجة الكلامية، حيث بمقدور المريض أن يكتب ما يستطيع أن يتذكره من حياته، المشكلية السابقة، أو أن يتذكر أجزاء معينة يكون قد كتبها في حينها. وبالتالي يمكن صياغة هذه الكتابة وفق قصة جديدة وكاملة عن نفسها، بحيث تروي فيها المشاكل وكيفية تفسير الاضطرابات والمعالجات، ويكون المريض هو المؤلف الأول فيها.

إلا أن فرويد ينبه إلى التمييز بين عملية النقل وبين الإسقاط، لأن الأخير يختلط في الأول،

حيث تنعكس مشاعر ورغبات الفرد تجاه الآخرين، وذلك بأن يعزو ما يحمله داخلياً، وينسبه إلى غيره، إذ في عملية النقل قد ينقل المحلل، بدون وعي منه، الصراعات النفسية التي يشكو منها إلى شخص المحلل النفسي، وهذا الاختلاط يؤدي إلى مشكلة ذاتية في المحلل نفسه، مما يكون عرضة للنقل المعاكس من مشاكله الخاصة إلى المريض، ولذلك يطالب فرويد بأن يخضع كل المحللين النفسيين إلى التحليل أثناء فترة الدراسة والتدريب. لكي يدركوا عمليات لا وعيهم بدرجة قوية، فتكون لهم القدرة الكافية بالسيطرة على هذا الوضع الخطر بين النقل والإسقاط.

إن مسألة السيطرة الذاتية بالنسبة إلى المحلل النفساني يعتبرها فرويد سيادة العقل على الأنا، وسيطرة النفس على الهو. ووفق رأي فرويد، إننا نقع تحت سيطرة رغبة الإرضاء والإشباع، وكذلك تحت سيطرة الإزدراء من أي شيء يعيق، أو يحاول، إحباط هذه الرغبة. إن الـ"أنا" هي كيان مغلق قد أرهقه الواقع الخارجي، وعذبه تأنيب "الأنا العليا"، وأثقلته مطالب "الهو" ذات الطمع والنهم الشديدين. ويعتقد فرويد بأن الجنس البشري خاضع تحت نير المطالب التي لا تطاق، والتي فرضتها عليه الحضارة القائمة على كبح الرغبات وتعطيل الإشباع. إن المجتمع الحديث أصبح مستبداً في ممارسته للكبح. وعليه، فإن المجتمع أن لم يتطور ويتجاوز هذا الوضع الذي يعتمد فيه اكتفاء طبقة معينة من أعضائه على اضطهاد طبقة أخرى، فإن المضطهدين سيطورون عداءً معيناً ضد الثقافة القائمة أصلاً على كدهم وتعبهم، والتي حصتهم فيها قليلة وضئيلة، كما وأن حضارة من هذا النوع تقمعها ثورة المحرومين، كما أثبتت لنا حقائق التاريخ.

أما نظرة فرويد إلى التاريخ، فيرى أن القوة الجنسية هي التي شيدته! بيد أن هذه القوة أو الطاقة تكون حبيسة تناقض مأسوي مع دافع الموت، حيث أننا نناضل كيما نعود راجعين إلى حالة ما قبل الوعي، اللاحياة. إذ كلما تقدمنا بخطى قوية نحو الأمام نجد أنفسنا إنما نحن مدفوعين إلى الخلف دائماً. وهذا ما يعانيه الكائن البشري من سيطرة واقع الموت الرهيبة التي تفرضها عليه الأنا. وبالموت يحقق الفرد إيذاء الأنا، حيث العودة الراجعة إلى حالة ما قبل الوعي.

عموماً، فإن "لاكان" عمد لدى إعادة كتابته أفكار فرويد، إلى تحويل الأنا وفق تصور جديد سماه "مرحلة المرآة". وذلك في: تصورنا لطفل صغير يتأمل نفسه في مرآة، فإننا سنرى كيف أنه يبدأ من خلال هذا الوضع التصوري يطور الطفل الأنا (أناه)، بحيث تظهر صورة النفس الكاملة للطفل رغم أنه مازال صغيراً غير متناسق جسدياً، فإنه يرى صورته موجودة في

انعكاسها عليه في المرآة، وهي إجمالاً خيالية، إذ ليست هي حقيقة صورته الكيانية، إنها صورة غير واضحة المعالم للشخص وللشيء. وهنا يكون الطفل قد بدأ عملية تركيب وبناء محور النفس، وهذه الذات كما توحي بها مرحلة المرآة هي نرجسية لا أكثر، حيث تصل فيها الأنا إلى العثور على أنا مرتدة للنفس بواسطة شيء ما خارجي. وهذا الشيء يكون نوع ما هو جزء من النفس، ويتطابق معه. وعلى الرغم من هذا، فإنه ليس النفس ذاتها، وإنما شيء غريب. ولهذا فإن الصورة التي يراها الطفل في المرآة تكون غريبة عليه، فهو يراها نظرياً دونما أن يحسها جسدياً. وانطلاقاً من هذا المبدأ، فإن "الخيال" هو هذه المملكة من الصور التي تقوم بها عملية التطابق والتماثل ليس إلا. ومن جرائها قد نسيء فهم أنفسنا، ونخطئ التعرف عليها. فالأنا جملة وتفصيلاً هي هذه العملية النرجسية التي من خلالها ندعم شعوراً خيالياً من الشخصية المتكاملة بالعثور على شيء في الواقع الخارجي تستطيع أن تتماثل معه لا أكثر.

إن الصياغة الجديدة التي يسلكها "لاكان" في عملية الأنا الفرويدية ليست فقط في تصوره لمرحلة المرآة التي تمثل الخيالية عنده، والتي هي مرحلة ما قبل الأوديبية عند فرويد، بل إنه يعيد كتابة "عقدة أوديب" أيضاً، والتي طرحها فرويد في مفهوم اللغة، إذ حسب قول لاكان، بمقدورنا أن نعتبر الطفل الذي يتأمل نفسه في المرآة كدال، وصورته المنعكسة مدلولاً. وهنا يكون اتحاد الدال والمدلول في انسجام تام. كما هو الحال في رمز سوسور اللغوي (حيث النظر إلى كل رمز لغوي على أنه مكون من دال ومدلول). وكبديل له فإننا نستطيع أن نقرأ وضع المرآة باعتبارها نوع من المجاز، لأن الصورة التي يراها الطفل هي معنى ذاته. وعليه، فإن العنصر الواحد هنا، وهو الطفل، يكون قد اكتشف شبه نفسه في عنصر آخر، وهي الصورة المعكوسة، أو الخيال الملائم بشكل عام، دون أن تكون هنالك اختلافات بعد، حيث يقف الدال (الطفل) أمام المرآة، فيجد كياناً كاملاً في مدلول صورته المنعكسة، فالانقسامات والاختلافات بين الدال والمدلول، أو بين الشخص والعالم لم تظهر بعد، لأن الطفل في هذه الحالة يكون بعيداً عن مشاكل اللغة والوضع، كونهما غير متزامنين كما تشير إليه حالته هذه.

ويرى لاكان بأن بداية اكتشاف الطفل للاختلاف الجنسي يكون متزامناً مع اكتشافه إلى اللغة، إلا أن بكائه لا يعني بأنها إشارة لغوية، وإنما دلالة فقط. فقد يكون البكاء بسبب جوع، أو ألم، أو غير ذلك. ولكن عندما يصل الطفل إلى اللغة، فإنه يتعلم بلا وعي منه أن للرمز في الإشارة اللغوية معنى مختلفاً عن الرموز الأخرى. علاوة على أنه يتعلم أيضاً بأن الرمز يفترض مسبقاً غياب الشيء الذي يشير إليه. وهكذا تحل اللغة محل الأشياء. فكل لغة إنما

هي مجازية بطريقة ما، حيث تستبدل نفسها بشيء مباشر وصامت، لكن في الوقت الذي يتعلم فيه الطفل هذه الدروس بلا وعي منه في مجال اللغة، فإنه يتعلم كذلك، وبلا وعي منه في عالم العلاقات الجنسية، فيبدأ بإدراك ذاته على أنها تتكون من علاقاتها وفق مبدأ الاختلاف والتشابه مع الأشخاص المحيطين به. وبعد قبوله لهذا الوضع، يتحرك الطفل من سجل الخيال إلى النظام الرمزي، وهو التركيب المعطى مسبقاً للأدوار الاجتماعية والجنسية والعلاقات التي تقوم عليها العائلة والمجتمع، حيث يتم له تجاوز عقدة أوديب.

هذا، ويعتقد لاكان بأن "اللاوعي هو تركيب يشبه اللغة"، حيث إنه يعمل بالمجاز والكتابة، ويتكون كذلك من الدوال أكثر مما يتكون من الإشارات ذات المعاني الثابتة. وفي هذا الصدد يقول: "إن الإشارة القابلة للتحليل، سواء كانت طبيعية، أو مرضية، لا تكون بارزة فقط في الفهرس التشخيصي، ولكن أيضاً في أي تصور ممكن من التعبيرية الخالصة في ذلك الذي يكون مدعوماً بالتركيب، والذي هو مطابقاً إلى تركيب اللغة. وبهذا فإنني لا أعني أن التركيب يكون موضع في نفس نوع المسمى العمومية العلاماتية المرسومة من انتقالية محيطها، بل تركيب اللغة كما تكون واضحة بنفسها في اللغات التي يمكنني أن أسميها إيجابية، هذه التي هي عادة تنطقها الكينونات البشرية". (علاج الكلام، ص9، طبعة إنكليزية).

وإذا كان اللاوعي مُركب كاللغة، فإن تعريف لاكان له، بأنه عبارة عن حركة مستمرة ونشاط من الدوال التي لا يمكن بصورة، أو أخرى، أن تبلغ وتصل إلى مدلولها، لكونها مكبوته. إن اللاوعي هو انزلاق المدلولات تحت الدالات، حيث تتلاشى المعاني بشكل مستمر. وهذا ما ينطبق على حياتنا الواعية، إذ إن النص المُبهم لعمل أدبي، أو حديث كلامي، فإننا لا نقدر أن نقرأه دون أن يشمل على شيء من أسراره النهائية حول التفسير له. وعلى هذا الأساس، فإننا لا نستطيع الكلام بشكل مترابط البتة، فإذا كانت كل اللغة حاضرة أمامي عندما أتكلم، فإني لا أستطيع أن أتلفظ بوضوح أي شيء أبداً. معنى هذا أن الأنا أو الوعي بمقدوره أن يعمل، ولكن بعد كبت هذا النشاط المضطرب شريطة أن تثبت الكلمات على المعاني. وحسب تشخيص لاكان أن المعنى يكون تقريبياً دوماً، كما وأنه قريب من الخطأ. وثمة تقصير قليل يخالط فيه اللامعقول، مع ما لا يمكن تبادله في المعقول والحوار وتبادل الآراء، فالحقيقة لا يمكننا أن نوضحها بشكل مباشر، ونقي دونما أن تكون لدينا وساطة تساعدنا على بلوغ ذلك.

وعليه يركز لاكان على أن نتوصل في حياتنا اليومية إلى فهم أنفسنا كونها تكون في المستوى الخيالي إلى الأنا، التي هي وظيفة الفرد وفق حالة من التشتت، وعدم التطابق مع

ذاته، حيث تثير فيه أيضاً سلسلة من التناقضات التي تكونه. ولهذا يكون هنالك انقسام رئيسي بين هذين المستويين من الكينونة التي يعبر عنها بالإشارة إلى الذات بواسطة الكلام، فعندما أنطق بجملة ما، فإني ألفظها بشكل مفهوم مباشر. وهنا تكون الأنا هي التي قامت بعملية اللفظ أو الكلام المشار إليه. وكذلك هي التي تخص ذاتي كوني تلفظت ونطقت الجملة المعينة التي أريد بها إشارة ثابتة. ووفقاً إلى النظرية اللغوية، فإن الأنا تكون الفاعل للنطق المشار إليه في جملتي، وكذلك الأنا التي تقول الجملة، كونها هي فاعل النطق، أو العملية الحقيقية للكلام. وقد يتراءى لبعضهم بأن عملية الكلام والكتابة كأنهما شيء واحد من التوحد، إلا أن هذا التوحد هو من النوع الخيالي. وإن الكاتب أو المتكلم، وهو فاعل عملية النطق، فإنه لا يقدر أن يمثل نفسه بشكل تام في ما يقال. والسبب لأنه لا يوجد هنالك رمز لإشارة لغوية يقدر أن يوجز الكيان الكامل للمتكلم، فالإنسان بمقدوره أن يشير إلى نفسه بواسطة اللغة فقط، عبر ضمير مناسب. فالضمير "أنا" يمثل الفاعل المُبهم دائماً، وينزلق دوماً من خلال الشبكات لأي مقطع من اللغة.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن لاكان هنا يوغل أكثر من فرويد في هذا الجانب، حيث أن فريد يرى أن انزلاق المعاني تجعل هناك كلمة من اللاوعي تحشر نفسها في الكلام، مما تشكل زلة لسان، بينما يرى لاكان أن كل كلامنا هو زلة لسان، لأن عملية اللغة هي زلقة وغامضة دائماً، وبالتالي فإننا لا نعني بدقة ما نريد قوله. وفي الوقت نفسه لا نقدر أن نقول بدقة إلى ما نعني. وعلى هذا الأساس، فإن المعنى عند لاكان يكون تقريبياً من جهة، وعرضة للخطأ والمزج بين الوعي واللاوعي من جهة أخرى.

تأثير النظرية بالنقاد والفلاسفة

دون ريب، فقد أثرت طريقة التحليل النفسي على رهط من المفكرين والأدباء، منهم الفيلسوف الفرنسي لويس الثوسير (ولد في الجزائر عام 1918، وانتمى إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عام 1948، وبعد صراع حياتي انتهى به الأمر إلى مستشفى الأمراض العقلية عام 1981)، فقد اعتمد بعض الشيء في كتاباته الماركسية، لاسيما في كتابه (عقيدة الدولة: إشارات عن لينين والفلسفة ومقالات أخرى)، على نظرية لاكان، خصوصاً عند تناوله إلى تبيان وتوضيح عمل النظريات الثقافية والفكرية في المجتمع، ومدى خضوع الأفراد إلى مفاهيمها وانقيادهم إلى تحقيق أهدافها. فالنظرية العقائدية "الأيديولوجيا"، بما تحمله من أفكار ومبادئ يعتبرها الثوسير مهمة وحيوية جداً في الحياة الاجتماعية، لكنه يشخص

الأفراد على أنهم نتاج عدد من العوائل الاجتماعية المختلفة والمحددة. وبسبب ذلك، فإنها تفتقر إلى وحدة أساسية، وإذا كان من خلال العلم الاجتماعي يمكن دراسة الأفراد من هذا النوع على أنهم وظائف أو تأثيرات لهذا البناء الاجتماعي، ولهم مكان في عملية الإنتاج، فإنه على العموم ليست هذه التعريفات هي الطريقة المثلى التي نكشف بها أنفسنا. وحسب تصوره، بأن الأيديولوجيا هي التي تنتج لنا معرفة ذواتنا، كوننا نرغب أن نرى أنفسنا أحراراً متوحدين ومستقلين ومنتجين ذاتياً، وإن لم يكن لنا هذا هكذا، فإننا لن نقدر أن نحقق أدوارنا في الحياة الاجتماعية البتة.

ويقدم الثوسير رأياً خاصاً حول هذا الأمر، حيث إذا كانت القضية تتعلق تماماً بالمجتمع كونه نظاماً وبنياناً، فإنه يمكن الاستغناء عني كوني فرد، إذ سيقوم شخص ما آخر بإنجاز الوظائف التي أقوم بها من ناحية: الكتابة والتعليم وإلقاء المحاضرات وغير ذلك، طالما كانت الثقافة لها دور مهم تؤديه في إعادة إنتاج هذا النوع من النظام الاجتماعي، إلا أنه لا يوجد هنالك أي سبب يوجب أن يكون الشخص الذي أدى عملي، هو أنا نفسي. ويوجد سبب واحد لماذا هذه الفكرة لا تجعلني أن أنتسب إلى السيرك، أو أن أقوم بعمل ما مغاير. هو أن هذه ليست عادة الطريقة التي أكتشف بها نفسي، ولا الطريقة التي أعيش بها حياتي. وعليه فإني لا أشعر كوني مجرد وظيفة في نظام اجتماعي بمقدوره أن يستغني عني فعلاً. رغم أن هذا يتضح عند تحليلي للموقف، ولكن كشخص له علاقة أساسية بالمجتمع بصفة خاصة، وبالعالم بصفة عامة. كما وإن هذه العلاقة هي التي تمنحني قدراً كافياً من المعنى والقيمة في تحقيق العمل الهادف، كوني فرداً حراً ومستقلاً.

بعبارة أخرى، فإن العلاقة تجعلني أنظر إلى المجتمع، كما لو كان تركيباً لا شخصياً، بل أعتبره شخصاً يكلمني ويميزني كوني شخصاً؛ حيث يقول لي بأني مقيم ولي كياني. وبذلك تجعلني عملية الاعتراف هذه أن أشعر بذاتي الفردية، وأن أنظر إلى العالم كونه قد وجد ليكون لي وحدي. ولكن مثلما يعتمد علي بشكل أساسي، فإني في المقابل أعتمد عليه بشكل أساسي أيضاً، وهكذا. فالأيديولوجيا بكل ما تحمله من معتقدات وأفكار هي التي تخلق هذا الاعتماد ليس إلا. ولذلك فإنها أكثر ملاءمة وشمولية، فهي الوسط الذي أحيا فيه علاقتي بالمجتمع. إنها محط التجارب الاجتماعية التي تربط بين الكيان الفردي والبنيان الاجتماعي، وما يتوقف على ذلك من إحساس بالذاتية في التصرفات والسلوكية والإخلاص، وإلى آخره.

إن التوسير هنا إنما يعيد صياغة لاكان في مفهوم الخيال، ولكن وفق طريقة النظرية العقائدية؛ حيث يكون فيها التماثل والتوافق لعلاقة الفرد بالمجتمع. كما كانت للطفل في المرآة وعلاقته بصورته المعكوسة لا أكثر.

هذا وتأثر بفكرة لاكان أيضاً الحركة النسوية بفرنسا، وما قامت به الداعية جوليا كريستيفا بمناداتها إلى المساواة بين المرأة والرجل. إلا أن ما قاله لاكان في "النظام الرمزي" تنتقده جوليا، وتعترض عليه، بينما توجه نقداً أقل صوب الخيالية، أو "العلاماتية" كما تسميها. حيث تعتبرها شكلاً من أشكال القوى التي يمكن التحري عنها في عالم اللغة. كما وإنها تمثل نوعاً من بقايا ظاهرة ما قبل الأوديبية. فالطفل الوليد في مرحلة ما قبل الوعي (الأوديبية) ليس بمقدوره أن يمارس الكلام. ومع ذلك، فإننا نقدر أن نتصور جسمه قد امتزج بالدوافع اللامنتظمة، بعض الشيء، في هذه المرحلة؛ ويمكننا أن نرى هذا النوع المتناغم بشكل من أشكال اللغة، رغم أنه لا معنى محدداً له. ومادامت اللغة تتكون بهذا الشكل، لذا يجب إنهاء هذا المنشأ لكي ينضم ضمن نظام ثابت ومستقر يتم فيه كبت عملية الإشارات (العلامات) عندما يدخل النظام الرمزي. بيد أن هذا الكبت حسب رأي جوليا لا يكون شاملاً، إذ من الممكن أن نميز العلامات باعتبارها نوعاً من الضغط المتضمن داخل اللغة نفسها في: الإيقاع والنغمة والصفات الجسمية والمادية من ناحية. والتناقض واللامعنى، والغياب من ناحية أخرى.

وترى جوليا أيضاً بأن العلاماتية هي الشكل الحقيقي الآخر من اللغة، والتي ترتبط معها بقوة. وبما أنها تنشأ من ظاهرة ما قبل الأوديبية، لذا نجد أن ارتباط وصلة الطفل بأمه تكون جسدياً وبأبيه تكون رمزياً. وعليه، فإن العلاماتية بالدرجة الأساس ترتبط بقوة الأنوثة. غير إنها تكون لغة مقتصرة على النساء وحدهن، ذلك لأنها تنشأ من مرحلة ما قبل الأوديبية، وهي المرحلة التي لا يتم فيها تميز ما بين المذكر والمؤنث.

واستناداً إلى هذا التحليل، تتخذ جوليا من مبدأ اللغة العلاماتية مدقاً تطرق به النظام الرمزي عند لاكان. وفي الوقت نفسه تجعله محكاً تدقق فيه الأعمال والنصوص الأدبية عند بعض الشعراء الرمزيين في فرنسا، وغيرهم من الطليعيين الذين مزقت كتاباتهم معاني اللغة الاعتيادية، وشطرت كل المعاني الاجتماعية المقبولة. فالعلاماتية عند جوليا هي اعتراض على كل المعاني الوهمية الثابتة.

ولقد تأثر كذلك بنظرية التحليل النفسي بعض دعاة الحداثة من النقاد الأميركيين. فقد صدر في عام 1975 كتابان لكل من هارولد بلوم: "خارطة لسوء القراءة"، ونورمان هولاند:

"خمسة قُراء يقرأون". وقدم بلوم في كتابه رؤية خاصة للأدب من خلال عقدة أوديب، حيث عمل على إعادة كتابة التاريخ الأدبي انطلاقاً من هذا المنظور. وكان محور كتاباته تخص الشعراء وقصائدهم، فحسب رأي بلوم أن الشاعر يكون محجوزاً بسبب تأثير المنافسة الأوديبية مع ما سبقه في هذا الميدان، مما يجعله أن يسعى جاهداً لتجريد قوة القصيدة السالفة، وذلك بإعادة تنقيحها وترتيبها وفقاً لأصالته الخيالية، ولما يريد أن يزيح منها. وعليه، فإن مجموع كل القصائد المكتوبة يمكن قراءتها على أنها إعادة كتابة لقصائد أخرى ليس إلا.

ويذهب بلوم إلى القول بأن كل شاعر يتأثر بنمط الأعراف والتقاليد السائدة في عصره، غير أن الشاعر القوي هو الذي يعترف بذلك، ويعمل بكل شجاعة على نسف قوة سلفه. فأية قصيدة إن هي إلا نوع من هذا النسف أو التدمير. إن القصيدة هي، بالأحرى، سلسلة من الوسائل التي يمكن اعتبارها مراكز لغوية وآليات دفاع تحليل نفسي لأبطال قصيدة أخرى، والتغلب عليها لا غير. وبذا، فإن معنى القصيدة إنما يكمن في قصيدة أخرى، وبما أن بلوم يقرأ تاريخ الأدب على أنه معركة نفسية جبارة، معتمداً فيه على إرادة الشاعر فقط، كونه صاحب الصوت المتقد والمستقل الذي يعبر عن نضاله من خلال التوالد الذاتي؛ وكذلك يرى أن النقد ليس أكثر من كونه أحد أنواع الشعر، لأن الناقد مهما كان ناجحاً في عمله فإنما حقيقة الأمر برمته تعود إلى القوة البلاغية؛ لذا فإن بلوم قد خرج عن حدود نظرة جاك ديريدا، وعلى موقف زملائه: هارتمان، وميلر، وديمان، وغيرهم من مدرسة "ييل" زعيمة حركة ما بعد التركيبية.

أما الناقد هولاند فقد سار على حذو فرويد في تعقيب مبادئه. فالأعمال الأدبية حسب تصوره هي التي تُحرك في القارئ نوعاً من التفاعل في الخيال اللاوعي. وفي الوقت نفسه تُحرك دفاعات الوعي ضدها. وبذلك تجعل العمل الأدبي يكون مرغوباً وممتعاً، لأنه من خلال وسائل شكلية ملتوية تحول فيها ما تحمله من رغبات واضطرابات إلى معان مقبولة اجتماعياً. وعلى هذا الأساس، فإن أي عمل أدبي إن لم يكن هادفاً لتلطيف هذه الرغبات وفقاً لأسلوبه ولغته التي تجعلنا في سيطرة عليها، وتمكننا من الدفاع ضدها، فإنه سوف لن يكون عملاً مقبولاً قط. ولكن إذا ساند هذا العمل في ما بعد، قوة القمع عندنا فإنه سيكون مقبولاً.

على أية حال، فإن هولاند في كتابه الذي يبحث فيه ردود أفعال العقل اللاواعي، لمجموعة من قُراء الكُتب الأدبية، يروم من خلاله إلى تبيان كيفية التلاؤم الذاتي لهم أثناء عملية التفسير التي يكتشفون بواسطتها وجود وحدة مطمئنة في نفوسهم. وعليه فإن فصل حياة الفرد

عن ذاتيته الشخصية يكون أمراً ممكناً حسبما يعتقد هولاند. وبالتالي فإن قضية انفصام الشخصية في التحليل النفسي التقليدي هي التي تستحق الاهتمام والدراسة بدلاً من التركيز على وحدة الأنا الكيانية، لأن تكييف الأنا إنما يكون مع الحياة الاجتماعية بالدرجة الأساس.

تقييم عام

دون شك، فإن طريقة التحليل النفسي التي وضعها فرويد عن علاقة علم النفس بالأدب قد كشفت أكثر عن سلوكية الفرد بصفة عامة. ورغم التعديلات والتغييرات التي طرأت على مفاهيم ومبادئ هذه النظرية، إلا أن فرويد يبقى المؤسس الأول لها. ومثلما كان ألبرت آنشتاين يتداول ويتشاور مع فطاحل الرياضيات حول نظريته النسبية، فإن فرويد أيضاً قد تباحث وتشاور مع بعض معاصريه، منهم زميله كارل إبراهام، والكاتبة لوو أندرياس ـ سالومي التي برعت في التحليل النفسي في ما بعد، بل حتى الصعوبات التي لاقاها في تباين زملائه: أدلر، ستكيل، جونغ، قد كانت مفيدة كذلك في تبلور نظريته النفسانية.

ورغم القفزة التي أحدثتها هذه النظرية، إلا أنها لم تحفل بالجانب الديني إطلاقاً. ربما لأن "فرويد قد رفض الطقوس والتقاليد اليهودية باستمرار طيلة حياته"، أو لأنه لم يكترث بالماورائيات، لكونه ينظر إلى الواقع من خلال الحياة النفسية. وفي كل الأحوال، فإن تشخيصاته إلى "العُصاب"، وتركيزه على أن "الكبت"، بأنها المحور، أو الحافز، في أعمالنا النظرية والعملية. وكذلك قوله إلى أن "الطاقة الجنسية" هي القوة التي تبني التاريخ، فإن هذه المفاهيم قد أثبتت بطلانها، بل جعلت فرويد عرضة للهجوم دائماً، لأن الشهداء والمتصوفين والثوريين لا تحركهم القيم الجنسية بتاتاً. فالتضحية والفداء والعبادة والعشق الإلهي وغيرها، هي من القيم الروحية التي تحركها عوامل الإيمان فقط. وعليه، فإن قيام الحضارات الإنسانية واختلاف الثقافات لا ترتبط في الكبت الجنسي، ولا بتحويل الغرائز نحو هدف نبيل كما أشار فرويد. وإلا كيف نفسر ما قد ألمحنا إليه!

إن فرويد حاول في القضايا التي أسماها: النرجسية وعقد أوديب واللاوعي والنقل المعاكس في العلاج الطبي النفسي، أن يظهر تقدمه العلمي في مواكبة القرن العشرين، إلا أن تحليلاته بشكل عام بقت تعكس عقلية قرن التاسع عشر. بيد أن هذا لا يمنع من القول بأن تشخيصاته العلمية إلى العقل اللاواعي الذي يبرهن من نفسه في الأحلام، قد أحسن فيه. كما وأن تركيزه على طبيعة الأحلام وتفسيرها وفق ما يشمل الأعمال الأدبية، على اعتبار أن الأولى

تعمل بدون جهد مقصود، بينما الثانية عكسها؛ لذا فإن العمل الأدبي يكون إلى حد ما شبيهاً بالمزاج مما هو بالأحلام، فإن فرويد هنا أراد توضيح الاتساق والتماسك والتركيب في حل الالتباس والغموض في ما بينهما، وهو بذلك قد ساعد القارئ كثيراً على تفهم النصوص الأدبية المعقدة.

ومثلما عمل وليم جيمس على تهذيب وصياغة أفكار تشارلز بيرس الفلسفية، فإن لاكان عمد إلى إعادة صقل أفكار فرويد النفسية، حيث جعلها أكثر قبولاً في حضارة القرن العشرين عندما صاغ طريقة التحليل النفسي على ضوء البنيوية وما بعد البنيوية في المفاهيم اللغوية الجديدة السائدة. وبما أن اهتمامات لاكان كانت منصبة على اللغة بدرجة كبيرة، لذا لا غرابة إنْ أخذ عن سوسور وجاكوبسون بعض الشيء. وهو بذلك يعتبر العامل الرئيس في تطوير علاقة علم النفس بالأدب. بيد أن تشديد لاكان على أن تركيب اللاوعي يشبه تركيب اللغة، قد بالغ فيه حينما جعل اللغة في عملية انزلاق المعاني واختفائها تنطبق على حياتنا الواعية، وبالتالي فإن كل كلامنا وحديثنا يكون عبارة عن زلة لسان، لأن المعنى يكون تقريبياً دائماً، حسب مفهومه. وليت لاكان قد وقف عند حدود فرويد المعقولة تجاه هذا الأمر.

أما "الخيالية" و"مرحلة المرآة" فإن لاكان قد نظر فيها إلى الأنا بعقلية الفرويدي المتطور الذي تمكن من تحديد الصور بدقة وفق عملية التطابق والتماثل للكيان الفردي الذاتي، وما يتعلق بها بين الشخص والعالم، وبين الدالات والمدلولات في النظام الرمزي. ولكن اللغة ليست "فارغة" بسبب عمليات التباين والفقدان اللانهائية. وإذا كانت اللغة هي تجزيء إلى الكمال الخيالي، فهذا ما يخص تفكير لاكان نفسه، إذ على الجملة ليس شرطاً أن تكون اللغة هي كذلك، ثم إذا كان الدخول إلى عالم اللغة معناه الانفصال عن الواقع، فإن لاكان هنا إنما يريد تشخيص الجانب "الآخر" الذي يرى فيه وجود العلاقات اللغوية والجنسية والاجتماعية. في حين أن لاكان لم يعر ذلك الاهتمام الرئيسي تجاه الصلات الاجتماعية، بل ولم يطرح حلاً جذرياً لمشكلة العلاقة القائمة بين الواقع والعقل الباطني، أو المجتمع واللاوعي.

على أية حال، فإن الثوسير، الذي أعطى جل اهتمامه إلى "الأيديولوجيا" كونها هي التي تسمح لنا بأن نكتشف أنفسنا، معتمداً على نظرية لاكان في علاقة الفرد بالمجتمع. فرغم إنه يعيد صياغة لاكان في مفهوم الخيالية، إلا أن الثوسير ذهب حداً بعيداً بموقفه، مما جعل نظريته تحتوي على تفسيرات خاطئة، فالفرد حسب تصوره هو وظيفة لا مركزية لعوامل اجتماعية عدة، ومن جراء هذا الخضوع يشعر بوجوده المستقل، أي أن الثوسير يشخص: الطفل في المرآة، وعلاقته بصورته المنعكسة، على أنه توحد زائف ليس من الحقيقة الواقعية بشيء.

وهو بذلك إنما يجعل من الأيديولوجيا قوة تسلطية مستبدة نخضع لها عنوة، والأمر هنا برمته يكون بعيداً عن نطاق دائرة التحليل النفسي.

ومع هذا، فإن التوسير قد تمكن في محاولته إلى إظهار أن بعض القضايا التي تناولها لاكان توجب معالجتنا لها بشكل اجتماعي، وليس نفساني فردي. وكما قال: إن العلاقة تجعلني أن أنظر إلى المجتمع كما لو كان تركيباً لا شخصياً، . بل أعتبره شخصي يكلمني ويميزني باعتباري شخصاً.

أما اعتراضات جوليا على النظام الرمزي عند لاكان، لأن الأخير يرى أن النظام الجنسي الأبوي والاجتماعي يسيطر عليه قانون الذكر - الأب، فمن الطبيعي أن تثير ضده هذه الانتقادات، كونها من دعاة المساواة بين المرأة والرجل، بينما تخفيف حدة نقدها حيال الخيال، معتبرة إياه شكلاً من أشكال القوى التي تمكننا أن نتحرى عنها في عالم اللغة، فإن غايتها تنحصر في إعادة الكرة إلى ساحة الأنثى - الأم، لأن العلاماتية حسب تصورها هي الوجه الآخر من اللغة، وإنها تتبع من ظاهرة ما قبل الأوديبية. وبذا فإنها ترتبط باتصال الطفل - الوليد، الذي لا يستطيع الكلام - بجسم أمه. وهكذا تفصل جوليا بين حالة العلاماتية كونها ترتبط بقوة الأنوثة، وبين حالة الرمزي، كونه يرتبط بالقانون الأبوي. رغم أنها تعترف بعدم حصر هذه اللغة في جانب النساء فقط.

بالاختصار أن جوليا أرادت من اللغة العلاماتية أن تنسف النظام الرمزي عند لاكان، وتنتقد الشعراء الرمزيين والطليعيين، هادفة من كل ذلك إلى تلاشي الاختلافات بين المذكر والمؤنث، وكذلك كل التضادات الثنائية: ملائم - غير ملائم، قاعدة - انحراف، لي - لك.. إلخ من الثنائيات التي يحيا المجتمع، ولكن هذا التدمير يخلق إرباكاً سببه العلاماتية نفسها التي عولت عليها جوليا كثيراً.

وعن النقاد الأميركيين في مدرسة "ييل" زعيمة اللابنيوية، فإن بلوم الذي وظف طريقة فرويد في مجاله الأدبي، فإنه يلوم إلى مجابهة الخط التقليدي المتبع في النظرية الأدبية. لكنه بالغ عندما حصر قراءة تاريخ الأدب على أنه معركة بطولية تعتمد على إرادة الشاعر وحده، بينما زملائه هارتمان وديمان وميلر فقد ساروا على خطى ديريدا الأكثر اتزاناً في نقدهم لهذه القضية.

أما هولاند الذي سلك أيضاً طريقة فرويد، غير أن تركيزه على انفصام الشخصية كونها الأكثر صواباً من وحدة الأنا في التحليل النفسي، باعتبارها تتكيف مع الحياة الاجتماعية؛ بدليل اختلاف القرّاء في تفسير الكُتب الأدبية، بينما توجد فيهم وحدة مطمئنة يكتشفونها

من خلال عملية التفسير، فإنه هنا إنما يقدم دفعة جديدة في طريقة الكتابة والمعالجة للشخصية في حياة الفرد ليس إلا. أضف إلى ذلك إنه عاد إلى مفاهيم النقدية التقليدية منذ العام 2006، حيث دمج بين عمله المميز في النقد القائم على أجوبة القُراء والتحليل للأفلام السينمائية التقليدية.

الحاضر الغائب[1]
هل الهاتف النقال وسيلة للتقارب الإنساني

كينيث غيرغن[2]
Kenneth Gergen
ترجمة: أ.د. سامر جميل رضوان[3]

تغير وسائل الإعلام واقعنا وعلاقاتنا: فنحن نعيش بشكل متزايد في عالم هو في الحقيقة "في مكان آخر"، فالتلفزيون والراديو والفيديو والكمبيوتر والإيميل والإنترنت يقربون منا الغياب والغائبين، ويعمون عن الواقع المباشر. وبالنسبة لعالم النفس والفيلسوف الاجتماعي كينيث غيرغن، لا يوجد إلا بديل واحد فقط: النقال التواصلي الحقيقي.

---

1 العنوان الأصلي للمقال: Die gegenwart des Abwesenden: ist Handy ein Medium fuer menschliche Naehe: Psychology Heute August 2000, 36 . 40

2 Kenneth Gergen: أستاذ علم النفس في كلية سوارثمور Swarthmore College و عضو مجلس إدارة الجمعية الأميركية للفلسفة وعلم النفس. حظي غيرغن في تسعينيات القرن العشرين بالشهرة العالمية من خلال نموذجه حول "الذات متعددة العقول multi phrene Self": وطبقاً لذلك فإنسان ما بعد الحداثة يواجَه بفيض من الأفكار والأدوار والاتصالات وأنماط الحياة، بحيث أن الجوهر التقليدي لهوية ثابتة للأنا يتحلل باطراد إلى "ذات علائقية" من النوع المشكالي (المِشْكال: أداة تحتوي على قطع متحرِّكة من الزجاج الملوَّن ما أن تتغيّر أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسيّة المختلفة الألوان \المترجم\). من أعماله: الذات الفائضة، ومشكلات الهوية في الحياة الراهنة. عنوانه على الانترنت: www.swathmore.edu/soc/sci/kgergen1/

3 Srudwan@hotmail.com
www.de.geocities.com/psychoarab/

تدخل طالبة غرفة زميلاتها في سكن الطالبات لتتسامر معهن، إلا أن زميلاتها مشغولات: فواحدة تقرأ كتاباً، وأخرى تسمع الموسيقى بسماعات فوق الرأس، وثالثة تتصفح مجلة، والرابعة منشغلة بالكمبيوتر، فتخرج خائبة.

إنه موقف نعرفه جميعنا، بهذا أو ذاك الشكل: إذ على الرغم من الوجود الجسدي للأصدقاء، والأسرة والزملاء، إلا أن اهتمامهم موجود في عالم آخر. وعلى الرغم من أننا موجودون هنا، إلا أنهم غير مدركين وجودنا، "فحضور الغائب" أقصانا. فمن خلال وسائل معلومات واتصالات القرن الماضي أصبحنا ننسحب باطراد إلى عالم موجود في "مكان آخر". فالتلفزيون الشغّال، والكمبيوتر، أو الحديث التليفوني، أو الإيميل، يحدد واقعنا، هذا الواقع الذي أصبح فيه تواصلنا مع الحاضرين يقل باطراد.

بدأ التطور عند اختراع حروف الطباعة، الذي يعد من الناحية الثقافية واحداً من التغيرات الثورية في الألفي سنة الماضية. ومن أجل فهم هذا علينا أن نستحضر الأصل الاجتماعي للغة، ووظائفها الاجتماعية: فقد أنجزت في كل مجتمع إنساني الأسس من أجل التمكن من التوجه والتصرف في العالم. فبدون اللغة لا يوجد علم ولا قيم: ففيها تنشأ المؤسسات والتقاليد الاجتماعية، وكذلك قواعد الحياة اليومية، فنحن لا نستطيع تنسيق تصرفاتنا مع بعضنا إلا بطريقة لفظية. ولا يمكننا التعرف على العالم وعلى أنفسنا إلا من خلال اللغة.

وطالما تلح أصوات خارجية في المجتمع، نكاد نكون غير قادرين على التشكيك بالقوانين والآراء. فإذا ما كان الجميع مقتنعون بأن الأرض مسطحة، فإنه من غير المجدي للفرد التشكيك بأنها كروية. لهذا كان حرف الطباعة ثورياً، وغالباً ما كانت الكتب حصان طروادة: فمن خلالها أمكن لأصوات التسلل من البعيد: من عوالم "غائبة"، وجعلت ما يبدو بديهياً مشكوكاً فيه. وتوضح عمليات حرق الكتب والرقابة عليها بأن التقليديين والمستبدين كانوا مدركين دائماً للطاقة الثورية للمطبوع بالنسبة لعالمهم. ولكن حتى لو كانت لطباعة الكتاب نتائج واسعة إلا أنها كانت مجرد الخطوة الأولى. فالتطور نحو ثقافة مسيطرة "للحاضر الغائب" لم تأخذ مداها الكامل عبر وسائل إعلام القرن العشرين: فإلى جانب الكتب، أو الجرائد، كان بشكل خاص الراديو والتليفون والأفلام والتلفزيون والهاتف النقال والكمبيوتر وتقنية الإيميل، التي أتاحت التواصل متجاوزة حدود المكان والزمان التقليدية.

وعلينا هنا التمييز بين وسائل الإعلام الأحادية monologue، والحوارية dialogue، فالراديو والتلفزيون أو ناقلات الصوت، كشرائط التسجيل، والأسطوانات الليزرية، هي

وسائط أحادية: إذ على الرغم من أنها تمدنا بالمعلومات من "الخارج"، إلا أن رسالتها غير شخصية، فنحن نكاد لا نستطيع الاستجابة لها مباشرة، أو نعارضها، إلا أن القناعات الراسخة لا تتغير إلا من خلال النقاش، وأصوات الوسائط الأحادية تظل على الأغلب بعيدة خطوة عن جمهورها، وأحياناً يتم إغلاقها لأنها تسبب التشويش في الخلفية.

ومع هذا، فإن التأثير الاجتماعي لهذه الوسائط قد تبدل في السنوات الأخيرة بشكل جوهري، فقد كان التلفزيون في السابق "مناسبة اجتماعية" تجتمع حولها الأسرة كلها، لمتابعة البرامج المقتصرة على قليل من الأقنية، ومناقشة البرامج بعد ذلك، أو في اليوم التالي، في العمل، أو المدرسة. فجاءت التلفزيونات الخاصة بعشرات الأقنية التي جعلت خبرات التلفزيون الجماعية غير ممكنة إلى حد كبير، واليوم يوجد في البيوت أجهزة عدة، ويستطيع كل واحد أن يشاهد في غرفته فيلم فيديو لوحده. وكذلك يسهم الولكمان والأقنية المحلية في الراديو في أننا نفردن Individualize أنفسنا باطراد، كمستهلكين لوسائل الإعلام الأحادية.

في المقابل، يعتبر التليفون والكمبيوتر والهاتف النقال والإنترنت والإيميل وسائط حوارية، لأنها تعمل "على جانبين"، أو بشكل تفاعلي. وعلى عكس الوسائط الأحادية، فإننا نستطيع من خلال الوسائط الحوارية تشكيل علاقاتنا بالعالم الغائب بشكل أكثر مباشرية، ونولفه وفق حاجاتنا. وعليه، يقتحم الإنترنت بشكل خاص الحاضر المباشر، ويوسع تأثير الغائب والغياب: ففي شبكة الإنترنت العالمية World Wide Web تصل لوعينا في كل وقت أصوات بعيدة، ونستطيع أنفسنا القيام باتصال بأشخاص من العالم كله، حيث ينمي الإيميل وغرف المحادثة الارتباط.

عموماً، فقد غيرت وسائل الاتصال عن بعد الأحادية والحوارية حياتنا بشكل مأساوي. ومن أجل إعطاء لمحة، سأحلل التأثيرات النفسية الاجتماعية الأربعة الأهم: ما يسمى "الغراميات الخطرة"، و"عمق العلاقة"، و"بشر دون خصائص"، و"عوالم في تبدل مستمر".

في القصة الفرنسية المشهورة بعنوان "غراميات خطرة"، من القرن الثامن عشر، يبرم محبان ميثاقاً مفاده أن يصارحا بعضيهما بكل الرغبات والشهوات السرية، ويساعدان بعضيهما على تحقيقها. ومع كل غواية، يسمحان بها لبعضيهما فيها، يعرضان علاقتهما للخطر. وبمعنى قريب جداً، يمكننا أن نفهم تواصلنا عن بعد مع الغائبين بأنه "غراميات خطرة".

وعليه، فنحن نحقق من خلال الراديو والكتب والتلفزيون والإنترنت كثيراً من الأفكار والخيال والرغبات التي تعرض العلاقات الإنسانية الحقيقية للخطر. فاهتمامنا مصروف دائماً عن محيطنا الاجتماعي المباشر: وكلما أنصتنا لأصوات من "البعيد" بشكل أكثف ابتعدنا

أكثر عن الحاضر، مع خطر عدم القدرة على مواجهة متطلباته ومشكلاته.

والإنترنت بشكل خاص يتيح أطر إحساس جديدة، صحيح أنها منسجمة مع العالم الحقيقي، إلا أنها يمكنها في الغالب أن تكون مناقضة له. وعليه، تفقد بشكل خاص الأسر والأزواج والأصدقاء أهميتها، وذلك عندما لا يبحث المرء إلا في مجتمعه السبراني[4] عن التبادل والاستثارة التواصلية، وتصبح أغوار عالم السبرانية أكثر ظلمة، من خلال دفنها للقيم الأخلاقية للعالم الحقيقي، كما تظهر الأمثلة القارعة للخطر لإباحية الأطفال، أو الانتحارات الجماعية لحركة "بوابة الجنة Heaven's Gate".

إلا أنه علينا إلا نطرح سيناريوهات متشائمة جداً، فمازال من غير الواضح إلى أي مدى، وضمن أية ظروف، يسرق عالم الوسائط الافتراضي شخص ما كلية. وفي الوقت نفسه تنمي كثيراً من المجتمعات السبرانية القرب الإنساني التواصلي، عندما يقوم على سبيل المثال المعوقون، أو السجناء، أو كبار السن، بالتواصل عبر الإنترنت مع الآخرين.

في العالم الغربي، تولى تقليدياً العلاقات العميقة أهمية كبيرة: فبالنسبة لكثير من الناس لا يمكن تصور وجود حياة سعيدة وغنية دون رابطة وثيقة وعميقة. ويمكن تصنيف العلاقات البين إنسانية على محور عمودي وأفقي، العلاقات العميقة عمودياً والعلاقات السطحية أفقياً. ومن الناحية النفسية يعكس هذان المحوران الخبرات الراهنة: إذ تتطلب العلاقات العميقة الاهتمام والسعي والتضحية. ومن يتمكن من الاقتراب من ذلك فإنه ليس بحاجة على الأغلب للبحث عن معارف كثر. وفي المقابل، فمن يقيم علاقات سطحية واسعة، فإنه لا يملك الوقت والطاقة للعمق.

والتأثير المتزايد للفائب ينمي العلاقات الأفقية، ويكبح العلاقات العمودية: وبما أن الوسائط توسع طيف العلاقات، الفعلية منها أو الوهمية، فإنها بالتالي تضيِّق من عمقها. وهكذا تحل على سبيل المثال المحطات الرياضية عند بعض الناس محل الرفقة الحقيقية، التي ربما كان المرء في السابق يمارس معها الرياضة بالفعل، أو كان يذهب معها للملعب، وكثير من المراهقين يعتبرون عن سوء فهم نجوم المسلسلات أصدقاء مقربين لهم. وفي الإنترنت، يمكن لشبكة العلاقات الأفقية أن تنمو عملياً دون حدود: فمن يبحر في الإنترنت يستطيع أن يقيم كماً كبيراً من العلاقات، سواء كانت أقصر أم أطول، من الاتصال السطحي في غرف المحادثة إلى "العلاقات الغرامية السبرانية".

---

[4] Cyberanic: علم الضبط

تواجهنا رواية "القرن" لروبرت موسيل Rober Musil، الرجل دون خصائص بمجتمع من البشر دون سمات، أو دون شخصيات حقيقية. وعلى الرغم من أنه لم يتمكن في بداية القرن العشرين من معرفة ثورة الوسائط بتوسيعها الراهن للغائب، إلا أن موسيل كان متنبئاً بأن الوسائط ستدفن هوية الإنسان.

فالعلاقات البين إنسانية تعتبر أساساً لنمو هوية الإنسان: فمن نحن حتى لا نخبرها إلا في المواجهة الحقيقية مع الآخرين دائماً، ولا نستطيع تنمية صورة متماسكة إلى حد ما لشخصيتنا إلا ضمن جماعة اجتماعية إنسانية. في المقابل، فإنه في عالم خبرة وعلاقات وسائطنا، فإننا نرسم باستمرار متكرر ذات "غائبة" جديدة. وسواء نكتشف هنا السيد ريبلي Mr. Ripley، أو سكارليت أوهارا، Scarlett O'Hara، أم أدوار الأبطال لكثير من ألعاب الكمبيوتر والفيديو، فكلما تعمقنا أكثر في هذه العلاقات الافتراضية ازدادت الهوية الذاتية هشاشة.

وتقدم الإنترنت بشكل خاص كثير من الإمكانات لتبني هوية جديدة: صفحات الدعارة وغرف المحادثة واتصالات الإيميل تدعونا للتجريب بالإجابة عن السؤال "من أنا بالفعل، إلا أنه باطراد يصبح أصعب لأن أساسها البين إنساني مفقود على الغالب. ومع ذلك، فالوسائط تدل في كل الأحوال على طرق في مجتمع تصبح فيه الهوية الشخصية أكثر تعلقاً بالموقف وأكثر صدفة.

فمن وجهة نظر علم النفس الاجتماعي، تقود الوسائط بحاضرها الآخر الغائب إلى إضعاف متنوع: للعشيرة التواصلية، أو للذات، أو للشخصية، ولعمق العلاقات المعنية.

كما أن تقنية التواصل والمعلومات قد مهدت لتطور يمكن تسميته "عالم في تحول مستمر": فباستمرار تخلق الوسائط واقعاً جديداً، أو مختلفاً، ولكنه غائب دائماً. ومن أجل فهم هذا فإنه من المفيد التمييز كما هو الحال في اللغة بين المستويات الملموسة والمجردة. وعليه، فنحن يمكننا لغوياً الاستناد إلى تصرفات وأهداف عملية كلية مباشرة، على نحو عندما نسأل عن الوقت، أو نطلب من شخص أن يناولنا علبة السكر، أو عندما نسأل شريكنا عن مفاتيح السيارة. إلا أننا غالباً ما نتواصل حول سياقات شديدة التجريد: فنحن نتناقش على سبيل المثال حول "العولمة"، أو التطور الاجتماعي التاريخي للأقليات، أو للأغاني الشعبية.

وكلما كانت مثل هذه الظواهر أكثر تجريداً، ابتعدنا أكثر عن التصرفات الملموسة لواقعنا المباشر، ونتحرك في عالم من المعاني "المطاطة". وتنمي الوسائط هذا التجريد بطريقة لا يمكن تصورها حتى الآن، فسواء كنا نقرأ كتاباً، أو نتابع في التلفزيون نقلاً لمباراة، أو

نشاهد فيلماً، أو نتمزق من العروض في الإنترنت: فإننا نعيش أكثر، أو أقل بشكل مكثف في "عالم مليء بالروعة"، كما قال غوي ديبورد Guy Debord، في عالم انتقده جان بودر Jean Baudrillard، على أية حال بأنه مفرط الواقعية hyper real: فكلما تحدد واقعنا أكثر بعوالم من المعاني المطاطة الأخرى الغائبة هذه أصبحت الحياة اليومية أكثر إشكالية، بل حتى أكثر وهمية. فعندما يتم خلق على سبيل المثال في الإيميل لغة، خاصة من أجل التباحث بمواضيع بعيدة كلية عن الحياة اليومية، فإنه يمكننا أن نقارن هذا مع فلسفة أخلاق بعيدة عن الواقع، تنتهي في نقاشات أكاديمية، بحيث أن مفاهيمها تكاد لا تكون لها علاقة مع المشكلات الأخلاقية للحياة اليومية، أو حتى ليس لها علاقة على الإطلاق.

ولتوضيح هذا، يمكن القول إن عالم الوسائط وأطر معانيها وأفعالها المطاطة تغربنا عن واقع الحياة. وبصورة شبيهة تندثر قدرتنا العملية وكفاءاتنا التواصلية البين إنسانية، وذلك عندما لا نفكر ولا نتكلم إلا بشكل مجرد فقط، فإن "الواقع المفرط" للوسائط يقلل من قيمة حضورنا في العالم الواقعي، ففي وقت ما تصبح متابعة حرب النجوم السيرانية، أو ألعاب افتراضية أخرى أكثر أهمية وجذباً من الانشغال بأمور "مملة"، كالتسوق، أو دفع الضرائب، أو الالتزام المهني، أو تربية الأولاد.

في تحليل تحول ثقافة "الحاضر الغائب" من خلال الوسائط ظل التليفون لأسباب وجيهة حتى الآن مستثنياً. فعندما تم إدخال التليفون في بداية القرن العشرين، اتسع في البداية التواصل المباشر وجهاً لوجه: فاستطاعت الأسرة، أو الجيران، أو الزملاء، التواصل مع بعضهم، حتى عندما لم يكونوا قريبين جسدياً من بعضهم.

وبالطبع، فقد تطلب التليفون من الإنسان أن يصرف انتباهه عن المحيط المباشر، إلا أنه على عكس محتويات الوسائط المحددة من الخارج للراديو، أو التلفزيون، استخدم المرء التليفون بشكل موجه من الداخل، واهتم "بالغائبين" من المحيط الاجتماعي المباشر.

أما اليوم، فقد تغيرت وظيفة التليفون: فالوسيط الحواري الذي كان موجها في السابق من الداخل جعل البعيد وغير المعروف يقتحمنا. ويرجع ذلك إلى أن التليفون أصبح يستخدم لأغراض تجارية، أصبحت المكالمات الخارجية أرخص، وأصبح الحصول على أرقام التليفونات سهلاً. وعليه، نحصل على اتصالات من أية أمكنة، واتصالات من زملاء عابرين من نحو "لقد تقابلنا قبل سنة في مؤتمر"، أو "ابنتك متزوجة بابن أحد أصدقائي". وينعكس هذا التطور في الوظيفة المتغيرة للمجيب الآلي: فإذا كانت وظيفته في الماضي أن يقوم بتسجيل كل أخبار حبنا، فهو اليوم يستخدم كمصفاة للاتصالات غير المرغوبة.

في المقابل، فإن الهاتف النقال له تأثيرات تواصلية مختلفة: إنه ينمي، في عالم تحول إلى نقال، علاقات أشخاص قريبين من بعضهم إلى درجة أن التواصل وجهاً لوجه قد "عاد للحياة ثانية". فعبر الهاتف النقال يستطيع الأقرباء والأصدقاء والزملاء الاتصال باستمرار ببعضهم. وفي الوقت نفسه، علينا أن نختار، وأن نفكر بدقة من يستطيع في أي وقت، وكل مكان أن "يحصلنا" مستخدمو الهاتف النقال يشكلون نوعاً من الدوائر الداخلية يضمن فقط لأشخاص محددين فقط الدخول.

ويوضح رفض المحيط المتكرر لمستخدم الهاتف النقال مدى شدة تقوية الهاتف النقال للارتباط بالأشخاص المقربين. فالمحيطون لا يتوترون لمجرد أنه قد تم التشويش على جلستهم فقط، بل إن مكالمة الهاتف النقال تبني "مجالاً داخلياً" ينفصل فيه الشخص المعني عن محيطه، لهذا غالباً ما نستجيب بحساسية عندما يكون مستخدم الهاتف النقال قريباً منا: فعلى الرغم من أننا نكون معه، إلا أننا نشعر بأننا أثناء المكالمة مستبعدون.

وبما أن مستخدم الهاتف النقال يتواصل مع عدد قليل من الأشخاص المنتقين، تزداد العلاقات العمودية الأعمق أهمية: فمستخدمي الهاتف النقال يقضون الوقت مع الذي يكون على هواهم. ومن هنا، وعلى عكس الوسائط الأخرى، تنمي الهواتف النقالة الهوية الشخصية، والقيم الأخلاقية: فكل مكالمة هاتفية نقالة تفعّل حقوقنا وواجباتنا، التي نمتلكها تجاه الآخرين. فرب أناس في البداية كانوا متفاخرين بهاتفهم النقال سرعان ما أصبح مزعجاً لهم، لأن إمكانية إيجاد الشخص في أي لحظة تجعله يشعر "بالإرهاق".

وكما هو الحال في الوسائط الأخرى، فإن الهواتف النقالة تصرف الاهتمام بالحاضر المباشر: فالمشاة ورواد المطاعم وسائقو السيارات المتهاتفين لا يستطيعون إعطاء انتباههم الكامل لمحيطهم. فمنذ فترة تم إلقاء القبض على شخص، لأنه كان يقود سيارته بقدميه، ويحمل هاتفين نقالين بيديه في الوقت نفسه، بالإضافة إلى ذلك تستطيع الهواتف النقالة دمج الغائبين في الحاضر بطريقة جديدة.

فقد كنت منذ فترة وجيزة شاهداً على الكيفية التي كانت تتناقش فيها مراهقة مع والديها، حول إلى متى سيسمح لها البقاء خارج المنزل، فقد قامت الفتاة بسحب الهاتف النقال والاتصال بصديقاتها اللواتي أهلهن أكثر تسامحاً، والنقاش سارّ في اتجاه جديد.

وفي موقف آخر، رن جرس الهاتف النقال لسيدة كانت تنتظر بالدور في محل للشراء. ومن المحادثة يمكن الاستنتاج بأن أحد معارفها قد توفي. وما كادت المكالمة تنتهي حتى التفت إليها أحدهم في الصف معزياً لها لموت الرجل الذي يعرفه هو أيضاً، فتدخلت محاسبة الصندوق

قائلة إنها قد قرأت الخبر في جريدة الصباح.

يؤثر الهاتف النقال بشكل معاكس للتغيرات الثقافية للحاضر الغائب لوسائط القرن العشرين مباشرة: فبما أنه ينمي العلاقات العميقة ومعنى الجماعة والهوية والقيم الأخلاقية، علينا أن نرحب باستخدام الهواتف النقالة. إنها تقرب الأمل بأن أشكال التواصل التقليدية والمهمة نفسياً ستصمد حتى في عصر الوسائط.

مسيرة العلوم النفسية
في الوطن العربي وآفاق تطويرها

د. نزار عيون السود

مقدمة: مراحل تطور العلوم النفسية

يقول هيرمان إبنغهاوس، عالم النفس الألماني: "إن لعلم النفس ماضٍ سحيق، لكن تاريخه قصير جداً". ويقصد بذلك أن أفكار علم النفس ومواضيعه قد طرحت وعولجت منذ أقدم العصور، لكن هذا العلم لم يصبح علماً مستقلاً، له منهجه العلمي الخاص، وطرائق بحثه الخاصة، إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر". ويمكننا تقسيم مراحل تطور علم النفس إلى ثلاثة أطوار:

1. الطور ما قبل العلمي:

وهو أطول هذه الأطوار، وفيه كانت الأفكار النفسية تنحصر في ملاحظات الأفراد لسلوك الإنسان وأحاسيسه وانفعالاته وعواطفه، وتضمينها في القصص والأسفار والخرافات والأساطير والكتابات المختلفة التي وصلتنا من حضارات الإنسان القديم قبل الميلاد، في وادي النيل، ووادي الرافدين، وسوريا القديمة، وفي حضارات الشرق الأقصى، وغيرها من الحضارات القديمة. وقد تجسدت هذه الأفكار والملاحظات في ملاحم وقصص وأناشيد وصلت إلينا من هذه الحضارات، ومن أشهرها "أغاني أورفيست" الفرعونية القديمة، وقصة "فتح جويا"، ومسرحية "دعوة سيث"، التي تبين أن سكان وادي النيل قد وظفوا المسرح توظيفاً نفسياً، لحفز الجماهير وإثارة مشاعرهم. كما تجلت هذه الأفكار والملاحظات في "وصايا شورويباك لابنه زياسودرا"، التي تدل على اهتمام شعوب ما بين النهرين وسوريا بمسائل التربية

والسلوك. وتعد "ملحمة غلغامش"، وهي أعظم أثر ملحمي ميثولوجي، من أهم الآثار وأغناها بالأفكار النفسية والاجتماعية، وفي مجال المعرفة العلمية كان المصريون القدماء أول من عرف أثر الدماغ هو مركز العقل، وهو الموجه للجسم [10 ص 18، 19].

2. الطور ما قبل المنهجي:

هنا لم يقتصر الإنسان على ملاحظة الأفكار النفسية ووصفها، بل حاول دراستها وتفسيرها، رغم ضآلة معلوماته. وبرزت الأفكار والمسائل النفسية في هذا الطور في شأن أعمال ومؤلفات المفكرين القدماء في الطبيعة والطب والتشريح. واستمر هذا الطور منذ الحضارة الإغريقية القديمة إلى أوائل القرن السابع عشر. وهنا أبرز من عالج المسائل النفسية عند الإغريق:

أفلاطون، الذي اعتبر النفس ذات طبيعة روحانية، وأنها خالدة بعد فناء الجسد، وقسمها إلى النفس العاقلة والنفس الغاضبة والنفس الشهوانية، ورأى أن النفس هي التي تحرك الجسد. وكان أرسطو الملقب بالمعلم الأول، أعظم مفكري الإغريق في مجال علم النفس، وقد عده العلماء المؤسس الأول لعلم النفس. فقد وضع كثيراً من المؤلفات النفسية، وأشهرها كتابه "في النفس"، وابتدع منهجاً علمياً، وطرح كثيراً من الأفكار النفسية، وطور أفكار أفلاطون حول النفس ومراتبها، وقال بوحدة النفس والجسد، كما بحث مواضيع التفكير والسلوك والجماعات والتفاعل الاجتماعي، وغيرها من المسائل النفسية المهمة (ص 34، 35). كما ساهم الرومان في تطوير الأفكار النفسية، وبرز في هذا المجال الطبيب جالينوس (القرن الثاني قبل الميلاد)، حيث ألف كتباً ورسائل طبية عديدة أجمل فيها المعارف الطبية والنفسية، وأغنى الأفكار حول الأساس الفيزيولوجي للنفس، واقترب من الوصول إلى مفهوم الشعور.

وفي عصر الدولة العربية - الإسلامية، التي استمرت من القرن السادس إلى القرن الرابع عشر للميلاد، طور العلماء العرب والمسلمون الأفكار النفسية التي اقتبسوها عن الثقافات السابقة، وأغنوها بأفكار ومواضيع وأطروحات جيدة. ومن أبرز هؤلاء العلماء في مجال النفس: أبو نصر الفارابي (870 - 950 م)، الذي عالج في كتبه مسائل نفسية عديدة كمراتب النفس والسلوك والشخصية والجماعات، والعقل والأحلام وسيكولوجية القيادة، وغيرها. ومن أشهر مؤلفاته "آراء أهل المدينة الفاضلة". والطبيب أبو بكر الرازي [864 - 932]، الذي لقب بـ"جالينوس العرب"، وألف عديد الكتب في مجال علم النفس والطب النفسي، واهتم بالعوامل

النفسية الكامنة وراء كثير من الأمراض الجسمية، وأوجب على طبيب الجسم أن يكون طبيباً للروح، وأن يشجع المريض ويؤمله بالشفاء، ومن أهم كتبه في هذا المجال "كتاب النفس"، و"كتاب الطب الروحاني".

أما ابن سينا (980 - 1037) فكان أعظم أطباء وعلماء عصره، وهو الملقب بالشيخ الرئيس وصاحب "القانون في الطب"، الذي درس في كليات الطب في العالم لقرون عدة، ومن مؤلفاته المهمة "كتاب الشفاء"، و"كتاب النجاة". ويعد ابن سينا بحق أول طبيب نفسي، فهو أول من شخص الحالات النفسية وعالجها علاجاً نفسياً، ومارس الطب والطب النفسي، وكان يهتم بحالة مرضاه النفسية، ويربط علاجه الطبي والنفسي بالعوامل الاجتماعية. وهو أول من فصل الفلسفة عن العلوم الطبيعية، واتجه إلى التجربة العملية، كما عالج في مؤلفاته العديدة كثيراً من المسائل والمواضيع النفسية، كالأنا والشعور والحس والأحلام، ووضع براهينه الشهيرة على وجود النفس، ووصف الأمراض النفسية وصفاً علمياً قائماً على الملاحظة والتجربة، كالهوس والفوبيا، والأرق، والأحلام، وغيرها. ونشير أيضاً إلى ابن الهيثم، العالم الفيزيائي الذي بدأ حياته طبيباً، وبحث في سيكولوجية الإدراك، وألف كتاب "تأثير الموسيقى في الإنسان والحيوان"، وابن مسكويه وكتابه "تهذيب الأخلاق"، الذي هدف منه إلى إصلاح الفرد والمجتمع عن طريق معرفة النفس الإنسانية. كما نشير إلى محمد بن البيروني (973 - 1048)، صاحب الكتاب المهم "تحقيق ما للهند"، الذي برز فيه البيروني رائداً للدراسات الأنثروبولوجية النفسية - الاجتماعية. وتجدر الإشارة إلى الفيلسوف الإمام أبي حميد الغزالي (1058 - 1111)، الذي عالج في كتابه الضخم "إحياء علوم الدين" مواضيع نفسية عديدة، كالسلوك، والدوافع، والعادات، والفروق الفردية بين الأطفال، وضرورة مراعاتها، واتبع في أبحاثه منهج الملاحظة الخارجية، ومنهج التأمل الباطني. ونشير أخيراً إلى مساهمات ابن باجة، صاحب كتاب "تدبير المتوحد"، ومؤسس المدرسة الأرسطوطاليسية، وابن طفيل، الفيلسوف والطبيب الأندلسي العربي الكبير، صاحب كتاب "حي بن يقظان"، وابن حزم الذي وضع نظرية سيكولوجية مهمة في الحب عرضها في كتابه "طوق الحمامة في الألفة والآلاف"، وابن رشد ألف أكثر من عشرة كتب في النفس، وساهم في تطوير الأفكار النفسية وبحثها ودراستها، وإلى المفكر الاجتماعي الكبير ابن خلدون، صاحب المقدمة الشهيرة، واضع حجر الأساس لعلم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي.

3. بداية الطور العلمي:

جاءت بداية هذا الطور نتيجة النهضة العلمية التي اجتاحت أوروبا منذ القرن الخامس عشر، والثورة الصناعية والتحولات الاجتماعية الجذرية التي طرأت على المجتمعات الأوروبية في مختلف ميادين الحياة. ومن أبرز من ساهم في فصل علم النفس عن الفلسفة، وتأسيس علم النفس كعلم مستقل، الفيلسوف الفرنسي ديكارت، المؤسس الثاني لعلم النفس، وإليه يرجع الفضل في تفسير السلوك والخبرات عن طريق فعالية أجهزة الحس والجملة العصبية والعضلية، وقد اعتبر ديكارت الشعور من أهم خاصيات العقل، ووضع نظرية الفعل المنعكس في علم النفس الفيزيولوجي، وأصحاب المدرسة الربطية الإنكليزية، مثل جون لوك، وهيوم، وسبنسر، وهارتلي، الذين طرحوا مبدأ ترابط الخبرات الحسية، ومبدأ السببية، وترابط الأفكار وتداعيها، وعالم الفيزيولوجيا الشهير دارون، صاحب كتاب "أصل الأنواع"، ونظريته في النشوء والارتقاء، التي دفعت إلى دراسة سلوك الحيوان، كمدخل لدراسة السلوك الإنساني، ودراسة أثر البيئة والوراثة على تطور الكائن الحي، وغالتون الذي ساهم في إدخال المنهج الإحصائي إلى علم النفس، وهيرمان إبنغهاوس، وهو أول من درس الذاكرة دراسة منهجية. ويجمع العلماء على أن عالم النفس الألماني الكبير فونت [1832 ـ 1920]، هو المؤسس الحقيقي لعلم النفس كعلم تجريبي، واعتبروا كتابه "أسس علم النفس الفيزيولوجي" (1874) بمثابة إنجيل علم النفس، كما أسس فونت أول مخبر تجريبي لعلم النفس في العالم "لايبزيغ عام 1879"، وأصدر أول مجلة سيكولوجية متخصصة في العالم [انظر 10].

أ ـ العلوم النفسية في الوطن العربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر

لقد جاء انفصال علم النفس عن الفلسفة في الثقافة الغربية نتيجة طبيعية لتحولات جذرية طرأت على المجتمعات الغربية في المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية والصناعية التي سبقت الإشارة إليها، وعلى وجه الخصوص نتيجة تقدم العلوم البيولوجية والفيزيولوجية، الأمر الذي سمح للعلوم الإنسانية، ومنها علم النفس، باتباع طرائق وأساليب أقرب إلى طبيعة الإنسان، وأقدر على تمكينه من دراسة ذاته ومجتمعه وأحواله (8، ص 336).

إن تطور أي علم عن العلوم، في أي قطر من أقطار الوطن العربي، يتوقف إلى حد كبير على توفر وتطور المؤسسات التعليمية فيه، وتحديداً على منظومة التعليم العالي والمتخصص ومؤسساته. وهذا أمر يتوقف بدوره على التطور الاجتماعي والاقتصادي في هذا القطر، أو

ذاك، وقيام السلطة الوطنية فيه، أي أنه مشروط بالتحرر من الاستعمار، وتحقيق الاستقلال السياسي، ثم الاقتصادي.

وبهذا الخصوص، يقول الباحث المصري حامد عمار: "يمكن اعتبار البحوث نوعاً من النشاط الإنساني تقوم به جماعة من أفراد المجتمع لتحقيق وظائف معينة، مستمدة من حاجات هذا المجتمع وظروفه" (8، ص 61). وبينما كان الغرب يمر بالتحولات الجذرية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية المذكورة أعلاه، كان الوطن العربي يرزح تحت نير الحكم العثماني. إلا أن رياح التغيير أخذت تهب على بعض أقطار الوطن العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر، نتيجة انبعاث الشعور القومي، وظهور الحركات والجمعيات العربية السرية، في بلاد الشام خاصة، ونتيجة الاحتكاك بالثقافة الغربية، وأيضاً نتيجة شعور الدولة العثمانية بتخلفها عن ركب الحضارة العالمية، مما دفعها إلى القيام ببعض المحاولات الإصلاحية، واقتباس النظام التعليمي الفرنسي والمناهج الفرنسية، وإدخال التعليم الحديث إلى بعض أجزاء إمبراطوريتها (انظر 7، ص 308).

في بلاد الشام، لا نجد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أي أثر للعلوم، أو المؤلفات والكتب النفسية، باستثناء كتاب "الدروس الأولية في الفلسفة العقلية" لمؤلفه لدانيال بلس الأميركي الأصل والمقيم في لبنان، مؤسس الجامعة الأميركية في بيروت، وقد نشره بالعربية عام 1874، ليكون كتاباً مدرسياً يحتوي على المبادئ الأولية في الفلسفة وعلم النفس، وعالج مجموعة من المواضيع النفسية، كالمشاعر، والإرادة، والذاكرة والنسيان (7، ص310). ولكن تجدر الإشارة إلى المقالات والدراسات النفسية التي نشرت في مجلة "المقتطف"، التي تأسست في بيروت عام 1876، ثم انتقلت إلى القاهرة عام 1885. وكان لمؤسسيها يعقوب صروف، وفارس نمر، وشاهين مكاريوس، فضل كبير في تقريب مناهل العلوم الغربية من قراء العربية، وإغناء المكتبة العربية بترجماتهم ومؤلفاتهم وأبحاثهم في العلوم والفلسفة. وقد نشرت هذه المجلة مجموعة من المقالات تتعلق بمواضيع نفسية مهمة، وبعلم النفس عامة للعالم اللبناني يعقوب صروف، مثل أربع مقالات عن الذاكرة، وتعريف الأقدمين والمحدثين بها، وعلاقة الذاكرة بالوظائف الفيزيولوجية، واضطرابات الذاكرة، والخيالات والتخيلات وأسبابها، والعقل والجسد، وغيرها من المقالات التي ساهمت بتقديم مواضيع علم النفس في إطار علمي (انظر 15، ص 438).

أما في مصر، التي كانت تتمتع بحكم ذاتي واستقلال نسبي عن الدولة العثمانية وحكومة وطنية، وعلى الرغم من أن العلوم الإنسانية لم تحظ بكثير من الاهتمام بالمقارنة مع

العلوم التقنية والعسكرية والطبية، فقد أنشئت فيها مدرسة للمعلمين لتخريج معلمي اللغة العربية عام 1872، ومدرسة المعلمين [النورمال] لمعلمي العلوم والرياضة والآداب عام 1880، ومدرسة المعلمين التوفيقية عام 1888. إلا أن علم النفس لم يكن بين المواد التي تدرس فيها، ولم يظهر علم النفس في المناهج إلا عام 1906، وكان نصيبه في الخطة الدراسية لا يتعدى ساعة أسبوعية في السنتين الأخيرتين [انظر 15، ص 433]. وكان أول كتاب يحمل اسم علم النفس ويعالج مواضيعه هو "كتاب علم النفس" للشيخ محمد شريف سليم الذي ألفه عام 1895، لكنه لم ينشر إلا عام 1911 عندما تقرر تدريسه في مدارس المعلمين والمعلمات. ولابد من الإشارة هنا إلى الدراسات والمقالات المنشورة في مجلة "المقتطف" اللبنانية التي انتقلت إلى القاهرة عام 1885، كمقالة "كم ذاكرة لك؟" لتموز ـ يوليو 1885] ومقالتين عن "الفرينولوجيا" لحزيران، تموز ـ يونيو، يوليو 1886]، كما نشرت المجلة بعض المقالات عن بعض الظواهر النفسية الغريبة، كالتنويم المغناطيسي، وجولان النائم، ومناجاة الأرواح، في مقالات عدة. وتجدر الإشارة في مجال علم النفس المرضي إلى كتاب "أسلوب الطبيب في فن المجاذيب" (1892) للدكتور سليمان نجاتي مدرس الأمراض العقلية بمستشفى القصر العيني.

وهكذا يتبين لنا أن مصر ولبنان هما القطران العربيان الوحيدان اللذان حظيا بالثقافة النفسية، ونشرت فيهما الدراسات والمقالات النفسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأن مصر قد فاقت لبنان في هذا المجال.

ب. العلوم النفسية في الوطن العربي في القرن العشرين [1900 ـ 1989]

في حديثنا عن مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي خلال الفترة الواقعة بين [1900 ـ 1989] سنخص بالحديث أولاً أربعة أقطار عربية ظهرت فيها أول الجامعات العربية؟ وكانت سباقة في الدراسات والمؤلفات السيكولوجية، وهذه الأقطار هي، حسب الترتيب الهجائي، سوريا والعراق ولبنان ومصر، ثم نتناول العلوم النفسية وتطورها في بقية الأقطار العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، ومن ثم نخصص فقرة مستقلة للحديث عن الوضع الراهن للعلوم النفسية في الوطن العربي في السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين.

1. مسيرة العلوم النفسية في سوريا

ثمة معالم ومحطات رئيسة في مسيرة العلوم النفسية والعلوم الأخرى في سوريا ترتبط بتاريخ سوريا وتطورها سياسياً واجتماعياً وثقافياً. فقد افتتح معهد الطب العربي عام 1903،

وافتتحت مدرسة الحقوق عام 1913، وشكلا معاً النواة الأول للجامعة السورية [جامعة دمشق حالياً]. وفي فترة الحكم الفيصلي [1918 ـ 1920] بعد إعلان استقلال سوريا، وتنصيب فيصل ملكاً عليها، عين المربي الكبير ساطع الحصري وزيراً للتربية والتعليم، فاهتم بإعادة تنظيم التعليم عامة، ودور المعلمين خاصة، وعني عناية خاصة بالدراسات التربوية والنفسية. وفي عام 1919 صدرت مجلة "التربية والتعليم"، وهي أول مجلة عربية من نوعها في هذا المجال، وخلال مرحلة الانتداب الفرنسي [1920 ـ 1945] خضعت سوريا لتأثير النفوذ الفرنسي الثقافي، واقتبست المناهج التربوية الفرنسية. وفي عام 1933 صدر قرار يقضي بربط معهد الطب ومدرسة الحقوق والمجمع العلمي العربي ودار الآثار بمؤسسة واحدة تحمل اسم الجامعة السورية [جامعة دمشق حالياً]. ومن أجل تلبية الحاجات المدرسية والجامعية تم تأليف أو اقتباس أو ترجمة عدد من الكتب النفسية التعليمية لتدريس علم النفس في القسم الثاني من البكالوريا (الشهادة الثانوية) السورية وفي دور المعلمين وبعض السنوات الجامعية [8، ص 341].

وهنا، تجدر الإشارة إلى الكتب والمؤلفات العديدة التي أصدرها د. جميل صليبا، بمفرده، وبالاشتراك مع د. كامل عياد، تأليفاً وتحقيقاً ونشراً، ومن أهمها: من أفلاطون إلى ابن سينا ـ محاضرات في الفلسفة العربية" دمشق 1935، وكتاب "ابن خلدون ـ منتخبات مع مقدمة عن حياته وفلسفته" دمشق 1934، وكتاب "حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي ـ تقديم ودراسة وتحليل" [دمشق 1935]. وجلي أن هذه الكتب المذكورة وثيقة الصلة من حيث مواضيعها بعلم النفس، وبخاصة علم النفس عند العرب. ونشير أخيراً إلى كتاب د. جميل صليبا "علم النفس" دمشق 1940، وهو أول كتاب يصدر في سوريا، ويحمل اسم علم النفس، ويمكننا أن نعده بحق بداية تاريخ علم النفس الحديث في سوريا [8 ص 341].

وبعد جلاء القوات الفرنسية عن سوريا عام 1946، وحصولها على الاستقلال التام، التفتت الدولة السورية الفتية إلى المناهل الثقافية العالمية، وأوفدت الطلاب وطلاب الدراسات العليا إلى أميركا وبلدان أوروبا الغربية والشرقية، واهتمت بالتربية والتعليم والتعليم العالي. وفي عام 1946، افتتحت في الجامعة السورية [جامعة دمشق] كلية الآداب والعلوم الإنسانية، التي تضم قسماً خاصاً يعنى بالدراسات الفلسفية والنفسية والاجتماعية، كما افتتح في العام نفسه المعهد العالي للمعلمين [كلية التربية حالياً]، وتضم هذه الكلية قسماً خاصاً بعلم النفس، وقسماً للصحة النفسية. ثم امتدت الدراسات النفسية إلى كليات أخرى، مثل كلية الطب وكلية التجارة [الاقتصاد حالياً]، وغيرهما من الكليات التي أصبح علم النفس بفروعه المتعددة جزءاً من مقرراتها. وقد دفعت الحاجة الماسة إلى الكادر التدريسي المؤهل في فروع

علم النفس إلى إيفاد عدد كبير من المعيدين إلى الجامعات العربية والأجنبية للتخصص العالي في العلوم النفسية، كما نشطت حركة التأليف والترجمة في هذا المجال.

ومن أهم الكتب الجامعية والدراسات النفسية التي أصدرها أساتذة كلية التربية بجامعة دمشق والمختصين في هذه الفترة، نذكر كتب الدكتور سامي الدروبي "علم النفس ونتائجه التربوية" (دمشق 1949)، "سيكولوجية المرأة" (القاهرة 1952)، "علم الطباع" (القاهرة 1960)، ومؤلفات الدكتور فاخر عاقل "علم النفس وتطبيقه" (دمشق 1945)، "علم النفس" (دمشق 1946)، "مدارس علم النفس"، و"نظريات التعلم" (دمشق، بيروت، طبعات عدة)، وكتب الأستاذ حافظ الجمالي "سيكولوجية الطفل" (دمشق 1956)، "علم نفس الطفولة والمراهقة" (جامعة دمشق 1960)، "علم النفس الاجتماعي" (ترجمة عن الفرنسية) (دمشق 1963)، ومؤلفات نعيم الرفاعي "علم النفس في الصناعة والتجارة" (جامعة دمشق 1963)، "الصحة النفسية" (جامعة دمشق، طبعات عدة) ومؤلفات وكتب أخرى لباحثين ومؤلفين آخرين.

وبعد قيام الحركة التصحيحية (16 تشرين ثاني - نوفمبر 1970) حدث تطور كبير في مجال التعليم العالي، حيث صدر قانون جديد للبعثات العلمية، وصدر مرسوم الكتاب الجامعي الذي ألزم كل مدرس بإعداد أو تأليف كتاب لكل مقرر جامعي يقوم بتدريسه، الأمر الذي ساعد على زيادة النشر الجامعي، وصدر عام 1975 قانون تنظيم الجامعات، الذي أسس نظام الدراسات العليا في الجامعات السورية، وأجاز للكليات المختلفة، ومنها كلية التربية، منح درجات دبلوم الدراسات العليا والماجستير والدكتوراه. وتضم كلية التربية، حالياً، بالإضافة إلى الأقسام التربوية المختلفة، قسم علم النفس وقسم الصحة النفسية وقسم الإرشاد. وبعد صدور مرسوم الكتاب الجامعي عام 1981 أصبح لزاماً على كل مدرس جامعي إعداد كتاب جامعي للمقرر الذي يقوم بتدريسه، الأمر الذي أدى إلى تنشيط حركة التأليف والترجمة في الجامعات. كما نصت اللائحة الداخلية لكليات الآداب في الجامعات التي لا توجد فيها كلية للتربية على افتتاح قسم للتربية، وذلك في جامعات حلب وتشرين والبعث. وتجدر الإشارة إلى مساهمة وزارة الثقافة ودور النشر الأخرى في سوريا في نشو الوعي النفسي والثقافة النفسية، وتلبية حاجة الطالب والباحث إلى المراجع والمصادر والكتب في مختلف فروع العلوم النفسية. فقد أصدرت وزارة الثقافة، ضمن منشوراتها "سلسلة الدراسات النفسية" التي صدر منها حتى الآن أكثر من عشرين كتاباً مترجماً إلى العربية عن اللغات الأجنبية، كما صدر عن دور النشر الأخرى كتب عديدة في مجال علوم النفس.

ملاحظات:

على الرغم من أن العمل السيكولوجي في سوريا قد أدى واجباته وقام بالتزاماته، رغم ضعف إمكاناته وصعوبة ظروفه، فقد وفر للدارس والطالب الجامعي الكتب المقررة والمراجع الضرورية، في الحدود الدنيا، وقدم للقارئ العادي ثقافة نفسية جيدة، وبخاصة في السنوات الأخيرة، إلا أن هنالك ملاحظات لابد من إبدائها حول مسيرة العلوم النفسية في سوريا خلال هذه الفترة:

1 ـ إن معظم الكتب والمؤلفات النفسية الصادرة في سوريا، وحتى الستينات، قد وضع لغاية تعليمية بحتة، ولم تكن مراجع ودراسات تهدف إلى رفع مستوى الثقافة النفسية لدى القارئ عامة وزيادة وعيه النفسي.

2 ـ إن الجزء الأعظم من الكتب النفسية الصادرة يتميز بعدم الأصالة، ويقوم على الترجمة، أو الاقتباس، ويكاد أن يكون منفصلاً تماماً عن مشاكلنا وبيئتنا وثقافتنا إلا ما ندر.

3 ـ إن غالبية الكتب والدراسات النفسية الصادرة ذات طابع نظري بعيد عن الجوانب العملية والتطبيقية، وربما كان من بين أسباب ذلك انعدام، أو ندرة المختبرات والمعامل النفسية، وعدم دخول علم النفس إلى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية.

4 ـ إن العلوم النفسية بفروعها المختلفة لم تدخل بعد حياة المواطن والمجتمع عامه في سوريا، باستثناء الجامعات والقوات المسلحة والشرطة، وبعض المعاهد والمراكز ودور المعلمين والمعاهد المتوسطة المتخصصة. فالعيادات النفسية شبه معدومة ونادرة حتى في المدن الكبرى، وكذلك الأمر بالنسبة لمراكز التوجيه المهني والتربوي والنفسي. كما، لا نجد أثراً لعلم النفس في الصناعة، أو التجارة، أو الإدارة، أو غير ذلك من مجالات الحياة الاجتماعية، هذا على الرغم من التطور الهائل للعلوم النفسية والاجتماعية، ودخولها جميع ميادين الحياة، وهذا أمر ينعكس سلباً على فرص العمل المتاحة أمام خريجي أقسام علم النفس.

5 ـ عدم دخول العلوم النفسية والإرشاد النفسي إلى المدارس السورية بجميع حلقاتها، فلا توجد خدمات نفسية ولا عيادات نفسية اجتماعية، أو تربوية، أو توجيه نفسي، في مدارسنا، كما هو الأمر في مدارس بلدان عددية في العالم، بما فيها بعض الأقطار العربية، ولا توجد روائز للذكاء، أو مقاييس للقدرات والشخصية والمواقف إلا في ما

ندر. وهذا كله يزيد من صعوبة الحصول على عمل بالنسبة لخريجي أقسام علم النفس.

6 ـ عدم توافر مستلزمات البحث العلمي ومتطلباته وأدواته وشروطه بشكل جيد، سواء في الكليات والجامعات، أو في المراكز والمؤسسات الأخرى [انظر 80" ص 348].

2. مسيرة العلوم النفسية في العراق

لا نجد في العراق أي أثر للدراسات النفسية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ورغم افتتاح ثلاث دور للمعلمين في الربع الأول من القرن العشرين في العراق، إلا أن مناهجها كانت تخلو من العلوم النفسية، وتقتصر على التربية وأصول التدريس، ثم أدرج مقرر علم النفس التربوي في مناهجها. وفي عام 1933 أنشئت دار المعلمين العالية، وأصبحت تعرف باسم كلية التربية عام 1958، وأصبحت تابعة لجامعة بغداد. وكانت وظيفتها، ولا تزال، تخريج المدرسين للمدارس الثانوية العراقية، وقد عنيت عناية خاصة بتدريس علم النفس التربوي، ثم علم النفس النمائي، ثم أنشئ في الكلية فرع للتخصص بالتربية وعلم النفس، واهتم بعلم النفس العام وعلم النفس التربوي والتجريبي والاجتماعي والصحة النفسية والقياسات النفسية.

وصدرت في العراق مجموعة من الدوريات في النصف الأول من القرن العشرين التي اهتمت بالتربية وعلم النفس، وأولها مجلة "التربية والتعليم"، التي صدرت خلال الفترة [1928 ـ 1930]، وتولى الإشراف عليها ونشر المقالات التربوية والنفسية فيها الأستاذ ساطع الحصري، ونشرت المجلة مجموعة من الدراسات النفسية المهمة في مواضيع اختبارات الذكاء والامتحانات والوراثة والفروق الفردية، لكل من ساطع الحصري، وفاضل الجمالي، ومنى عقراوي، وخالد الهاشمي، وغيرهم. وفي عام 1935 صدرت "مجلة المعلم الجديد"، ونشرت مجموعة من المقالات النفسية لعدد من الباحثين والاختصاصيين، كالأستاذ نوري الحافظ "حول اللاشعور"، والدكتور أحمد عزت راجح (النمو العقلي ومراحله عند الأطفال ـ 1941)، ومحمد ناصر (الاستدلال عند الطفل ـ 1941).

كما صدرت في العراق خلال هذه الفترة مجموعة من الكتب النفسية، مثل كتاب "علم النفس" للعالم لوود ورثا، الذي ترجمه ونشره في بغداد عبد الحميد الكاظم، وكان كتاباً مقرراً في دار المعلمين العليا، و"المدخل إلى علم النفس"، للأستاذ صالح الشماع، ودرس في دار

المعلمين الابتدائية. وفي إطار علم النفس التربوي أجريت في العراق دراسات عدة، وبحوث سيكولوجية مهمة، منها: تطبيق اختبار الجيش الأميركي على الطلاب في مدارس بغداد الابتدائية والثانوية ودار المعلمين، وتعديل اختبار لستانفورد - بينيه المترجم إلى العربية باللهجة المصرية من قبل الأستاذ إسماعيل صبري، ونشره باللهجة العراقية على يد محمد كامل النحاس، وعبد الرحمن القيسي. كما حاول الدكتور عبد الجليل الزوبعي تطبيق اختبارات الذكاء على الطلاب العراقيين (اختبار "كلتل" الخالي من آثار العوامل الثقافية على بعض طلاب كلية التربية واختبار "كودنو"، رسم رجل - على عدد من الأطفال العراقيين). وترجم فريد نجار كتاب "علم النفس التربوي" للعالم ستانفورد، وألف ونشر الأستاذ ضياء أبو الحب كتاور "علم النفس التربوي" (انظر 50، ص 413 - 416). وفي إطار علم النفس التكويني (النمو) نشر الدكتور أحمد عزت راجح محاضراته على طلاب دار المعلمين العالية باسم "علم نفس الطفل"، ووضع صالح الشماع دراسة مهمة بعنوان "اللغة عند الطفل - من الميلاد إلى السادسة"، ونشرها ونال عليها درجة الماجستير من جامعة القاهرة. ومن أهم الكتب والدراسات في مجال الصحة العقلية وعلم النفس الجنائي نذكر كتاب "علم النفس الجنائي" لـ د. أحمد عزت راجح (1943)، وكتاب "علم النفس الجنائي والقضائي" (1949) لأحمد محمد خليفة، ومبادئ علم النفس الجنائي" (1949) لسعدي بسيسو، كما نشر له بحث باللغة الإنكليزية ضمن منشورات الأمم المتحدة بعنوان "جرائم الأحداث في الشرق الأوسط" (انظر 50، ص 405 - 409). وفي مجال علم النفس الاجتماعي نشير إلى كتاب "الشخصية العراقية" (1952) وهي رسالة نال عليها علي الوردي درجة الدكتوراه، وأجمل فيها النظريات الرئيسة في تطور الشخصية، وحاول تحديد معالم الشخصية العراقية. كما أسهم الدكتور عبد الله محيي بدراسة بعض المشكلات الاجتماعية التي يواجهها الطلاب العرب، وعني خاصة بدراسة مشكلات المرأة العربية، وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة "القضايا الاجتماعية" الأميركية.

ملاحظات:

لم يكن هنالك من الدراسات النفسية في العراق خلال العهد العثماني ما يستحق الذكر.

ساهم الأساتذة العرب المنتدبون لتدريس علم النفس في دار المعلمين في بغداد، ومن ثم في كلية التربية مساهمة كبيرة في حمل أعباء التدريس من ناحية، وفي إثارة الاهتمام بالدراسات التربوية والنفسية. ومن أهم الأساتذة العرب المصريين الذين ساهموا في تطوير الدراسات

النفسية في العراق أحمد عزت راجح، ومظهر سعيد، ومحمد كامل النحاس، وأحمد محمد خليفة، وإبراهيم حافظ.

لقد نشأت العلوم النفسية وتطورت في العراق بالارتباط والتواصل الوثيق بالتربية، وكان تدريس علم النفس في معظمه في دور المعلمين العالية والابتدائية وفي كلية التربية، ولهذا تأثرت الدراسات النفسية بهذا الاتجاه، وكان معظمها يعالج المسائل السيكولوجية في مجال علم النفس التربوي وعلم نفس النمو (انظر 50، ص 421 . 424).

3. مسيرة العلوم النفسية في لبنان

كان كتاب "أصول علم النفس وأسرار العقل الباطن" (1904) لمؤلفه يوسف إسكندر جريس أول كتاب سيكولوجي صدر في لبنان في القرن العشرين. وقد تناول مجموعة مواضيع سيكولوجية، كالعواطف، والإرادة، والذاكرة، والأمراض النفسية، أما الكتاب الثاني فكان "سيكولوجيا الإنسان: نفوسنا المريضة وعلاجها النفساني" (1938) لمؤلفه منير وهيبة الخازن. وكان الاهتمام بعلم النفس يقتصر على كليتي التربية والآداب بالجامعة الأميركية. ثم تأسست الجامعة اللبنانية (1953) وجامعة بيروت العربية (1960) وضمتا قسماً لعلم النفس، وقسماً للفلسفة وعلم الاجتماع، واتسع نطاق الاهتمام بالعلوم النفسية. ومن أهم الكتب النفسية التي صدرت في لبنان في هذه الفترة كتاب منير وهيبة الخازن "معجم مصطلحات علم النفس" (بيروت 1956)، و"قاموس التربية وعلم النفس التربوي" لبيروت 1960)، وصدر عن الجامعة الأميركة لمؤلفيه فريد نجار، وفايزة معلوف أنتيبا، ونعيم نقولا عطية، وماجد فخري.

وتجدر الإشارة هنا إلى مجموعة الرسائل والأطروحات لطلاب الدراسات العليا في الجامعة الأميركية في الخمسينيات، التي عالج نصفها نظريات التعلم، والعوامل التي تؤثر فيها ومدى استمرارها، واتبعت المنهج التجريبي (انظر 70، ص 309)، بينما بحث النصف الآخر مواضيع شتى، قاسمها المشترك علاقتها بالبيئة اللبنانية مثل: "انحراف الأحداث"، و"السكيزوفرينيا"، و"قياس روائز الذكاء"، و"حوافز التحصيل"، و"أنماط تربية الأطفال وعلاقتها بشخصية الطفل" (70، ص 309).

كما صدرت في لبنان منذ أوائل القرن العشرين مجموعة من المجلات العلمية التي تعنى، إلى جانب العلوم الأخرى، بالعلوم النفسية. ومن أهمها: مجلة "المشرق"، وصدرت في أوائل القرن العشرين، ومجلتا "الأبحاث"، و"المجلة الطبية اللبنانية"، وصدرتا عام 1947، ومجلة "الباحث"،

وصدرت في أواخر السبعينيات. كما صدرت في الثمانينيات مجلة متخصصة هي "مجلة الأبحاث التربوية"، وتصدرها كلية التربية في الجامعة اللبنانية. وقد نشرت في هذه الدوريات دراسات وبحوث سيكولوجية مهمة لعدد من كبار الأساتذة والباحثين اللبنانيين، مثل البير نصري نادر، وجورج شهلا، ونقولا فياض، وحبيب كوراني، وليفون ميليكيان، وجوزيف بطرس، وغيرهم.

كما ساهمت دور نشر لبنانية عديدة في نشر الوعي النفسي والثقافة النفسية، مثل: "دار العلم للملايين"، و"منشورات عويدات"، و"المؤسسة العربية للدراسات والنشر"، و"دار الفارابي"، و"معهد الإنماء العربي".

ملاحظات:

1. ساهم تطور حركة النشر في لبنان منذ بداية القرن العشرين بظهور عدد من الدوريات الثقافية والعلمية الرصينة، وبالتالي بنشر الثقافة النفسية، كما ساعد على تأليف وترجمة كثير من الكتب والمراجع النفسية المهمة.
2. ساعد توافر مختبر علم النفس في الجامعة الأميركية، والجامعات الأخرى، على قيام أبحاث ودراسات سيكولوجية تجريبية وثيقة الصلة بالبيئة اللبنانية، مثل: لدراسات وأبحاث ليفون ميليكيان، أستاذ علم النفس في الجامعة الأميركية).

4. مسيرة العلوم النفسية في مصر

ظل تدريس علم النفس في مدرسة المعلمين الخديوية، ودار العلوم، ومدرسة المعلمات، مجرد تمهيد لتدريس أصول التربية العلمية والعملية. وكان يتولى تدريس علم النفس مع التربية مدرسون مصريون غير مختصين، مثل علي عمر، مؤلف كتاب "هداية المدرس"، والشيخ محمد شريف سليم مؤلف كتاب "علم النفس"، والشيخ محمد حسنين الغمراوي، مؤلف كتاب "الغرائز وعلاقتها بالتربية". ثم تولى التدريس أساتذة من خريجي دار العلوم الحاصلين على دبلوم التربية في إنكلترا، مثل: مصطفى أمين، وعلي الجارم، مؤلفا كتاب "علم النفس وآثاره في التربية والتعليم"، كما تولى التدريس في دار المعلمين العليا أساتذة من خريجيها حصلوا على درجة البكالوريوس من إنكلترا، مثل: إسماعيل محمود القباني، وأمين مرسي قنديل، مؤلف كتاب "أصول علم النفس وأثره في التربية والتعليم".

ولم ينهض تدريس علم النفس على نحو أكاديمي سليم، مشجع على البحث والتأليف، إلا

بعد تأسيس جامعة القاهرة عام 1925، وافتتاح قسم الفلسفة وعلم النفس فيها، حيث بدئ بتدريسه كمقرر مستقل إلى جانب العلوم والمقررات الأخرى، وكان تدريسه خاضعاً لتأثير مدرسة علم النفس الفرنسية التي ركزت اهتمامها على علم النفس العام بصورة رئيسة. ومما ساهم في تطوير علم النفس تأسيس المعهد العالي للتربية عام 1928 الذي اختص بالعلوم التربوية والنفسية، وأصبح يعرف في ما بعد باسم كلية التربية، وإيفاد المبعوثين إلى الخارج من خريجي معهد التربية وكلية الآداب. وكان يتولى تدريس علم النفس أساتذة ومحاضرون أجانب بعقود مؤقتة، وهذا ما أعاق تكوّر علم النفس، وكان له أثره السلبي على نشوء الكادر العلمي الوطني. وبعد عودة الأساتذة المصريين الذين أنهوا دراساتهم العليا في أوروبا وأميركا في الأربعينيات إلى مصر، حدثت قفزة كبيرة في تطور العلوم النفسية. وفي هذه المرحلة انفصل علم النفس عن الفلسفة والتربية، وتأسس قسم خاص به في جامعة عين شمس بالقاهرة، كما تأسس قسم آخر للأبحاث النفسية ـ الاجتماعية (انظر 13، ص 31).

وفي الخمسينيات، برزت في مصر ثلاثة اتجاهات في تطور العلوم النفسية. يرتبط الاتجاه الأول بأسماء أساتذة علم النفس المصريين، خريجي بريطانيا (إسماعيل القباني، عبد العزيز القوصي، محمد فؤاد)، الذين خضعوا لتأثير أساتذتهم البريطانيين. وقد طور أساتذة هذا الاتجاه علم النفس التجريبي والإحصائي، وكانوا أول من استخدم الاختبارات النفسية ومقاييس الذكاء في صدر.

أما الاتجاه الثاني فيمثله جماعة علم النفس التكاملي، وعلى رأسها الدكتور يوسف مراد، أستاذ علم النفس المعروف (خريج جامعة السوربون)، وتلاميذه. وامتاز أصحاب هذا الاتجاه بدراساتهم السيكولوجية المتكاملة، ونظرتهم إلى الإنسان من حيث هو كائن حي متكامل، ومن حيث هو كل نفسي ـ فيزيولوجي. وأصدروا مجلة "علم النفس" خلال الفترة الواقعة بين [1945 ـ 1953]، وهي أول المجلات العربية المتخصصة في علم النفس.

أما الاتجاه الثالث فقد تأثر بالنظريات الفرويدية والتحليل النفسي الفرويدي، وقد مثل أصحاب هذا الاتجاه التيار الفرويدي في علم النفس بمصر. وكان على رأس هذا التيار الدكتور مصطفى زيور أستاذ علم النفس المصري المعروف (60 ص 57، 69).

وقد ساهم الباحث الدكتور عبد العزيز القوصي مساهمة كبيرة في تطوير البحوث والدراسات السيكولوجية في مصر. فقد أسس أول مخبر لعلم النفس بكلية التربية في جامعة القاهرة، وهو يعد بحق مؤسس علم النفس التجريبي في مصر والوطن العربي. وتجدر الإشارة أيضاً إلى جهود الدكتور يوسف مراد، زعيم جماعة علم النفس التكاملي، ومؤسس مجلة

علم النفس، التي سبق ذكرها، والدكتور مصطفى زيور، صاحب الفضل الكبير في تأسيس أول كلية لعلم النفس في مصر (جامعة عين شمس)، وإلى جهود الدكتورة سمية فهمي، أول امرأة مصرية - بل وعربية - تحصل على درجة الدكتوراه في علم النفس عام 1953، وأستاذة علم النفس في جامعة عين شمس، وكان لها دور كبير في تأسيس الجمعية المصرية للبحوث النفسية عام 1947.

وبرعاية المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، انعقد خلال الفترة الواقعة بين (10 - 12 أيار/ مايو عام 1971) المؤتمر الأول لعلم النفس في مصدر تحت شعار"علم النفس والتنمية الاجتماعية". وقد تفرعت عن المؤتمر ثلاث لجان بحثت المحاور الثلاثة التالية:

- لجنة علم النفس والإنتاج.
- لجنة دور علم النفس في التربية.
- لجنة التغيير الاجتماعي.

وقد أقر هذا المؤتمر ثماني عشرة توصية تتعلق بجميع فروع العلوم النفسية، وضرورة مشاركتها في حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المطروحة في مصر (13 ص35 - 36).

ولابد من الإشادة على نحو خاص هنا بدور المجلات العلمية والثقافية والمتخصصة في نشر الوعي النفسي والثقافة السيكولوجية الصحيحة، مثل مجلة "المقتطف"، التي استمرت في الصدور بالقاهرة من عام 1885 حتى عام 1952، ومجلة "علم النفس"، التي سبق ذكرها، ومجلة "التربية الحديثة" التي بدأت بالصدور عام 1928، وصحيفة "التربية" التي أصدرها وترأس تحريرها الدكتور إسماعيل القباني منذ عام 1948، وغيرها.

ونشيد أخيراً بالجهود المثمرة لكبار أساتذة علم النفس المصريين في تطوير الدراسات السيكولوجية، لا على الصعيد القطري فحسب، بل وعلى الصعيدين العربي والعالمي، مثل: د. إسماعيل قباني، الذي قام بإعداد اختبار ستانفورد بينيه (تعديل تيرمان 1916) وتقنينه محلياً، ووضع اختبار ستانفورد للحساب بالاشتراك مع د. محمد عبد السلام وتقنينه محلياً، وأعد اختبار الذكاء المتوسط، واختبار الذكاء المصور للأطفال عام 1938، والدكتور قباني هو صاحب فكرة الفصول التجريبية التي قامت على أساسها المدارس النموذجية، وقد ألف كتاباً قيماً بعنوان "القياس النفسي والتربوي" [1960]. ونشير إلى الأستاذ مظهر سعيد، الذي تمكن بجهوده من إدخال مقرر علم النفس إلى كلية أصول الدين بجامعة الأزهر عام 1930، وإلى المعهد العالي للفنون المسرحية عام 1945، وإلى المعهد العالي الصحي عام 1960، وإلى

دورات ضباط الشرطة عام 1950. كما نشير أيضاً إلى إسهام د. عبد العزيز القوصي، رائد دراسات القدرات العقلية، ويرتبط اسمه في الأوساط العلمية بمجموعة الباحثين الذين كشفوا عن القدرات المكانية، كما أنه مكتشف العامل المكاني K، حيث أعد رسالته لنيل الدكتوراه بإشراف العالم سبيرمان في جامعة لندن [15، ص 460]. ونشير أخيراً إلى أبحاث وجهود علماء مصريين آخرين، مثل د. يوسف مراد، الذي تزعم الاتجاه التكاملي في علم النفس، وظل معنياً بالتراث السيكولوجي العربي الإسلامي، ويعد كتابه "مبادئ علم النفس العام" الكتاب العربي الأول الذي يستشهد فيه مؤلفه بنصوص عربية قديمة لابن سينا والغزالي، وغيرهما، وحديثه لطه حسين والعقاد وتيمور.

ملاحظات:

1. لاشك في أن مسيرة العلوم النفسية في مصر هي الأغنى والأكبر والأعمق في الوطن العربي، فقد زاد عمرها على قرن من الزمان، وتوافرت لها الشروط الموضوعية والذاتية المناسبة للتطور والتفتح، ولتحقيق منجزات كبيرة.
2. اهتم عدد كبير من الباحثين النفسيين المصريين بالجوانب التجريبية والتطبيقية العملية من الدراسات السيكولوجية، وهذا ما انعكس إيجاباً على مسيرة هذه العلوم، وأدى إلى دخولها مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والعسكرية.
3. إلى جانب الجامعات المعنية بالعلوم النفسية، توجد في مصر مجموعة متكاملة من مراكز ومعاهد البحث العلمي التي تهتم بالعلوم النفسية، وتغني مسيرتها، وتطور أبحاثها، مثل: معهد العلوم الاجتماعية التابع لجامعة الإسكندرية، والمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ومعهد الرأي العام والإعلام، كما صدرت وتصدر في مصر عدة مجلات متخصصة، مثل: "مجلة علم النفس"، و"المجلة العربية للطب النفسي"، وغيرها.
4. إن تنوع الاتجاهات والتيارات النفسية في مصر قد أغنى بلا شك الأبحاث والدراسات في العلوم النفسية، لكن هذا التنوع يكمن وراءه انعدام التصور النظري العام المتسق بين الباحثين النفسيين والافتقار إلى منطلقات ومسلمات أساسية واحدة، وهذا ما أدى إلى تشتيت جهود الباحثين والمختصين النفسيين، وعدم تركيز بحوثهم ودراساتهم على دراسة المشكلات الاجتماعية في مصر، وعلى تعزيز دور العلوم النفسية في عملية التنمية الاجتماعية [1، ص 38].

4 ـ مسيرة العلوم النفسية في بقية الأقطار العربية في النصف الثاني من القرن العشرين [1950 ـ 1989] لم تبدأ مسيرة العلوم النفسية في بقية الأقطار العربية، كالأردن، والإمارات، وتونس، والجزائر، والسعودية، والسودان، وفلسطين، وقطر، والكويت، وليبيا، واليمن، إلا في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وذلك بعد حصولها على الاستقلال، أو بعد تأسيس الجامعات والمعاهد العليا فيها. ففي الأردن، تأسست الجامعة الأردنية عام 1963، وقد ضمت كلية الآداب فيها أقسام التربية وعلم النفس والفلسفة وعلم الاجتماع. وتوفر هذه الجامعة لطلابها فرصة الدراسة الجامعية والدراسات العليا، وتمنح درجات الليسانس والماجستير والدكتوراه في غالبية أقسامها، ومنها قسم التربية وعلم النفس. وقد اعتمدت الجامعة الأردنية في البداية على أساتذة من الأقطار العربية، وبخاصة مصر، والعراق، وسوريا، ولديها الآن كادرها الوطني من أعضاء الهيئة التدريسية.

وفي الإمارات العربية المتحدة، تأسست جامعة الإمارات العربية المتحدة عام 1977، وتعنى كليتا الآداب والتربية فيها بالعلوم النفسية، وتعتمد في تدريسها للعلوم النفسية على الأساتذة المعارين من الأقطار العربية، وبخاصة مصر والعراق وسوريا والأردن. وفي تونس، تأسست الجامعة التونسية عام 1960، وتضم كلية الآداب فيها قسم الفلسفة والدراسات الجامعية، وفيه يدرس علم النفس كأحد مقررات هذا القسم. أما في الجزائر فبعد حصولها على الاستقلال تأسست جامعات عدة، مثل جامعة قسنطينة (1969)، وتضم كلية علم النفس التي يتلقى فيها الطلاب جميع العلوم النفسية، وتمنح هذه الكلية درجتي الليسانس والماجستير في العلوم النفسية. وهنالك المعهد العالي للعلوم الاجتماعية التابع لجامعة وهران، ويضم قسماً لعلم النفس. وقد استعانت الجامعات الجزائرية بالأساتذة العرب المعارين من الجامعات العربية من أجل تعريب التعليم الجامعي فيها. وفي المملكة العربية السعودية، تأسست جامعات عدة تعنى بالدراسات والعلوم النفسية، وأهمها: جامعة الملك سعود (الرياض سابقاً، وتأسست عام 1957)، وتضم كلية التربية فيها قسمي التربية وعلم النفس، وتمنح درجتي البكالوريوس والماجستير. وهنالك جامعة الملك عبد العزيز (عام 1967) ، وتضم كلية الآداب والعلوم الإنسانية التي تعنى بالدراسات النفسية، وجامعة الإمام محمد بن سعود (تأسست عام 1974)، وتضم كلية الآداب فيها قسماً لعلم النفس. وفي السودان، تأسست جامعة الخرطوم عام 1956، ويعنى بالعلوم النفسية فيها قسم علم النفس التابع لكلية الآداب، بالإضافة إلى كلية التربية، كما تأسست جامعة أم درمان الإسلامية عام 1965، ويعنى بالدراسات النفسية فيها قسم علم

الدراسات الفلسفية والنفسية التابع لكلية الآداب، بالإضافة إلى كلية التربية، وتضم هاتان الجامعتان أقساماً للدراسات العليا في مجال التربية وعلم النفس، وتمنحان درجات البكالوريوس والماجستير والدكتوراه. وفي فلسطين، تأسست جامعة بيرزيت عام 1972، وتضم قسماً للتربية وعلم النفس. وتأسست جامعة قطر عام 1974، وتضم كلية التربية فيها قسماً لعلم النفس التعليمي، وقسماً للصحة النفسية، وتصدر عن هذه الكلية مجلة "التربية"، وهي مجلة فصلية عمة متخصصة بالعلوم التربوية والنفسية. أما جامعة الكويت فقد تأسست عام 1966، وتضم قسماً لعلم النفس تابعاً لكلية الآداب، وقسماً لعلم النفس التربوي تابعاً لكلية التربية، كما تضم قسماً للدراسات العليا. وقد ساهمت دولة الكويت مساهمة كبيرة في نشر الثقافة والعلوم النفسية، من خلال إصداراتها القيمة، مثل "مجلة العلوم الاجتماعية"، و"مجلة العلوم الإنسانية"، وتصدران عن جامعة الكويت، ومجلة "عالم الفكر"، وسلسلة "عالم المعرفة"، وغيرها من المجلات الثقافية العامة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت. أما في ليبيا، فقد افتتحت جامعات عدة أقدمها جامعة قار يونس (عام 1955)، وتضم كلية للتربية، وجامعة الفاتح، وجامعة سبها، وتضم كل منهما كلية للتربية. وفي المغرب تأسست جامعة محمد الخامس عام 1955، وتضم قسماً لعلم النفس يتبع كلية الآداب، كما تصدر في المغرب مجلة متخصصة وهي "المجلة المغاربية للطب النفسي"، وهي مجلة فصلية متخصصة تصدر باللغة الفرنسية. وفي اليمن، هنالك جامعتان رئيستان: جامعة صنعاء (تأسست عام 1970)، وجامعة عدن (تأسست عام 1975)، وتضم كل منهما كليتين تعنيان بالعلوم النفسية، وهما كليتا الآداب والتربية، وثمة كليات أخرى للتربية موزعة في مدن يمنية أخرى.

ج . مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي في العقد الأخير من القرن العشرين [1990 . 1999]

تميز العقد الأخير من القرن العشرين بازدياد الاهتمام بالعلوم النفسية في الوطن العربي. وقد تجلى هذا الاهتمام المتزايد بانتشار تدريس علم النفس بفروعه في المدارس الثانوية والمعاهد المتوسطة المهنية والدورات المتخصصة، وفي مختلف الأقسام والكليات المهنية بالجامعات العربية التي تزايدت أعدادها خلال هذه الفترة. كما تجلى هذا الاهتمام بتزايد الحاجة إلى المختصين النفسيين في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية، وبصدور العديد من الكتب والمؤلفات في العلوم النفسية تأليفاً وترجمةً في مختلف الأقطار العربية.

كما شهد عقد التسعينات نشاطاً مؤسساتياً بارزاً في مجال العلوم النفسية، حيث تم تفعيل المؤسسات الموجودة من قبل، والأهم من ذلك ظهرت أنشطة مؤسساتية بالغة الأثر في إرساء قواعد جديدة لتفعيل الاختصاص، فقد تم تفعيل المؤسسات المتواجدة من قبل، مثل: الجمعية المصرية للدراسات النفسية، والجمعية المصرية للطب النفسي، واتحاد الأطباء النفسانيين العرب، وما يصدر عن هذه المؤسسات، وغيرها من دوريات متخصصة مثل "مجلة علم النفس"، التي صدرت منذ أواخر الثمانينيات عن الهيئة العامة للكتاب في مصر، وتتوزع مواضيعها على فروع علم النفس بشكل يعكس التوجهات الأكاديمية في مصر، ومجلة "الجمعية المصرية للدراسات النفسية"، و"مجلة العلوم الاجتماعية"، و"المجلة العربية للعلوم الإنسانية" الصادرة في الكويت.

ومن جهة أخرى، وهي الأهم، ظهرت في هذا العقد مؤسسات نفسية جديدة، وبدأت بممارسة أنشطتها العلمية والمهنية المتخصصة. فقد تأسست "رابطة الاختصاصيين النفسيين" في مصر، وبدأت منذ عام 1990 بإصدار مجلتها "دراسات نفسية"، كما تأسس "مركز الدراسات النفسية" في طرابلس (لبنان)، وبدأ منذ عام 1990 بإصدار مجلته الفصلية المحكمة "الثقافة النفسية"، وعدلت تسميتها إلى "الثقافة النفسية المتخصصة" في أواخر التسعينيات، كما تأسس "مركز الإرشاد النفسي" في مصر، وبدأ منذ عام 1993 بإصدار مجلته "الإرشاد النفسي". وتأسست في هذا العقد أيضاً "الجمعية المصرية للصحة النفسية"، و"الجمعية المصرية لحل الصراعات"، و"الجمعية النفسية اليمنية"، التي بدأت بإصدار مجلتها "الصحة النفسية" منذ عام 1994.

وتجدر الإشارة على نحو خاص إلى تأسيس "الاتحاد العربي لعلم النفس" عام 1995، الذي يضم ممثلين عن جميع الأقطار العربية، إما على مستوى الأفراد، أو على مستوى الجمعيات، ويعقد مؤتمراً سنوياً عربياً جامعاً في كل عام. كما تأسست عام 1996 "الجمعية السورية للعلوم النفسية"، وعقدت مؤتمرين في عامي 1997 و1998، وتأسست "رابطة الباحثين النفسيين" في عدن عام 1996، و"رابطة الأطباء النفسيين العاملين في الخليج العربي"، و"رابطة الأطباء النفسيين في الأردن"، و"الجمعية اللبنانية للدراسات النفسية" (1996)، و"الجمعية اللبنانية لرعاية الصحة النفسية"، و"الجمعية اللبنانية للطب النفسي"، و"الجمعية التونسية لعلم النفس"، و"الجمعية التونسية للطب النفسي"، و"الاتحاد المغاربي للطب النفسي"، الذي بدأ منذ أوائل التسعينيات بإصدار "المجلة المغاربية للطب النفسي" باللغة الفرنسية. كما تأسس "مركز دراسات الطفولة" في جامعة عين شمس بالقاهرة، و"الجمعية الأردنية للتأهيل النفسي"،

و"المركز العربي للدراسات الأمنية والتأهيل" بالرياض، و"الجمعية العراقية للطب النفسي"، و"مركز معوقات الطفولة" بجامعة الأزهر، و"الجمعية المغربية للدراسات النفسية".

كما عقدت في التسعينيات مؤتمرات وندوات نفسية قطرية وعربية وإقليمية وعالمية في العديد من العواصم العربية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- "مؤتمر الطفولة في الإسلام"، وعقد في القاهرة عام 1994، بمبادرة من جامعة الأزهر، وشارك في أعماله أكثر من خمسين باحثاً ينتمون إلى مختلف الأقطار العربية، واشتمل على 36 بحثاً تركزت على ستة محاور متعلقة بموضوع المؤتمر.

- "مؤتمر الجمعية العالمية الإسلامية للصحة النفسية"، وعقد في القاهرة عام 1991.

- "مؤتمر مركز الدراسات النفسية بطرابلس" (لبنان) عام 1994 تحت شعار "مدخل إلى علم نفس عربي"، وشارك فيه ممثلون عن جميع الأقطار العربية.

- ندوة "الثقافة النفسية"، وعقدت في القاهرة عام 1994 تحت عنوان "واقع تدريس العلوم النفسية في العالم العربي" (انظر 21، ص 152 - 170).

- "مؤتمر الرابطة السورية للطب النفسي"، وهو المؤتمر الثاني لهذه الرابطة، وعقد عام 1998 بالتعاون مع المكتب الإقليمي للجمعية العالمية للصحة النفسية.

- "مؤتمر الجمعية النفسية اليمنية"، وهو مؤتمر عالمي عقد في عدن عام 1997 بالتعاون مع جامعة عدن والاتحاد العالمي للصحة النفسية.

ومن المؤتمرات العربية الجامعة المهمة نشير إلى:

1. "المؤتمر التربوي للجمعية السورية للعلوم النفسية"

الذي عقد بالتعاون مع كلية التربية بجامعة دمشق في أيار - مايو عام 1997 تحت شعار "دور كليات التربية في تطوير التربية من أجل التنمية في الوطن العربي"، وشارك فيه عدد كبير من الباحثين من مختلف الأقطار العربية، وقد عقدت ضمن فعالياته ندوة نفسية بعنوان، "المرشد النفسي: إعداده، ودوره التنموي"، وحضره أكثر من 50 باحثاً واستمر أربعة أيام. وفي إطاره عقدت الورشة النفسية العربية الأول تحت عنوان "شخصية الإنسان العربي وسبل التدخل النفسي لتفعيل دورها الحضاري". وقد تم التأكيد في هذا المؤتمر على حاجتنا الماسة إلى مهارات وخبرات علماء النفس العرب، والحاجة إلى مؤسسات علمية ونقابية تجمعهم وتقوم في الآن نفسه بالدور المهني والنقابي والعلمي. وأكدت الورشة المصاحبة للمؤتمر على الهوية العربية الجمعية، وضرورة تخطي القيود النرجسية والتعمق في استكشاف الذات، ومحاولة

التناغم مع الواقع والانسجام معه. وطالب المؤتمر بضرورة توفير الإرشاد النفسي في حياتنا بأي وسيلة كانت "انظر 118".

2 . المؤتمر التربوي الثاني للجمعية السورية للعلوم النفسية، بالتعاون مع كلية التربية بجامعة دمشق،

تحت عنوان "نحو مشروع عربي لتوصيف مهن المساعدة النفسية وتسريع خدماتها" في الفترة الواقعة بين 17 . 19 أيار/ مايو 1998. واشتمل المؤتمر على ثلاثة وعشرين بحثاً ضمن خمسة محاور. واشترك الباحثون في ورشتين نفسيتين عقدتا في ثلاث جلسات: الأولى بعنوان "العلوم النفسية والشباب العربي"، والثانية "توصيف مهن المساعدة النفسية وتسريع خدماتها".

وقد صدرت عن المؤتمر والورشتين النفسيتين 14 توصية تحث على تفعيل مهن المساعدة النفسية وتطوير خدماتها ونشرها، وضرورة إدخال الإرشاد النفسي والمدرسي في مراحل التعليم المختلفة، والعمل على تأسيس جمعية عربية للاختصاصيين النفسيين لتوحيد جهود المؤسسات والروابط في جميع أقطار الوطن العربي (انظر 32).

3 . المؤتمر الرابع عشر لعلم النفس في مصر، والمؤتمر العربي السادس لعلم النفس.

وعقدا في شباط/ فبراير 1998 بمناسبة اليوبيل الذهبي للجمعية المصرية للدراسات النفسية، وبدعوة من الجمعية المذكورة والاتحاد العربي لعلم النفس؟ وبالاشتراك مع كلية التربية بجامعة عين شمس. وقد كان هذان المؤتمران تظاهرة علمية نفسية كبيرة، اشتملا على ثلاث ندوات: الأولى بعنوان "تطوير التعليم الجامعي وتنمية الشخصية المصرية، والثانية "الصحافة النفسية"، والثالثة "آفاق القرن الحادي والعشرين لعلم النفس في الوطن العربي"، وقدم إلى المؤتمرين 23 بحثاً لكبار أساتذة علم النفس وعمداء كليات التربية (انظر 30، ص 113 . 125).

وننوه أخيراً بمؤتمر "السيكولوجيا العربية"، الذي يعقد مرة كل عامين في بيروت بدعوة من مركز الدراسات النفسية (طرابلس . لبنان)، ويشارك فيه عدد كبير من المختصين النفسيين العرب (انظر 19، ص 53 . 58).

إن هذه الوقائع والأنشطة المتمثلة في انعقاد عديد المؤتمرات والندوات النفسية، القطرية والعربية الجامعة، وتأسيس عديد الجمعيات والروابط والتنظيمات النقابية المهنية، القطرية والعربية، وصدور عديد الدوريات النفسية، هذا بالإضافة إلى صدور أعداد كبيرة من الكتب

والبحوث النفسية العربية والمعربة، إن هذا كله يشير بوضوح إلى أن الباحثين النفسيين العرب قد أدركوا جيداً الحاجة الماسة للتعاون والتنسيق فيما بينهم، وتوحيد جهودهم من أجل توجيه العلوم النفسية نحو آفاق الحياة الرحبة، والخروج من دائرة الجامعات والمصحات والعيادات إلى المشاركة الفعالة في خدمة المجتمع وتنميته، ومواجهة التحديات الخطيرة التي يحملها القرن الحادي والعشرون. كما تدل هذه الوقائع للأنشطة النفسية العربية المتنوعة على تنامي حركة الاختصاص، وتعاظم أعداد المتحمسين لتطويع العلوم النفسية للواقع العربي من أجل تنمية المجتمع العربي وخدمة الإنسان العربي (انظر 19).

إن إنشاء مؤسسات علم النفس من جمعيات وروابط واتحادات يساهم في إبراز العلوم النفسية على الصعيدين العلمي والاجتماعي، وفي تحديد هويتها، ويفتح أمام علماء النفس الأبواب الواسعة لتلبية الحاجات الملحة لبلدانهم ومجتمعاتهم ومواطنيهم، ابتداء من صانعي السياسة ومتخذي القرار، ومروراً بأجهزة الإعلام والتدريب والإرشاد والخدمات النفسية والاجتماعية والتربوية، وانتهاء بالفرد العادي في حياته اليومية وسلوكه العادي (انظر 2، ص 22).

قبل أن ننهي حديثنا عن واقع مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي، لابد من الإشارة إلى جهود الجامعة العربية ودورها ودور مؤسساتها المختلفة ـ وبخاصة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ في تطوير العلوم النفسية والاجتماعية والتربوية. فقد افتتحت الجامعة منذ عام 1950 بالتعاون مع منظمة اليونسكو "مركز التربية الأساسية في العالم العربي، بسرس الليان في مصر، الذي يعد الخبراء الاجتماعيين والنفسيين من أجل تقديم العون لسكان الريف، ويساهمون في تنميته (16ج 1، ص 318 ـ 319)، كما يصدر هذا المركز مجلة "تنمية المجتمع"، وهي مجلة شهرية تصدر في القاهرة، هذا بالإضافة إلى المراكز والمؤسسات الأخرى التابعة للجامعة العربية، وبخاصة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بأنشطتها ومؤسساتها المتنوعة وإصداراتها المهمة، مثل: "المجلة العربية للبحوث التربوية"، و"المجلة العربية للثقافة"، و"المجلة العربية لبحوث التعليم العالي"، و"المجلة العربية للتربية"، وغيرها. ومن بين المراكز العربية التابعة للجامعة العربية والمعنية بمسيرة العلوم النفسية، نذكر أيضاً: "مركز البحوث الاجتماعية للعالم العربي" في القاهرة، و"معهد الدراسات العربية العليا"، و"معهد الإنماء العربي"، ومقره طرابلس بالجماهيرية الليبية، وله فروع في بيروت ودمشق والقاهرة، ويصدر سلسلة "الدراسات الإنسانية ـ علم النفس"، وتعنى عناية خاصة بالعلوم النفسية (انظر 16، ج1). ونشير أخيراً إلى اتحاد الجامعات العربية، ومقره عمان في الأردن، ويصدر دورية نصف سنوية، وهي "مجلة اتحاد الجامعات العربية".

د . آفاق تطوير العلوم النفسية في الوطن العربي

سبق أن ذكرنا في المقدمة أن زيادة الاعتماد على المعطيات التجريبية الدقيقة، وعلى الطرق الإحصائية والرياضية، وطرق القياس والاختبار الدقيقة، قد جاءت نتيجة حاجة موضوعية في المجتمعات الأوروبية. وهذه الحاجة هي التي أملت ضرورة انفصال علم النفس عن الفلسفة، وتحوله إلى علم تجريبي، ونتيجة الحاجة الموضوعية أيضاً تفرع علم النفس إلى مجموعة متكاملة من العلوم النظرية والتطبيقية التي تغلغلت في جميع جوانب حياة الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية، والمادية والروحية، والتي تعرف الآن باسم العلوم النفسية. وإذا كان هذا حال العلوم النفسية في أوروبا وأميركا والبلدان المتقدمة، فما هي حالها عندنا في الوطن العربي؟ والآن، ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين، وبعد أن توافرت لدينا مؤسسات التعليم العالي، من معاهد وجامعات ومراكز ومؤسسات، وحدثت تحولات وتغيرات عميقة في الوطن العربي، بدرجات متفاوتة من قطر لآخر، على جميع الأصعدة الزراعية والصناعية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وتأسست الجمعيات والاتحادات والروابط النفسية في غالبية أقطار الوطن العربي، فمن حقنا أن نتساءل بعد أن تحقق كل ما ذكرناه أعلاه:

ما هو دور العلوم النفسية في بناء المجتمع العربي وتنميته؟ وماذا قدمت هذه العلوم لأبناء المجتمعات العربية من التوعية والثقافة، والإعداد والتأهيل النفسي لتقبل واستيعاب التغيرات الجارية والمقبلة في بنية المجتمع، وللاستعداد أخيراً لدخول القرن الحادي والعشرين بما يحمله من تحديات موجهة على نحو خاص تجاه البلدان النامية، ومنها وطننا العربي، كالعولمة، والشرق أوسطية، واحتمالات الحرب والسلام، والتطبيع، وفقدان الهوية الثقافية، والغزو الإعلامي، وغيرها؟

في بحثه الموسوم بـ"بعض سمات علم النفس المعاصر وعلاقتها بتدريس علم النفس في المرحلة الجامعية"، والمقدم إلى المؤتمر الأول للجمعية السورية للعلوم النفسية الذي عقد في كلية التربية بجامعة دمشق "أيار - مايو 1997" يتحدث الباحث السعودي علي بن صديق الحكمي عن أهم سمات علم النفس المعاصر، فيجملها في سمات خمس هي: 1 - الصراع، 2 - أحادية الثقافة، 3 - أزمة الهوية، 4 - اتساع القاعدة المعلوماتية والتغير السريع، 5 - الصورة المشوهة (انظر 18). ولعل السمة الثالثة - أزمة الهوية - من أهم السمات التي تميز العلوم النفسية في الوطن العربي، في رأينا. حيث إن العلوم النفسية عندنا لاتزال تعتمد بصورة رئيسة على النظريات والمنطلقات والاختبارات والمقاييس النفسية ذات المنشأ الغربي، الأمر الذي أدى إلى اتسام العلوم النفسية

العربية بالسمة الغربية، بدلاً من أن تكون لها هويتها المتميزة القائمة على معطيات الثقافة العربية والواقع العربي. وفي كتابه "واقع التجربة السيكولوجية في الوطن العربي" (1994) يعالج الباحث الغالي أحروشاه أزمة الهوية في علم النفس العربي، فيرى أن "المشكل الحقيقي يتجلى في عدم أصالة إنتاجنا السيكولوجي، وأن خطابنا السيكولوجي لم يتجرد بعد من الدور الذي يلعبه كوكيل فرعي لمدارس واتجاهات سيكولوجية لا علاقة لها بخصائص الإنسان العربي ومقوماته الأساسية" (4، ص 9)، ولا رابط بينها وبين واقع الإنسان العربي وبيئته. وقد أدى انعدام وجود الهوية المتميزة للسيكولوجيا العربية، وتأثرها الكبير بالنماذج والنظريات الغربية، إلى محدودية الابتكار، وقلة الإسهامات الأصيلة لعلم النفس العربي. أما بالنسبة للصورة المشوهة لعلم النفس المعاصر فهي سمة ملحوظة داخل الوطن العربي وخارجه. وهذه السمة، أي الصورة المشوهة لعلم النفس المعاصر، قد جاءت نتيجة أفكار مسبقة وخاطئة عن العلوم النفسية. ويؤكد عالم النفس ستانوفيتش [STANOVICH 1992] أن علم النفس يعاني من مشكلة الصورة، وأن معظم الناس لا يعرفون علم النفس بصورته الصحيحة، وهنالك خلط كبير بين علم النفس، كعلم ذي منهجية علمية، وبين موضوعات أخرى لا علاقة لها بعلم النفس، كالتخاطر، والاستشفاف LAIRVOYANCE، والحركة النفسية PSYCHOKINESIS، وسبق المعرفة PRECOGNITION، وغيرها.

ويرى الباحث الأستاذ فؤاد أبو حطب، في حديثه عن مستقبل علم النفس في الوطن العربي، أن هنالك ثلاثة احتمالات أمام علم النفس في الوطن العربي، وتتمثل هذه الاحتمالات بثلاثة "سيناريوهات": الأول هو "السيناريو" التشاؤمي الذي يقضي باستمرار الحال على ما هو عليه، كما ستستمر العوامل المعيقة لتطور علم النفس. وأما الاحتمال الثاني فهو أكثر تفاؤلاً، ويستند إلى النموذج التطوري، حيث من المتوقع في ضوئه تزايد الجهود الإبداعية والتجديدية القليلة التي قام بها وأنجزها علماء النفس العرب. وأما الاحتمال الثالث فهو "السيناريو التحويلي، أو الثوري"، حيث من المتوقع في ضوئه حدوث تغيرات جوهرية في علم النفس كعلم وكمهنة في الوطن العربي، وهو يتطلب تحولات فائقة السرعة، في ضوء الموجة المعلوماتية الثالثة التي سيشهدها القرن الحادي والعشرون، حتى يتمكن من أداء دوره في نظام كوني وكوكبي جديد.

ويرى الدكتور أبو حطب، ونحن معه في هذا الرأي، أن السيناريو الثاني، أي النموذج التطوري، هو الاحتمال الأكثر قابلية للتحقق في ضوء ظروف الوطن العربي وأوضاعه (3 ص 18.127).

ونحن نرى أن العلوم النفسية في الوطن العربي يجب أن تنطلق من كون علم النفس هو علم تجريبي تطبيقي، وليس علماً نظرياً تأملياً، ومن ضرورة الربط الوثيق بين العلوم النفسية من ناحية، وبين البيئة العربية والثقافة العربية، وخطط البناء الاجتماعي والتنمية الاجتماعية في الوطن العربي، وأحدث منجزات العصر الحديث من ثقافات واتصالات وشبكات معلوماتية من ناحية أخرى.

ومن المناسب أن نرجع ثانية إلى المؤتمر الأول لعلماء النفس المصريين، الذي انعقد في القاهرة عام 1971، تحت شعار "علم النفس والتنمية الاجتماعية". ونلاحظ هنا ملاحظة اعتراضية قبل الحديث عن هذا المؤتمر، وهي أن هذا الشعار الذي طرح قبل ربع قرن لايزال شعار جميع مؤتمرات العلوم النفسية التي تعقد الآن، وهو إنْ دل على شيء فإنما يدل على أن هذا الشعار لايزال مطلباً لم يتحقق، ولم يتحول إلى واقع وحقيقة. من بين أهم التقارير التي قدمت إلى هذا المؤتمر تقرير د. فرج أحمد فرج، "التطور الاجتماعي وآثاره النفسية في مصر"، وأكد فيه أن تغيير البنية الفوقية لا يمكن أن يتم بإجراءات قانونية، أو تشريعية، وبقرارات، أو مراسيم، وذكر أن "التغيير في البناء الفوقي، أي في الفلسفة والقيم والتشريع والموقف مع العالم بعامة، هو الذي يعني المشتغلين بالعلوم النفسية. فالبناء الفوقي يتضمن - في ما يتضمن من أبعاد - بناء الأفراد النفسي، وقيمهم واتجاهاتهم وأنماط سلوكهم في مواجهة مختلف المواقف الاجتماعية" [21، ص50] وسلط الباحث فرج في تقريره الأضواء على الجانب النفسي لأهم مسائل التحولات الاجتماعية والاقتصادية، كما أشار إلى دور علم النفس وعلماء النفس في قضية التحول الاجتماعي، وفي تقديم العون لهيئات ومؤسسات الدولة والإدارة والتخطيط في سبيل تكوين إنسان متطور من جميع الجوانب (انظر 12، ص 50 - 51). في كتابه "المنهج العلمي في دراسة المجتمع" يتناول د. حامد عمار الباحث المصري المعروف مسألة العلاقة بين القاعدة التجريبية والتحليل النظري في الدراسات النفسية. ومع تركيزه الشديد على أهمية استخدام طرائق البحث التجريبي، يشير في الوقت نفسه إلى ضرورة التحليل النظري العام للظواهر الاجتماعية، ويقول: "لابد من أن تعقب الدراسة التجريبية للظواهر الاجتماعية نظرة متكاملة شاملة توضح مكان هذه الظاهرة إلى جانب الظواهر الأخرى في المجتمع" [9، ص 14]. كما يشير إلى أن الظاهرة الاجتماعية تعد جزءاً لا يتجزأ من الموقف الاجتماعي الكلي، ولا يمكن بحثها إلا في ضوء الارتباط بالظواهر والمفردات الاجتماعية الأخرى لهذا الموقف [ب9، ص 11] وقد خرج مؤتمر علماء النفس الأول في مصر بعدد كبير من التوصيات أهمها:

- ضرورة إحداث هيئة قومية ترعى البحوث النفسية وتنظمها وتشجعها.

- تشكيل لجنة مختصة تقوم بوضع القوانين واللوائح لمهنة الاختصاصي النفسي وتحديد أعماله ووظائفه.
- توجيه العناية والاهتمام إلى دراسة مشكلات الطفولة والشباب ومشكلات تعليم الكبار.
- تكوين لجنة مختصة لتقويم الدراسات والبحوث النفسية التي أجريت للعمل على تطبيق نتائجها.
- ضرورة تعميم نظام المرشد النفسي والأخصائي النفسي التربوي في مختلف مراحل التعليم.
- ضرورة الاهتمام بدراسة المجتمع الإسرائيلي لمجابهة الحرب النفسية الإسرائيلية (13، ص 36).

إذا ما قارنا هذه التوصيات المذكورة أعلاه بتوصيات المؤتمرات والندوات النفسية القطرية والعربية الأخيرة التي عقدت في أواخر التسعينيات، لوجدنا أن أكثرها لايزال يتكرر في المؤتمرات الأخيرة رغم انقضاء ربع قرن وأكثر، وأن غالبيتها لم تتحقق حتى الآن... وهذا إنْ دل على شيء فإنما يدل على البطء السلحفاتي في مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي، رغم ظهور عديد المؤسسات النفسية من جمعيات وروابط واتحادات. فنظام المرشد النفسي والاختصاصي النفسي التربوي لم يعص، ولم يطبق إلا في ما ندر من الأقطار، والمجتمع الإسرائيلي لم يدرس حتى الآن دراسة كافية من أجل مجابهة العدوان والاحتلال والمؤامرات والحرب النفسية الإسرائيلية.

يرى الباحث د. أبو حطب أن هنالك أربعة عوامل رئيسية قد تؤدي إلى الإسراع بمسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي، وتطويرها، وهي:

1 - تحرير مفهوم التنمية من النماذج الخارجية الغربية، وإحلال النموذج الخاص لهذه التنمية الملائم لثقافتنا وشخصيتنا العربية.

2 - التفاعل الإبداعي بين التراث القومي والحاجات المعاصرة، وجعل العلوم عامة، وعلم النفس خاصة، جزءاً من الممارسة الاجتماعية اليومية.

3 - الحث على تنمية الفكر السيكولوجي الإبداعي، والخروج من التبعية إلى الابتكارية، ومن التقليد إلى التجديد.

4 - البحث عن هوية مهنية جديدة لعلم النفس (انظر 2، ص 18 - 21).

في ضوء ما تقدم، نرى التأكيد على المقترحات والتوصيات التالية التي يمكنها، في رأينا، المساهمة في دفع مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي إلى الإمام، والعمل على تطويرها:

1) تفعيل جميع المؤسسات النفسية القطرية والعربية، من روابط وجمعيات واتحادات، وتحقيق التعاون والتنسيق في ما بينها، تحقيقاً للتواصل بين علماء النفس العرب،

وتوفيراً للأرضية العلمية والمهنية المشتركة للنهوض بالعلوم النفسية لكي تؤدي دورها المطلوب في بناء المجتمع وتنميته.

2) ربط تدريس المقررات النفسية بمختلف فروعها ومجالاتها وميادينها بالمؤسسات المعنية من اجتماعية وصحية وثقافية وإعلامية وتربوية.

3) إعادة النظر في إعداد المختصين بالعلوم النفسية، بحيث لا يقتصر إعدادهم على مهنة التعليم وحدها، بل يشمل جميع الميادين التي دخلتها فروع علم النفس، كالصناعة والتجارة، والإعلان والإعلام، والجيش والشرطة، والقضاء، والثقافة والفنون، وغيرها من المجالات، الأمر الذي يؤدي إلى توسيع مجالات العمل أمام المختصين بالعلوم النفسية، والإفادة منهم في مختلف جوانب الحياة والعمل والإنتاج.

4) العمل على نشر الثقافة النفسية، وتوحيد المصطلحات النفسية على مستوى الوطن العربي، وهذا أمر يمكن تحقيقه من خلال التعاون والتنسيق بين الجمعيات النفسية القطرية والعربية، الأمر الذي ينعكس على ما تصدره هذه الجمعيات والاتحادات والمؤسسات النفسية من كتب ودوريات علمية. كما يمكن للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية أن تقوم بدور كبير في هذا المجال.

5) تأسيس معاهد خاصة بالعلوم النفسية التطبيقية، كمعهد علم النفس الصناعي، والتجاري والإعلامي، ومعاهد الرأي العام، وغيرها من المعاهد المتخصصة الأخرى، نظراً لدورها الكبير في الحياة الاجتماعية والسياسية المعاصرة.

6) ضرورة إحداث وظيفة المرشد النفسي، والمرشد النفسي التربوي، والمرشد النفسي الاجتماعي في جميع المؤسسات التعليمية والتدريبية والإنتاجية، من مدارس ومعاهد وجامعات، ومعامل ومصانع ومؤسسات من أجل حل المشاكل النفسية، والنفسية التربوية، والنفسية الاجتماعية للتلاميذ والطلاب والعاملين في قطاع الإنتاج، وهذا ما أكدت عليه جميع الندوات والمؤتمرات والورشات النفسية.

7) التنسيق مع وسائل الإعلام المقروءة والمرئية المسموعة لنشر الثقافة النفسية الصحيحة، وإعداد البرامج النفسية بإشراف خبراء ومختصين نفسيين.

8) العمل على زيادة الاهتمام في أقسام وكليات علم النفس والمؤسسات الأكاديمية الأخرى المعنية - بتدريس العلوم النفسية - بالجذور الأول لعلم النفس، وبتاريخ الأفكار النفسية في حضارات الوطن العربي القديمة، وبخاصة في الثقافة العربية الإسلامية، تحقيقاً لربط العلوم النفسية بالبيئة والثقافة العربية، وتأكيداً للحقيقة الموضوعية

والإنصاف، وإبراز دور الوطن العربي والثقافة العربية الإسلامية في طرح المواضيع والأفكار النفسية ومعالجتها، حيث أن معرفة ماضي أي علم شرط مهم من شروط تطويره.

9) السعي عن طريق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى إصدار معجم موحد للمصطلحات النفسية (إنكليزي - فرنسي - عربي)، أسوة بإصداراتها المماثلة، مثل المعجم الطبي الموحد، والمعجم العربي الموحد للمصطلحات العسكرية، ورفده بملاحق دورية من أجل تغطية المصطلحات النفسية الجديدة، تحقيقاً لهدف إيجاد لغة سيكولوجية عربية موحدة ومشتركة بين الباحثين العرب، وتخلصاً من تباين وفوضى الترجمات الفردية الخاصة لهذه المصطلحات.

10) العمل على إصدار مجلات تخصصية بالعلوم النفسية، من قبل الكليات والجمعيات التي لا تصدر مثل هذه المجلات.

11) تحقيق التواصل واللقاءات بين الباحثين النفسيين العرب من جهة، وبينهم وبين الباحثين النفسيين الأجانب في الدول الإسلامية والبلدان الأوروبية والآسيوية من جهة أخرى، لتبادل الرأي وإيجاد الحلول للمشكلات والمعوقات التي تعترض مسيرة العلوم النفسية، وتعزيز المشاركة العربية في المؤتمرات النفسية العالمية، والتشاور بين أعضاء الاتحاد العربي لعلم النفس لتنسيق مشاركة علماء النفس العرب فيها، حيث أن هذه المؤتمرات العالمية هي الخطوة الأول نحو العالمية.

المراجع:

ملاحظة:

لتجنباً لتكرار أسماء المراجع في الهوامش، رأينا ترتيب مراجع البحث هجائياً، حسب كنية المؤلف، وأعطيناها أرقاماً متسلسلة، فالرقم الأول بين القوسين يشير إلى رقم المرجع في قائمة المراجع هذه، والأرقام التي تليه تشير إلى أرقام الأجزاء أو الصفحات.

1 - إبراهيم، عبد الستار: النظرة العلمية ومؤتمرات علم النفس. مجلة "الفكر المعاصر" القاهرة، العدد 67، حزيران/ يونيو 1971، ص 31 - 35.

2 - أبو حطب، فؤاد: "مسيرة البحث في علم النفس في العالم العربي وآفاق تطويره". بحث مقدم إلى مؤتمر "دور كليات التربية في تطوير التربية من أجل التنمية في الوطن العربي". كلية التربية، جامعة دمشق 11 - 13 أيار/ مايو 1997.

3 ـ اتحاد الجامعات العربية. دليل الجامعات العربية. القاهرة، 1969، الرياض 1980.
4 ـ أحروشاه، الغالي. واقع التجربة السيكولوجية في الوطن العربي. بيروت، المركز الثقافي العربي 1994.
6 ـ جلال، سعد. المرجع في علم النفس. القاهرة، 1974.
7 ـ دياب، لطفي. نشاط العرب في العلوم الاجتماعية في مئة عام. لبنان، بيروت 1965.
8 ـ عاقل، فاخر. نشاط العرب في العلوم الاجتماعية في مئة عام. سوريا، بيروت 1965.
9 ـ عمار، حامد. المنهج العلمي في دراسة المجتمع. القاهرة، 1960.
10 ـ عيون السود، نزار. نشوء وتطور الفكر النفسي الاجتماعي عند العرب. دمشق، اتحاد الكتاب العرب 1995.
11 ـ الفارس، خالد. جامعة دمشق في عامها الثمانين. "المجلة العربية لبحوث التعليم العالي" المركز العربي لبحوث التعليم العالي. دمشق، العدد1، تموز/ يوليو 1984، ص 69 ـ 92.
12 ـ فرج أحمد فرج. التطور الاجتماعي وآثاره النفسية في مصر. مجلة "الفكر المعاصر". القاهرة، العدد 77، تموز/ يوليو 1971، ص 48 ـ 56.
13 ـ فطيم، لطفي. المؤتمر الأول لعلم النفس بالقاهرة. مجلة "الفكر المعاصر" القاهرة، العدد 76، حزيران/ يونيو، 1971، ص 31 ـ 35.
14 ـ مخيمر، صلاح. دراسة نقدية من زاوية علم النفس للتغير الاجتماعي. مجلة "الفكر المعاصر". القاهرة، العدد 77، تموز/ يوليو 1971، ص 41 ـ 56.
15 ـ مراد، يوسف. نشاط العرب في العلوم الاجتماعية في مئة عام. مصر، بيروت، 1965.
16 ـ مليكة، لويس كامل. قراءات في علم النفس الاجتماعي في البلاد العربية. المجلد 1، 2 القاهرة 1965، 1970.
17 ـ موسى، سلامة. تراث مصر الفكري والفلسفي. مجلة "المقتطف". القاهرة، أيلول/ سبتمبر، 1936، ص 93 ـ 101.
18 ـ المؤتمر التربوي "دور كليات التربية في تطوير التربية من أجل التنمية في الوطن العربي". كلية التربية ـ جامعة دمشق 11 ـ 13 أيار/ مايو، 1997.
19 ـ النابلسي، محمد أحمد، شاهين، روز ماري. واقع الجمعيات النفسية العربية. مجلة "دراسات عربية". بيروت، العدد 11 ـ 12 ـ أيلول، تشرين أول/ سبتمبر، أكتوبر 1998، ص 139 ـ 144.
20 ـ الندوات والمؤتمرات تقرير عن المؤتمر العربي لعلم النفس. مجلة "الثقافة النفسية

المتخصصة". بيروت، العدد 35" المجلد 9، تموز/ يوليو 1998 ص 113 ـ 135.

21 ـ ندوة "الثقافة النفسية في القاهرة". مجلة "الثقافة النفسية". بيروت. العدد 18، المجلد 5، نيسان/ أبريل 1994، ص 152 ـ 170.

22 ـ الورشة العربية الثانية "نحو مشروع عربي لتوصيف مهن المساعدة النفسية وتسريع خدماتها". كلية التربية ـ جامعة دمشق، 17 ـ 19 أيار/ مايو 1998.

23 ـ Abou . hatab، F Psychological controls of rapid social Change. 26th International Congress of Psychology. Montreal، Canada 1996.

24 ـ Stanovich، K.F. How to think straight about Psychology (3rd. ed) New york، 1992، Harper collins.

http://www.arabpsynet.com/Archives/OP/OP.Nizar.PsyArabHistory.htm

ملامح من تاريخ الطب النفسي في السودان

لواء طبيب: نور الهدى محمد الشفيع
استشاري الطب النفسي أستاذ مشارك
رئيس قسم الطب النفسي/ جامعة الرباط

مقدمة

أشارت حفريات علماء الآثار إلى وجود جماجم آدمية بها ثقوب كأنها عمليات جراحية أجريت قبل نحو 500 سنة قبل الميلاد، واعتبر هذا قرينة على أن هذه طريقة لعلاج المرض النفسي آنذاك.

وقد عارض أبقراط (أبو الطب 322 - 460 قبل الميلاد) فكرة أن المرض هو عقاب من الإله، وسخر من مفهوم أن الصرع مرض مقدس، وفي العصور الوسطى اعتبر المرض العقلي حزن روحاني مرتبط بالساحر والعراف.

وأسس أقدم مستشفى في لندن عام 1247 م للعناية بالمخبولين.

وفي عصر النهضة والإصلاح، ظل المرضى العقليون مبعدين اجتماعياً، ولكن في القرن السابع عشر طورت أماكن مخصصة لهم، وكان أول من استخدم مصطلح الطب النفسي هو (RIEL) أستاذ الطب (1808م) بألمانيا.

الطب النفسي في السودان

الطب النفسي في السودان، ووضعه كطب نفسي حديث، لم يكن موجوداً حتى بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تم افتتاح أول مستشفى للعلاج النفسي للحالات في الطب النفسي

الشرعي في العام 1950م في الخرطوم، شمال، تبعها بعض الوحدات الخاصة للعلاج النفسي في بعض المستشفيات، مثل ود مدني، وبورتسودان، والأبيض، وعطبرة. وفي العام 1964م، تم افتتاح قسم فيه 30 سريراً في مستشفى الخرطوم، وفي العام 1971 م وضعت الخطة للعمل في المستشفى الطب النفسي في أمدرمان، وهنا كانت البداية الجديدة، والتي نظنها طفرة للطب النفسي في السودان.

ومن ثم أصبحت السياسة للعلاج النفسية وجود وحدات قريبة من العلاج العام وقريبة المجتمع.

المرحوم التجاني الماحي هو أول طبيب تخصص وتفرغ لعلاج المرضى المختلين عقلياً والمضطربين نفسياً في السودان، وعمل استشارياً لمنظمة الصحة العالمية في مكتبها الإقليمي لشرق البحر الأبيض المتوسط، وأصبح عضواً في مجلس السيادة السوداني بعد ثورة أكتوبر 1964م، وشغل كرسي ورئاسة قسم الطب النفسي بكلية الطب في جامعة الخرطوم.

وقد ساهم وأشرف على تأسيس وافتتاح مصحة الخرطوم بحري (كوبر) عام 1950م، لرعاية وعلاج مرضى الإضطرابات العقلية والجنائية، وقد أطلق عليه لقب أب الطب النفسي في أفريقيا.

مستشفيات الصحة النفسية:

مستشفى بروفيسور عبد العال الإدريسي (مصحة كوبر سابقاً)

وضع حجر الأساس لمصة كوبر للأمراض النفسي والعقلية في العام 1948م، وقد تم افتتاحها في العام 1950م، وكانت تابعة إدارياً للسجون، وفنياً تحت إشراف وزارة الصحة. وكانت بداية الطب النفسي الحديث بعودة البروفيسور التجاني الماحي من بلاد المهجر عام 1949م، بعد تخصصه في الطب النفسي، وقام بالإشراف والمتابعة والمشاركة في افتتاح المصحة في العام.

تم تحويل المرضى من كل السجون في السودان إلى المصحة، وكان عددهم (100) نزيل، وكان يطلق عليهم لفظ المعاتيه.

تم تحويل مسمى مصلحة السجون إلى الإدارة العامة للسجون والإصلاح، وتم تحويل المصحة فنياً وإدارياً للسجون.

كانت تسمية النزلاء من المرضى النفسيين المنقولين من السجون بالسودان بالمعاتيه، وهم

من العنصر الرجالي حتى العام 1960م.

وقد تم عسكرة كل الكادر العامل في العام 1987 ـ 1988م، بينما تم تحويل الاسم إلى مصلحة بالخرطوم بحري للأمراض النفسية والعقلية. يوجد نص في قانون السجون يوضح كيفية الدخول، وهنالك تعريف للمعتوه (المريض النفسي) بالقانون.

وقد تم عسكرة كل الكادر العامل في العام 1987 ـ 1988م، بينما تم تحويل الاسم إلى مصلحة بالخرطوم بحري للأمراض النفسية والعقلية. يوجد نص في قانون السجون يوضح كيفية الدخول، وهنالك تعريف للمعتوه (المريض النفسي) بالقانون.

وقد كان يوضع في القيد كحفظ له ووقاية للآخرين، ولا يوجد علاج، حيث كان العلاج المتوافر عبارة عن علاج بالصدمات الكهربائية، وكان الدخول إلى المصحة بلا خروج، ولا يوجد كادر طبي متكامل إنما فقط يوجد طبيب واحد يشرف على كل المرضى، ولا يوجد ملفات طبية، ولا تدوين يومي للملاحظات عن المرضى.

في العام 1994م، تم ضم جميع المصحات إلى دائرة الخدمات الطبية بعد زيارة وزير الداخلية إلى مصحة الخرطوم بحري، دون أن تكون هنالك إضافة، أو تغيير، في طريقة العلاج، أو الفهم للمعاملة للمريض النفسي.

في العام 1995م، تم انتداب الدكتورة نور الهدى محمد الشفيع من قبل وزارة الصحة، فبدأت المحاولات بمجهود شخصي في توفير العلاج، حيث جلبت بعض الأدوية من مضادات الذهان والإكتئاب، واستحدثت عمل الملفات الطبية للمرضى، وكانت توفر بعض معاينات العمل واحتياجات المرضى من ملابس وأشياء أخرى.

وفي العام 1998م، تم تعيين الدكتورة نور الهدى محمد الشفيع في وزارة الداخلية برتبة العميد شرطة، وفي العام نفسه تم تعيينها مديراً لإدارة المصحات. وبدأت العمل بوضع خطة على محاور عدة لتطوير المصحات والسير بها في اتجاه جعلها مستشفيات للصحة النفسية. المحور الفني، والذي اشتمل على توفير الخدمات الصحية المتكاملة، وذلك بإيجاد وتوفير العلاج، واستكمال الحلقة بالنسبة للكادر الطبي العامل. أيضاً، توفير الغذاء والكساء، وكيفية كسر القيود من جميع المرضى داخل السجون، عن طريق التابعة وعمل الملفات، وتوفير الدواء، وتوفير الفريق الذي يقوم بالإشراف الطبي، وأهمها تدريب مساعدين طبيين نفسيين للولايات.

وفي العام 2000م، تم تحويل مسمى الخرطوم بحري للأمراض النفسية والعصبية إلى المستشفى المركزي للطب النفسي، وبإلغاء كلمة مصحة لتخرج من قانون السجون، ويجري

العمل الآن لإجازة قانون الصحة النفسية الموجود على شكل مسودة، وهنالك لجنة من عدد من الاستشاريين تقوم بهذا العمل.

وتوسعت المستشفى بعد ذلك في اتجاه تقديم الخدمات العلاجية النفسية، والعلاج بالأدوية الحديثة، والعلاج بالعمل والرياضة والفنون المختلفة، إلى جانب الأنواع الأخرى للعلاج النفسي.

تم استقطاب عدد من اختصاصيي الطب النفسي، وآخرين من المعالجين النفسيين والاجتماعيين، وقبل ذلك تمت عسكرة عدد منهم في مختلف الرتب لإكمال الفريق العلاجي، أما على مستوى المباني فقد تم تشييد عنابر جديدة، وتمت تهيئة المكان هندسياً وبيئياً، ليصبح منشأة علاجية لها كل صفات المستشفى الحديث.

وتم تعيين طبيب صيدلاني للإشراف على الإمداد الدوائي من الأدوية الحديثة التي يتم إعطاؤها للمرضى مجاناً، والإشراف على توزيعه كحصص على بقية المصحات.

بالإضافة إلى إدخال بعض الأدوية التي لم تكن موجودة بالبلاد بعد الإتصال بالجهات ذات الصلة للموافقة على استيرادها.

لقد تحويل مسمى إدارة المصحات إلى دائرة الصحة النفسية، وفي العام 2006م، تم تحويل مسمى المستشفيات المركزي للطب النفسي إلى مستشفى البروفيسور عبد العال الإدريسي، وتم إرسال عدد (10) ممرضات خريجات ضابطات بمختلف الرتب لجمهورية مصر العربية للتدريب في مجال التمريض النفسي، وهي أول تجربة بالسودان لإيجاد الممرض المتخصص لتمريض المريض النفسي.

تتواصل الجهود لتنفيذ هذه الخطة التي أحدثت نقلة استطعنا عبرها استعادة وحفظ حق المريض، ففي العيش الكريم الذي يستحقه، ولم يكن متوفراً له من قبل.

ومازالت المحاور في تسلسلها لتدفع بالتوعية والتنوير لمفاهيم المرض النفسي قدماً بتصحيح الاتجاهات السالبة نحوهم.

بعد ذلك، بدأت مرحلة جديدة، وذلك بإنشاء مباني جديدة بمواصفات تقدم خدمات صحية ونفسية متطورة، وعلى أعلى مستوى للمريض النفسي الذي وقع تحت طائلة القانون، ومازال العمل جارياً لتنفيذ الخطة المتكاملة لمبنى يحتوي على العيادات الخارجية والإدارة.

مستشفى طه بعشر:

كان للمرحوم الأستاذ طه بعشر تلميذ وصديق الرائد المرحوم د. التجاني الماحي دور في تنشيط وتفعيل الأداء في الطب النفسي، بدأ مستشفى طه بعشر كعيادة صغيرة، وتم إيجار

منزل معها لإقامة المرضى وأهلهم الحاضرين من الولايات المختلفة، وبعد تزايد عدد المرضى تم إنشاء عيادة أكبر من الناحية الشمالية الغربية من مستشفى الخرطوم بحري، ووضع حجر الأساس عام 1959م، تم بناؤها وافتتاحها العام 1960م، حيث أصبحت مكان مناسب للعلاج والتدريس والتدريب، بعد ذلك تطورت لتصبح مستشفى بها أسرة للتنويم والمتابعة واستقبال الحالات الحرجة، وأيضاً يقوم بالتدريب والتأهيل لطلاب الجامعات وطلاب الدراسات العليا من الأطباء النفسيين والاجتماعيين وأطباء الامتياز.

مستشفى التجاني الماحي:

ظل مستشفى الإرسالية الإنجليزية في أمدرمان يدعم من وزارة الصحة حتى العام 1969م، حيث توقف الدعم، وأصبح من الصعب على الإرسالية تسييره وعرضه على الأقسام العامة بالوزارة لتقديم طلباتهم حتى يتم تخصيصه لواحدة منهم، ولكن لم يتقدم إلا الطب النفسي، ومن ثم تم ضمه بصورة رسمية، وفي العام 1971م اكتمل المستشفى بوحداته المختلفة، وتم تسميته باسم (التجاني الماحي).

يعتبر المستشفى من أكبر المستشفيات النفسية في السودان، ويستقبل جميع المرضى النفسيين على مختلف أعمارهم من الجنسين، وبها حوادث للحالات الطارئة.

تستقبل المستشفى الطلاب للتدريب والتأهيل من طلاب الطب والدراسات العليا أيضاً في مجال علم النفس والإجتماع، تم إعلانها عام 2009م كمركز للتدريب.

المستشفى النفسي العسكري بالسلاح الطبي:

يقدم الخدمات للمرضى من أفراد الجيش إلى أن تم تحديث مبانيه ليصبح مستشفى يقدم العلاج لكل أفراد المجتمع، ومن ضمن أقسامه قسم علاج الأطفال، وقسم علاج الإدمان.

مراحل التطور:

من عام 1957م - 1969م، تم التخطيط لوضع استراتيجية بناء وتطوير الخدمات الصحية والنفسية في إطار النظام العام.

- في العام 1960م، تم إنشاء عيادة الأمراض النفسية والعصبية في الخرطوم بحري.
- 1962م تأسيس قسم النفسية في مستشفى الخرطوم التعليمي.
- أعطي المرضى النفسيين الذين ارتكبوا جرائم اعتباراً خاصاً، وكان هنالك تعاون تام

بين وزارة الداخلية ووزارة الصحة من الناحية الفنية، كانت البداية بمصحة الخرطوم بحري التي افتتحت في العام 1950م، ثم تحولت في أواخر التسعينيات إلى المستشفى المركزي للطب النفسي، وقد أعلنت دائرة المصحات العام 1998م، وتحولت من مصحات دائرة الصحة النفسية في العام 2005م، وتضم هذه الدائرة مستشفى كل من ولاية الخرطوم - الجزيرة - القضارف - كسلا - البحر الأحمر.

- أنشئت وحدات للطب النفسي في كل من عطبرة - مدني - بورتسودان - الأبيض كوستي - الفاشر.
- وضعت وزارة الصحة سياسة للصحة النفسية تتضمن:
- وضع برامج خاصة بتطير خدمات الطب النفسي والصحة النفسية والاشراف المباشر على تنفيذها.
- الاشراف على مزيد من التوسع في تقديم خدمات الطب والصحة النفسية، بدمجها داخل مؤسسات الرعاية الصحية الأولية.
- التوسع في تقديم خدمات الطب النفسي والصحة النفسية للأطفال والمراهقين وذوي الإحتياجيات الخاصة بجميع ولايات السودان.
- التوسع في تقديم خدمات الطب النفسي والصحة النفسية للمسنين.
- التوسع في تقديم خدمات الطب النفسي والصحة النفسية لمتعاطي ومدمني الخمور والمخدرات.
- التوسع في تقديم خدمات الطب النفسي والصحة النفسية للفئات الأكثر عرضة للإصابة، مثل الشباب والفتيات.
- التوسع في برامج التثقيف الصحي، ورفع مستوى الوعي داخل المجتمع في ما يتعلق بالأمور النفسية ونوعية الخدمات المتاحة من أجل تشجيع مزيد من الأفراد والأسر للإقبال.

كما وضعت الخطط لتدريب الأطباء والكوادر في مجال الطب النفسي والصحة النفسية، وإتاحة الفرصة لمزيد من الأطباء للتخصص في الطب النفسي وللاختصاصيين بالتخصص الدقيق في مجالات:

الطب النفسي للأطفال والمراهقين، الطب النفسي في مجال التعاطي والادمان، الطب النفسي والصحة النفسية المجتمعية، استشارية الطب النفسي داخل المستشفيات العامة، تدريب الكوادر المساعدة.

البحوث في مجال الصحة النفسية:

أجريت عدد من البحوث في مجال الصحة النفسية، منها على سبيل المثال:

- الآثار النفسية وعلاجها على أثر تهجير وترحيل الجماعات السكانية، ومثال لذلك هجرة أهالي حلفا في شمال السودان إلى خشم القربة في وسط السودان عام 1961م عند بناء السد العالي جنوب مصر.
- دراسة ممارسة العلاج الشعبي لمرضى الاضطرابات النفسية والعقلية في كل من أن ضوا بان (البطانة) وبعض قرى الجزيرة.
- تنظيم برنامج مشترك مرة في الأسبوع، مثل مايم في طيبة الشيخ عبد الباقي بغرض تقييم وتقديم العلاج التقليدي الشعبي والتدريب على مستوى الرعاية الصحية الأولية.

الدراسات العليا في جامعة الخرطوم (1989م)، وتخصص الطب النفسي:

كانت أول مجموعة لهذا التخصص، والتي تخرجت بدرجة الدكتوراه في الطب النفسي الإكلينيكي في بداية العام (1995م)، إضافة حقيقية لتطور خدمات الطب النفسي، وقد قدمت لنيلها أطروحات تكميلية شملت عدداً من المواضيع الهامة.

وثم بدأت الدراسات العليا بمجلس التخصصات الطبية بتخريج دفعات من الزمالة في تخصص الطب النفسي، مما جعل الزيادة الملحوظة في توفير الخدمات الطبية والتوسع فيها على جميع أنحاء السودان.

محمد أحمد النابلسي

الحرب النفسية في العراق

متابعة للجوانب النفسية في الحرب
الأميركية على العراق

إن القراءة النفسية للحرب على العراق هي مهمة ملقاة على عاتق فروع اختصاصية متداخلة. وهي ستشغل العاملين في هذه الفروع على مدى سنوات قادمة. وعليه فإن ما نقدمه في هذه الدراسة ليس سوى مقدمة لقراءات نفسية لاحقة تنتظر ظهور معلومات جديدة عن خلفيات هذه الحرب وأسرارها وصفقاتها الخفية.

المؤتمر العلمي السنوي لقسم الصحة النفسية
كلية التربية- جامعة بنها

الصحة النفسية: نحو حياة أفضل للجميع
العاديين وذوي الاحتياجات الخاصة
17-19 يوليو 2011 م

مقدمة

من الضروري أن نعيش إطلالة مرحلة متعلقة بالصحة النفسية، ترتسم على محياها بسمات الأمل وإشراقات الفأل، لتحقق مستقبل أفضل بإذن الله، ولدفع عجلة تقدم الأمم والمجتمعات. ولا شك أن المستقبل الذي نسعى إليه جميعاً مرهون بالحاضر، وما يدور في الخاطر، هذا الحاضر المليء بعديد ظواهر الحياة، كل منها له قوانينه الخاصة، ومناهجه الخاصة في البحث والدراسة، حيث أصبحت الظواهر النفسية تتجسد في الواقع العياني في تشكيلة من التباينات لا نهاية لتباينها بتباين السياقات. هذا، وتعد الصحة النفسية بمثابة الكنز والذخر، ونعم القرين إذا ما صاحب صاحبه، فهي مصابيح الإبصار التي تضيء الطريق للجميع للوصول إلى حلول إيجابية لشتى مشكلات الحياة العامة والخاصة التي يعاني منها الأفراد والجماعات الأسوياء وغير الأسوياء في كل بلاد العالم، المتقدم منها والنامي، خاصة وأن تزايد الشعور بحجم الأعباء الشخصية والاجتماعية والاقتصادية التي تفرضها ظروف الحياة في شتى أنحاء العالم بشكل عام، وبشكل خاص لدى ذوي الاحتياجات الخاصة يفرض علينا عديد الأخطار التي يجب مواجهتها حتى لا يتزايد العبء كثيراً في المستقبل.

أهداف المؤتمر

1 ـ إلقاء الضوء على مفاهيم الصحة النفسية وجودة الحياة، مع تحديد المصطلحات بما يتناسب مع المعايير القياسية الدولية.

2 ـ إلقاء الضوء على الاتجاهات الحديثة لتحسين خدمات الصحة النفسية وتعزيز حقوق الإنسان وحمايتها.

3 ـ الاهتمام بتدعيم البرامج الإرشادية والعلاجية والتأهيلية للعاديين وذوي الاحتياجات الخاصة التي تستهدف تقديم خدمات مجتمعية وكسب ثقة المجتمع فيها.

4 ـ العمل على تحسين جودة حياة الأفراد وصحتهم النفسية، سواء كانوا من العاديين، أو ذوي الاحتياجات الخاصة.

5 ـ الاهتمام بالتنمية البشرية والتعرف على الحاجات والخصائص والمشكلات النفسية والعقلية والاجتماعية والجسمية والأخلاقية للعاديين وذوي الاحتياجات الخاصة.

6 ـ التأكيد على أهمية المساندة وزيادة النسيج الاجتماعي لكل فئات المجتمع من أجل حياة أفضل للجميع.

محاور المؤتمر

- مفاهيم الصحة النفسية وجودة الحياة والمصطلحات المرتبطة بهما.
- الصحة النفسية والاضطرابات السلوكية والانفعالية للأطفال والمراهقين.
- الصحة النفسية لذوي الاحتياجات الخاصة.
- الصحة النفسية والاضطرابات النمائية.
- الصحة النفسية وحقوق المسنين.
- الصحة النفسية ومشكلات العصر.
- الصحة النفسية والتنمية البشرية متمثلة في كل الجوانب الروحية والصحية والمهنية والشخصية والأسرية والاجتماعية.
- دور الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام في تدعيم الصحة النفسية من أجل حياة أفضل للجميع.

شروط المشاركة ببحث أو بورقة عمل:

- أن يكون البحث المقدم ضمن موضوعات المؤتمر ومحاوره المعلن عنها، وأن يكون بحثاً أصيلاً لم يسبق نشره أو إلقاؤه في مؤتمرات سابقة.
- أن يكتب البحث على الحاسب الآلي، نوع الخط Simplified Arabic بحجم خط 14 للمتن، و16 للعناوين، و13 للهوامش، على أن يكون مقاس الصفحة 17.5 × 25 سم.
- أن يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي تطلب منه قبل نشر البحث بمجلد المؤتمر.
- آخر موعد لاستلام ملخصات الأبحاث المشاركة هو نهاية مارس 2011 م.
- آخر موعد لاستلام البحوث وأوراق العمل كاملة هو نهاية مايو 2011 م.
- يتم استلام رسوم المشاركة في المؤتمر عن طريق تحويل نقدي عن طريق البنك الأهلي المصري فرع بنها، باسم أحد مقرري المؤتمر، أو بحوالة بريدية إلى بريد جامعة بنها.
- يتم استلام الملخصات الخاصة بالبحوث، وكذلك البحوث كاملة من خلال البريد الإلكتروني للمؤتمر: m.h.benha@gmail.com

مكان انعقاد المؤتمر:

قاعة المؤتمرات الكبرى، جامعة بنها.

المراسلات:

جمهورية مصر العربية - جامعة بنها - كلية التربية.

وكيل كلية التربية لشؤون الدراسات العليا والبحوث

ص.ب: 13518

هاتف: 0020100407081

فاكس: 0020133222777

m.h.benha@gmail.com

موقع المؤتمر الإلكتروني

www.mhbenha.com

المؤتمر الإقليمي الثالث لقسم علم النفس كلية الآداب جامعة القاهرة

علم النفس والإمكانات الإيجابية لدى الإنسان العربي

الإعلان الثالث

من مصر الثورة والتغيير والحرية.

من مصر الساعية إلى دولة القانون والعدالة والمساواة والديموقراطية.

يجدد قسم علم النفس، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الدعوة للزملاء والأخوة الأعزاء الباحثين والباحثات، وأعضاء هيئات التدريس في مختلف أقسام علم النفس والعلوم الاجتماعية والإنسانية في الجامعات المصرية والعربية، والمهتمين بواقع الإنسان العربي ومستقبله، المشاركة في المؤتمر الإقليمي الثاني للقسم.

ونوجه عنايتكم إلى أن اللجنة العلمية للمؤتمر قررت مد فترة قبول الملخصات حتى الأول من يونيو 2011 (2011/6/1).

Pr. Fikry AlEtr
fikry.aletr2007@hotmail.com

"التباين في ممارسة الطب النفسي"

21 . 23/ 6/ 2011 الموافق 19 . 21 رجب 1432هـ

فندق إنتركونتيننتال . جدة

يهدف المؤتمر إلى تقديم الجديد في المجالات المختلفة، أملاً في الارتقاء بالخدمات التطبيقية والبحثية للطب النفسي، ويشارك في المؤتمر عدد من استشاريي الطب النفسي وعلم النفس في مختلف المجالات.

يشتمل المؤتمر على عدد من المحاضرات، والتي تزيد على 40 محاضرة متنوعة في المجال النفسي، كما يضم المؤتمر عدداً من ورش العمل التدريبية.

يمنح المؤتمر شهادة معتمدة من الهيئة السعودية للتخصصات الصحية بعدد 30 ساعة تعليم طبي مستمر (18 ساعة محاضرات . 12 ساعة ورش العمل).

للحجز والاستفسار

الرجاء الاتصال على الرقم 0541637743 (أ. مي الشريف).

الاتصال من الساعة التاسعة صباحاً حتى الواحدة ظهراً، ومن الخامسة مساءً حتى العاشرة مساءً.

مكتبة العدد

العنوان: أصول علم النفس الحديث.

المؤلف: فرج عبد القادر طه.

الناشر: الأنجلو المصرية 2010.

عرض: د. محمد أحمد النابلسي.

بعد محاولات فردية متناثرة رافقت بدايات القرن العشرين، دخلت العلوم النفسية إلى الجامعات العربية على يد الجيل الأول من رواد الاختصاص العرب، برئاسة البروفيسور مصطفى زيور. في حينه تولى زيور وفريقه مهمة التأسيس لمكتبة نفسية عربية عبر ترجمة أعمال سيغموند فرويد. حيث أكمل هذا الفريق ترجمة المؤلفات الأساسية للتحليل النفسي. وهي ترجمات بقيت لغاية اليوم أفضل الترجمات العربية في مجالها، وهي وضعت حجر الأساس لمكتبة التحليل النفسي العربية. كما تمكن جيل الأوائل من تحقيق جملة خطوات مؤسسة، إذ أصدر مجلة علم النفس، كما نجح هذا الجيل بإدخال الاختصاص النفسي إلى الجامعات العربية. وهذه الإنجازات كانت الدافع وراء تخصيص مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية لجائزة عربية سنوية باسم المرحوم البروفيسور مصطفى زيور.

الجيل الثاني جاء ليحمل مسؤولية متابعة المسيرة، وإرساء أركان الاختصاصات النفسية بمختلف فروعها في الجامعات العربية، وفي مكتباتها النفسية. وتضاعفت هذه المسؤولية الملقاة على عاتق الجيل الثاني بسبب الفتور الذي استقبل فيه التحليل النفسي في الدول العربية. أولاً بسبب التفسيرات التحليلية الجنسية المتعارضة مع تقليدية ومحافظة المجتمعات العربية. وثانياً بسبب مصادفة ظهور الترجمات والتطبيقات التحليل نفسية مع قيام الكيان الإسرائيلي، حيث جرى الخلط وطرحت الشكوك حول يهودية فرويد مؤسس التحليل النفسي.

هكذا وجد الجيل الثاني نفسه أمام مواجهة الوقائع والضرورات العلمية لتطوير وترسيخ القواعد الأكاديمية التدريسية للعلوم النفسية. وهي مجالات لم يترك الجيل الأول مؤلفات أو ترجمات في الفروع النفسية الأكاديمية المطلوبة في مناهج تدريس العلوم النفسية. ما جعل استمرارية تدريس الاختصاص في الجامعات مرتبطة بتوفير المراجع اللازمة في مختلف ميادين

العلوم النفسية. ولقد تمكن الجيل الثاني من الإيفاء بهذه المسؤوليات الكبيرة من خلال العدد الكبير لاختصاصيي الجيل الثاني مقارنة بالدائرة الضيقة لرواد الجيل الأول.

المؤلفات الأساسية في العلوم النفسية

بدأت مواكبة التطور اللاحق في تدريس العلوم النفسية باعتماد ترجمات لأمهات الكتب المتعلقة في التدريس الجامعي. لكن التجربة أثبتت ضرورة إدخال التعديلات المناسبة للبيئة على هذه المؤلفات. وهي الضرورة التي استتبعت ظهور مؤلفات الجيل الثاني للنفسانيين العرب. التي وضعت أسس المكتبة النفسية العربية الحديثة ومتعددة الاختصاصات والتوجهات النفسية النظرية والعملية. وإذا كان حديثنا يتركز على أحد المراجع الأساسية التي كتبها البروفيسور فرج عبد القادر طه، فإن ذلك لا يحول دون التذكير ببعض الكتب المرجعية لمؤلفين آخرين. ويحضرنا في هذا المجال المؤلفات التالية: علم النفس الصناعي/ أحمد عزت راجح وكتاب جنون الفصام/ أحمد فائق وكتاب الإحصاء في البحوث التربوية والاجتماعية والنفسية واختبار الذكاء العالي/ السيد محمد خيري، ثم كتاب مشكلة السلوك السيكوباتي/ صبري جريس. وعلم النفس الإكلينيكي/ لويس كامل مليكة. وكتاب الشخصية الإسرائيلية/ قدري حفني، بالإضافة إلى قائمة طويلة من المؤلفات المرجعية التي ظهرت على يد رواد الجيل الثاني من أساتذة علم النفس والطب النفسي العرب.

أصول علم النفس الحديث

هو عنوان كتاب للبروفيسور فرج عبد القادر طه، ظهرت طبعته الأولى العام 1989، وبين أيدينا طبعته الثامنة المنقحة والمزيدة الصادرة أواخر العام 2010، وكنا قد عرضنا للكتاب في طبعته السابعة في عدة منابر إعلامية علمية، نختار منها العرض المنشور في جريدة الأنوار اللبنانية بتاريخ 1998/11/18، وفي ملخصه:.. هذا الكتاب بمثابة مدخل إلى علم النفس المعاصر بمدارسه وتياراته المختلفة. وهو يختلف عن كتب مشابهة من خلال العرض البانورامي - الموسوعي للمؤلف.

فالقارئ لا يتيه مع المؤلف في تناقضات المدارس والتيارات والمناهج والتطبيقات، لأنه يقع على تعريف دقيق ومحدد لهذه المواضيع، بل إن القارئ يتعمق في كل منها عبر جولته مع موضوعية البروفيسور طه في إبراز محاسن كل اتجاه، وإيراد الانتقادات الموجهة له ومساوئه المفترضة.

الكتاب يتوجه إذا إلى المبتدئ بدراسة علم النفس، وإلى المثقف غير المتخصص والراغب في الاطلاع على الواقع الراهن لعلم النفس. ومثل هذا التوجه يساهم في نشر الثقافة النفسية

والوعي الصحي - النفسي الذي نفتقده في مجتمعنا العربي. وهو هدف سبق أن عمل له عدد من كبار الأساتذة العرب، حيث كان البروفيسور مصطفى زيور يقدم أحاديث إذاعية، وكان البروفيسور أحمد عزت راجح قد قدم إسهامات مشابهة جعلت بعض كتبه معتمدة للتدريس الجامعي لغاية اليوم.

ويشير البروفيسور طه إلى أن خطته في الكتاب تبلورت بالنظر إلى علم النفس على أنه علم يختص بالسلوك في أوسع معنى له، وبعلم بالشخصية التي يصدر عنها هذا السلوك في خصوصياتها ومحركاتها...

الطبعة الثامنة

من النادر ظهور طبعة ثامنة لكتاب علمي عربي خاصة إذا انتمى الكتاب إلى حقول علم النفس، حيث تتنوع فنون القرصنة، وسبل التجاوز على حقوق المؤلف، بما يحول دون ظهور الطبعات اللاحقة لهذه الكتب. وفي تقديمه للطبعة الثامنة يشير المؤلف ضمناً إلى الظروف المساهمة في ظهور هذه الطبعة، واستمرار الاهتمام بالكتاب، حيث يتحدث البروفيسور طه عن التصويبات والتعديلات، وتحديثات المادة العلمية، والإضافات الضرورية التي تجعل هذه الطبعة مسايرة للمستجدات الحاصلة خلال الفترة الفاصلة بين هذه الطبعة والطبعات السابقة للكتاب.

كما يشير المؤلف إلى دور الصحافة العربية الثقافية والنفسية بالتعريف بهذا الكتاب وتقديمه للقارئ متخصصاً ومثقفاً، بحماسة ساهمت في التأكيد على أهمية هذا الكتاب. وخص المؤلف بالذكر صحف الأهرام المصرية، والأنوار اللبنانية، ومجلة الثقافة النفسية المتخصصة، وأخبار الأدب.

لقد تجاهل المؤلف السبب الرئيسي لتوالي طبعات الكتاب في هذه الفترة الزمنية القصيرة، وهو سبب يكمن في المؤلف نفسه. وتواضع البروفيسور طه يبرر تجاهله لهذا العامل. ومن واجب المتابع أن يحل مكان المؤلف في عرض هذا العامل الأكثر تأثيراً في الإقبال على كتب المؤلف الذي يحظى اسمه بكثير من الاحترام والتقدير في أوساط الاختصاص، في مصر والدول العربية، كما في الخارج. حيث البروفيسور طه عضو مجلس إدارة الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقي، وعضو المجمع العلمي المصري.

هذا بالإضافة إلى منهجية المؤلف الذي يفضل متابعة كتبه، المؤسسة في مجالها، تنقيحاً وتحديثاً دون الانجذاب إلى دخول منافسة العناوين، والكتابة في حقول نفسية جديدة يتركها المؤلف للجيل الجديد من تلامذته. وهو تعفف يدمغ شخصية فرج طه من قبل عارفيه والمقربين منه.

المؤلفات الاساسية للبروفيسور طه

تتوالى ظهور الطبعات الجديدة لكتب البروفيسور طه، بما يعتبر اعترافاً بريادته وبفضله، إضافة إلى كون هذه المؤلفات الأولى في مجالها في المكتبة النفسية العربية. ومن أهم الكتب السباقة للمؤلف بالإضافة للكتاب موضوع حديثنا نذكر التالية منها:

1. **موسوعة علم النفس والتحليل النفسي**، التي تنقح طبعاتها بعرض مزيد من السير العلمية للاختصاصيين النفسيين العرب من أصحاب الإضافات الهامة للاختصاص.
2. **علم النفس الصناعي والإداري**، وهو كان أول الكتب في مجاله لدى صدور طبعته الأولى العام 1980، وطبعته الحادية عشر العام 2007 بانتظار ظهور الطبعة الثانية عشر خلال مدة قريبة.
3. **علم النفس وقضايا العصر**، الذي ظهرت طبعته الأولى العام 1979، وأعيدت طباعته لغاية صدور طبعته الثامنة العام 2005 عن مطبعة بداري مصر.

ختاماً، فإن الموضوعية تقتضي منا تقديم مثال يبين خلفية الرؤية التي قدمناها بخصوص الحضور اللافت للمؤلف، والأهمية المعلقة على كتاباته وآرائه. ونجد المثال في السيرة العلمية لكاتب هذه السطور، كما وردت في موسوعة البروفيسور طه، حيث غلب عرضه لسيرتنا العلمية على كل العروض المماثلة، وحتى على العروض المنشورة من قبل مركز الدراسات النفسية وموقعه الإلكتروني. ما جعل المركز يعتمد العرض المنشور من قبل البروفيسور طه في موسوعته.

العنوان: ثقوب في الضمير.. نظرة على أحوالنا.

المؤلف: أحمد عكاشة.

الناشر: دار الشروق.

يستهل أستاذ الطب النفسي د.أحمد عكاشة كتابه بوصف حالة المصريين الذين يشكون من تراجع الأوضاع الأخلاقية، ويرى المؤلف بكتابه "ثقوب في الضمير" أنه لا يوجد معنى للضمير أدق من التعبير القرآني العظيم "النفس اللوامة"، أو الرقيب الكامن في كل إنسان، والذي يحاسبه حساباً عسيراً عما بدر منه، وعلى مستوى المجتمعات يتحول هذا الضمير لأمر عام يحد من ألوان الانحلال والجرائم.

ولكن عكاشة يرى أن الضمير الاجتماعي العام أصبح يتعرض إلى هزات وثقوب أصبح ينفذ من خلالها ما لا يجوز أن يغض الطرف عنه، والذي كان في الماضي يسبب استنكاراً واسعاً؛ فمثلاً أصبح أمراً مألوفاً مسائل الاستيلاء على المال العام، إفساد المرافق الحكومية،

قبول الرشوة أو إعطاؤها، كما أن الإعلام ساهم بدورٍ كبير في ذلك، حيث أصبح يؤسس لـ"الشطارة"، و"الفهلوة" أكثر من الاعتناء بقيمة العمل.

الانتماء

يأسف المؤلف لانعزال المواطن المصري، وشعوره بالاغتراب، وعدم الانتماء للوطن، ويرى أن الهدف العام للمصريين أصبح الحصول على المال الذي يعينهم على مواجهة أعبائهم الشخصية المتزايدة، ويرجع السبب برأيه إلى أن الدولة تعتني بحقوقها دون النظر لحقوق أفرادها، قائلاً: لايزال أصحاب نظرية أن الشعب قاصر والحكام هم الأوصياء عليه متمسكين بنظريتهم نشيطين في تطبيقها بكل الوسائل، يريدون من المواطن أن يحتشد كلما دعت حاجتهم هم إلى الاحتشاد، يفكرون بمصالحهم فقط دون مصلحته، فعلى المواطن أن يدفع للدولة ما تقرره حقاً لها في ما يملك! وإذا ثبت أن له حقاً فلا يسترده.

وهكذا تتنوع الخبرات المرة لهذا المواطن المصري، إلى الحد الذي يجعله غير عابئ بشيء في الوطن، فإذا حدّث أحد هذا المواطن عن أمر من الأمور العامة بادر محدّثه على الفور "ياعم، يعملوا اللي يعملوه.. البلد بلدهم"، وقد نجد مواطناً آخر وقد اتسم بالعدوانية الشديدة على كل ما يمت للملكية العامة بصلة، يحطم أو يمزق هنا وهناك إذا لاحت له الفرصة، يتهرب من ضريبة واجبة، أو يغافل محصل سيارة النقل العام، وإذا استطاع اقتلع شجرة نابتة في الشارع، أو يدهس النجيل الأخضر عمداً!

الشخصية المصرية

يؤكد المؤلف أننا لا نستطيع أن نعمم على أي شعب سمات خاصة في شخصيته، لأن كل السمات تتواجد بين أفراد الشعب بطرق متباينة، ولكننا نستطيع أن نصف السمات الغالبة على شعب معين، فالشخصية المصرية على سبيل المثال تتميز بالانبساطية وحب الاختلاط والدفء العاطفي، وسهولة الإيحاء في ما يسمى "بطيبة القلب"، مع الإحساس بالمسؤولية الأسرية، والانتماء والتماسك مع الدين والأسرة أكثر من الوطن.

ومع ذلك، توجد بعض السمات التي تحتاج لإيضاح وتعديل حتى نستطيع أن نواكب ثورات العالم التكنولوجية، فكثير من المصريين يتميزون بما يسمى بالشخصية السلبية العدوانية والاعتمادية التي تتميز باعتماد شامل على الآخرين، أو السماح لهم بتولي مسؤولية جوانب هامة في حياة الشخص، كما أننا نلحظ أن أحدهم يكثر من النقد والسخرية من سلوكيات يقوم بها هذا الشخص، ويسقطها على الآخرين، فهو ينتقد التسيب، ولكنه يمارس السلوك نفسه، كذلك

تسقط هذه الشخصية كل الكوارث على السلطة، دون أن تقوم بأي عمل إيجابي في مواجهتها.

ويكثر المصريون من النكتة السياسية، ما يعبر عن نقدهم الدائم للأوضاع، ولكن بدأت تتنامى لديهم الاستكانة، ثم التقوقع حول الذات والأسرة، بغض النظر عن المبادئ، وعدم التواصل والمثابرة والتغير المستمر والعجز عن الابتكار، والتصور الخاطئ للدين، وإهمال الواقع المادي والانغماس في القرارات الانفعالية والعاطفية، وأخيراً فوضى اللغة، وترتفع نسبة هذه الشخصية في البلاد العربية بسبب وسائل التربية والممارسات السياسية القائمة على الطاعة العمياء.

البلاد النامية

ينتقل الكتاب للحديث عن المشاعر المتناقضة التي تكنها شعوبنا العربية النامية للولايات المتحدة الأميركية، حيث أننا ننظر إليها بمزيج من الإعجاب والعداء في آن واحد!

ويرى المؤلف أن هنالك محركات نفسية مفهومة وواضحة وراء هذا المزيج من المشاعر، التي أدت مؤخراً إلى زيادة الشعور الدائم بالإحباط الكامل عند شعوبنا، بل شعوب العالم النامي كله على السواء! ومن الأسباب التي يسوقها عكاشة لتفسير هذه المشاعر المتناقضة هي أن النظام العالمي الجديد أصبح هو النظام الذي وضعته أميركا وحلفاؤها في العالم، والرضاء الأميركي عن الآخرين يتحدد الآن بقدرما يستطيع الآخرون إثبات أنهم خاضعون تماماً لهذا النظام الأميركي! وترفع الولايات المتحدة الأميركية كثير من الشعارات التي يفضح تطبيقها الأميركي حالة من الازدواجية العجيبة المتمثلة في الكيل بمكيالين دائماً حسبما ترى سيدة العالم.

فالولايات المتحدة الأميركية لا ترى ضرراً من تطبيق قرارات مجلس الأمن وعقوباته على بعض الدول العربية ليلتزم باقي العرب، وفي الوقت ذاته لا ترى حتى الآن في عبث إسرائيل الواضح للعالم بكل قرارت مجلس الأمن ما يدعوها إلى مجرد الضغط الأدبي عليها كي تلتزم ولو مرة واحدة. إن هذه الازدواجية الأميركية عند الشعوب العربية لا تؤدي في الواقع إلا إلى نمو الإحساس بالعجز واليأس البالغ أمام هذه القوة الهائلة المتصرفة في شؤون العالم، لكن هذا الشعور بالكراهية يرافقه شعور آخر، هو الإعجاب والانبهار بكل ما هو أميركي! ابتكارات العلم والاختراعات المدهشة، ونموذج الحياة الأميركية المرفهة، وهذا الانفراد بالقوة والاقتصاد العالمي الذي يرتكز على الدولار وبورصات أميركا!

جمال عبد الناصر

أوضح الدكتور أحمد عكاشة أن هنالك اختلافاً بين وجهات نظر الأطباء النفسيين حول تحليل شخصية الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، لكنه أسقط عنه في كتابه ما ألصقه به

بعضهم من أمراض نفسية مختلفة، فهو يرى أن وصفه بالسادية أمر مجحف، كما أسقط عنه ما اتهمه به بعض آخر من معاناته من "البرانويا"، وهو جنون يتسم بضلالات واعتقادات خاطئة غير قابلة للمناقشة تجعله في حالة من الشك المستمر والإحساس بالعظمة، وهذه أيضا أبعد ما تكون عن صفاته وسلوكياته.

ويرى المؤلف أن إحدى مشكلات عبد الناصر هي فشله في اختيار معاونيه، وعدم قدرته على تحمل النقد، وترحيبه بالمنافقين حوله، بالإضافة إلى أن عبد الناصر كان يتمتع بهيبة جعلته أباً شديداً، حتى بالنسبة لمن هم أكبر منه سناً، فبالرغم من عيوب الأب، إلا أننا نحبه مع قسوته بوصفه القادرعلى الحماية والعطاء، وهذا خطأ عبد الناصر، لأنه جعل من الشعب طفلاً يعتمد عليه في رزقه وطعامه، وبدلاً من أن يمر الشعب بتجربة النضوج في عصرالديكتاتور، أصيب الشعب بالنكوص إلى مرحلة الرضاعة والطفولة، ولذا كان افتراقه عن الشعب بمثابة وفاة الحامي والأب في آن واحد.

وهذه إحدى السلبيات التي نعاني منها الآن، فالكل يريد أن يأخذ دون أن يعمل، لقد جعل عبد الناصر الشعب في حالة انبهار وتخدير واستسلام، حين جعل نفسه المسؤول الأول والأوحد عن الرزق والعامل والمال والسلطة والكرامة، فبات معظم الناس نياماً، لا يعملون ولا ينتجون.

عرف الدكتور أحمد عكاشة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر من خلال علاقته بشقيقه الدكتور ثروت عكاشة (أحد الضباط الأحرار، ووزير الثقافة، ونائب رئيس الوزراء في عهد عبد الناصر)، حيث كان عبد الناصر يذهب إلى بيتهم، عندما كان أحمد عكاشة طالباً في المدرسة، وحضر جانباً من لقاءات ناصر وثروت الطويلة، حيث يرى المؤلف أن عبد الناصر كان يتمتع بسمات شخصية أثرت إيجاباً وسلباً على قراراته ومجريات الأمور، وهذه السمات هي: الكاريزما، الاعتزاز بالرأي، والإحساس بالأهمية الذاتية، وأنه مبعوث برسالة قدرية لإنقاذ الجماهير، حب المغامرة، التبرم بالنقد، عشق السلطة، الشك المستمر، وأخيراً التخلص من أعز المعاونين والأصدقاء إذا كان وجودهم سيعوق مسيرته السلطوية.

ويحكي عكاشة أنه قابل ناصر بعد عودته من البعثة لدراسة الطب النفسي في لندن، وتهكم ناصر على تخصصه في الطب النفسي، قائلاً: أن النظام الاشتراكي يقضي على الأمراض النفسية، والإحساس بالحرمان، ثم باغته بسؤاله لماذا إذن تخصصت في هذا الفرع؟ فابتسم قائلاً: أعد نفسي لحين ظهور الأمراض النفسية.

ولكن عكاشة يقول: أسلوب عبد الناصر في الحديث كان يجعل أي إنسان، مهما أوتي من العلم، غير قادر على الدفاع عن رأيه، فلم أستطع دفاعاً عن تخصصي، ولم أستطع إقناعه

بأن الأمراض النفسية قد ازدادت في عهد الاشتراكية، لأنه كان قادراً على إنهاء المناقشة بطريقته، وهي لا شك تأثير "الكاريزما" التي كانت أهم سماته!!

العنوان: الشباب والثقافة الجنسية.

المؤلف: د. لطفي عبد العزيز الشربيني.

الناشر: مركز تعريب العلوم الصحية.

سنة النشر: 2011.

إن توصيل المعلومات الصحية السليمة للشباب يعتبر استثماراً مجزياً لمستقبل الأوطان، ولا شك أن الصحة الجنسية تمثل جزءاً هاماً من صحة الفرد بصورة عامة، سواء بالنسبة للذكور، أو الإناث، وهنالك جوانب كثيرة ضمن معلومات الثقافة الجنسية يكتنفها الغموض في أذهان الشباب الذي قد يتعرض للحصول على معلومات خاطئة، أو مشوشة من الأصدقاء، أو من غير المختصين، مما قد يكون له دور كبير في حدوث كثير من الاضطرابات في الممارسة الجنسية مستقبلاً.

وهنالك ارتباط واضح وقوي بين الصحة النفسية والحالة الجنسية السوية، فاضطراب الحالة النفسية له تأثير سلبي شديد على الرغبة والممارسة الجنسية. ونحن نرى أن المعلومات الصحيحة حول التغيرات التي تحدث في مرحلة البلوغ والنواحي التشريحية والوظائف المرتبطة بالممارسة الجنسية، بالإضافة لمعرفة ما قد يصيب هذه الوظائف من اضطراب يعتبر من أساسيات الثقافة الصحية بصورتها الشاملة.

وهذا الموضوع الهام يتناوله الطبيب النفسي الخبير الذي يجيد التعامل مع هذا الجانب من الصحة، ويعد تقديم المعلومات الصحيحة حول المسائل الجنسية وما يرتبط بها من اضطرابات أفضل بمراحل من كتمان الحديث في هذه الموضوعات، ويعتبر خطوة جيدة في سبيل تنشئة جيل من الشباب المثقف يفهم هذا الجانب الهام من حياته.

ويعد هذا الكتاب لبنة في صرح تعريب العلوم الصحية ونشر الثقافة الصحية لدى كافة فئات المجتمع.

العنوان: مجلة تراث/ مايو 2011.

الناشر: مركز زايد للدراسات والبحوث.

المؤلف: جماعة من الكتاب.

عن مركز زايد للدراسات والبحوث، صدر العدد الجديد من مجلة تراث مايو 2011، وفي مقدمته المعنونة "صوت من المستقبل" قول لقتيبة بن مسلم عبرته أن "من قل احتراسه كثر عثاره".

جهود الحفاظ على التراث الإماراتي

تقدمت العدد عروض لاستعدادات نادي تراث الإمارات، التابع للمركز، لاحتفالات اليوم الوطني الأربعين. وذلك بتوجيهات من سمو الشيخ سلطان بن زايد، وفي السياق عرض العمل الموسوعي المعنون "أبو ظبي واللؤلؤ... قصة لها تاريخ" المنشور في كتاب يؤرخ للمدينة وأوضاعها، كما لصناعة اللؤلؤ وأسرارها.

وفي خطوة على طريق حماية التراث الإماراتي تنقل المجلة حدث "سباق المحامل الشراعية" برعاية سمو الشيخ هزاع بن سلطان، الذي شهد أيضاً حفل اختتام مهرجان الإمارات العالمي للنحت بالرمال.

كما نقل العدد فوز نادي تراث الإمارات ببطولة الإمارات للشراع لموسم 2010 ـ 2011. بالإضافة إلى الإعلان عن مشاركة رابطة هواة الفلك في نادي تراث الإمارات في المؤتمر الفلكي الإسلامي الخامس للعلوم الإسلامية في المركز الجغرافي الملكي الأردني. وخبر اتفاق المركز الإعلامي الثقافي لاتفاقية نشر كتاب "قصص من السيرة النبوية للأطفال".

التراث الإماراتي الحديث

تزامن صدور العدد مع الذكرى الخامسة والثلاثين لتوحيد القوات المسلحة لمختلف إمارات الدولة مرسية دعائم كونفيديرالية عربية تملك من مقومات التكامل ما أتاح لها التحول إلى تجربة تطبيقية عالمية لمفهوم الكونفيديرالية. فاستقرت الدولة على قاعدة النهضة الحضارية اللافتة، ومعها احترام الدولة لجيرانها، مكتسبة احترامهم لها، وفق مبدأ التمسك بالحقوق دون استعجالها بمبدأ الصدام الذي لم تدرجه الدولة في أولوياتها إلا في حالات تعرض أمنها للتهديد المباشر.

في تراث الإمارات الحديث ما بعد الاتحاد، برزت قوات الدولة المسلحة، مشاركة في عديد المهام الإنسانية في المناطق الساخنة، ساعية إلى حل المشاكل والنزاعات بين الدول، وتعزيز الاحترام المشترك في ما بينها. إضافة للمهام التي نفذتها القوات الإماراتية في مجال الإغاثة الإنسانية، وآخرها مساعدة ضحايا الفيضانات في باكستان بمشاركة الهلال الاحمر

الإماراتي، وباعتماد مبدأ التطوع الذي يمنح الراغبين قدرة ممارسة الفعل في ميادين إنسانية وخيرية نافعة وفعالة في مساعدة الضحايا.

وفي سياق تراث الإمارات الحديث، نقلت المجلة ندوة لوزير الإعلام السوداني الأسبق، معالي علي شمو، الذي تحدث عن انتقال الإعلام الإماراتي من إعلام متواضع عام 1971 إلى إطلاق أضخم قمر صناعي في العالم في 2011، بما يعكس مستويات وطموحات سيرورة التنمية الإماراتية.

نظرة خارجية على الإمارات

ينقل العدد استطلاعاً أجرته مجلة التايمز البريطانية العام 1969 بعنوان "بناء أبو ظبي الجديدة"، وفي الاستطلاع: تركت أبو ظبي العام 1961، وعادت لتجري استطلاعاً آخر العام 1969، وإذ بها أمام حاكم جديد ينافس حاتم الطائي في كرمه. وأمام عالم مسحور تحولت فيه البيوت الطينية والبيوت المبنية من سعف النخل إلى مدائن جديدة من إسمنت ورخام. كتبت الاستطلاع مراسلة التايمز باربارا ويس بعنوان "من بيوت الطين إلى الفنادق الفاخرة"، مبينة المفارقات الكثيرة التي استوقفتها بعد هذه المدة من الغياب.

كما نقلت المجلة عن صحيفة العرب اليوم مقالاً بقلم رئيس تحريرها بعنوان "بلاد تفتدى وزعيم يفتدى.. تلك هي الإمارات.. وذلك ما بنته". ولم تعلق المجلة على المقال باعتباره يقول ما تتمنى المجلة قوله في هذا المجال.

الانتحال الصهيوني للتراث

تطرق العدد إلى انتحال اليهود للتراث الفلسطيني، عبر قيامهم بالتنقيب عن الآثار الفلسطينية وسرقتها، مع ادعاء يهوديتها التراثية. وعرض العدد لهذا الانتحال من خلال تحقيق أجراه مهند صلاحات بعنوان "مليون عام من التراث.. والتاريخ مهددة بالدمار"، تابع فيه مظاهر هذا الانتحال. وأهمية الموضوع أنه يأتي في سياق مواجهة الإدمان الإسرائيلي لاختبار المستحيلات. إذ سبق لها الادعاء بأن الأهرامات تنتمي إلى التراث اليهودي، وهو المثال الأوقح على الانتحالات الصهيونية لتراث المنطقة، وبخاصة للتراث الإسلامي فيها. حيث وصل الانتحال إلى الإسرائيلي إلى ما عرف بمعركة الفلافل بين لبنان وإسرائيل.

العمارة الإسلامية

توقف العدد هذه المرة في محطة مراكش المغربية، التي تتضح بفنون العمارة الإسلامية، وتزخر بطرز العمارة الإسلامية الدينية والمدنية والعمارة الاجتماعية إلى جانب العمائر الحربية

والاستحكامات العسكرية التي تعكس ازدهار الحاضرة الحمراء كما تدعى مراكش. وتضمن الاستطلاع صوراً رائعة لأهم هذه المعالم.

كما ضم العدد مقالة "العمارة الإسلامية بين الفن والهندسة... حي مصر الجديدة بالقاهرة أنموذجاً" ، بقلم مجدي صالح، معتبراً أن العمارة هي أحد منتجات الثقافة الأكثر التصاقاً وإحاطة بوجودنا الإنساني.

الفنون التراثية

ضم العدد بحثاً لعبد القادر سلامي حول البدايات الأولى لظهور الغناء التراثي العربي وضوابطه، متعرضاً لأول من غنى من الرجال، وأول من غنت من النساء، ثم لأول من اخترع آلات الموسيقا، وتفسيرات الأقدمين لمصطلحات الغناء وقواعده.

وفي فن المعمار والرسم، يتطرق العدد إلى دافنشي الإسلام سنان باشا، الذي وصل لقمة الإبداع في عالم البناء والتشييد في جامع السليمانية، الذي يعد أعظم ما بني خلال تلك الفترة. حيث بناه سنان بتكليف من السلطان سليم الثاني، ابن سليمان القانوني. واختار سنان للمسجد أعلى ربوة في مدينة أدرنة، بحيث يمكن مشاهدته من جميع أنحاء المدينة. وبوشر ببناء المسجد في العام 1568م.

الدراسات التاريخية

توقف العدد عند إقليم الإحساء وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية خلال الفترة من 1871 إلى 1913، وهي دراسة للدكتور حمد محمد القحطاني عرضها علي عفيفي غازي من الدوحة، وفيها عرض وتحليل لوثائق تاريخية، من بينها رسالة محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، حاكم منطقة الإحساء، إضافة لعرض صفحات من سجل الأراضي الأميرية في الإحساء. وكانت القوات العسكرية في الإحساء تابعة خلال هذه الفترة تابعة للجيش العثماني السادس ومركزه بغداد، وتتعامل بالريال المجيدي.

الفكر التراثي

تحت عنوان "تجديد التفكير في المعنى التراثي" كتب أحمد زكريا مناقشاً الالتباسات الحاصلة في دلالة مصطلح "التراث" ، وهو لبس يستدل عليه الكاتب من خلال ضبابية تعريف المصطلح ومفهومه لدى عدد من طلاب الدراسات العليا، بما يعكس اللغط حول مجالات التراث بالتناسب مع جزئية أو عمومية النظرة للتراث. ومن هنا دعوة الكاتب لتجديد التفكير في معنى التراث ومجالاته وميادين الاشتغال به.

التراث الإنساني

يفرض الطابع التراكمي للحضارة الإنسانية عدم إمكانية الفصل بين تراث الحضارات التي تتفاعل تاريخياً في ما بينها، بحيث تتبادل العيش في حالة من التأثر المتبادل المستمر. والمجلة لا تهمل هذا الموضوع، إذ تخصص له جملة مقالات منها في هذا العدد مقالات: "الإسكندر الأكبر... أول محاولة للعولمة في التاريخ"، وهو كناية عن دراسة استقرائية على ضوء الراهن العالمي.

كما نقلت المجلة زيارة لمنزل الكاتبة الفرنسية كوليت، وعرضت لفنون العمارة الفرنسية في العهد الملكي ما قبل الثورة الفرنسية.

منوعات تراثية

يقدم العدد جولة مسلية في عالم التراث، بدءاً من عرضه للمطبخ الأندلسي، كأحد مظاهر التلاقح الحضاري. إضافة لعرض قصة "الغربة الغريبة" للسهروردي، والتي تعكس رمزية غير مسبوقة في التراث الصوفي. ومقال آخر يشير إلى توظيف حيال الظل في النقد السياسي وتحطيم التابوهات. كما تطرق الكاتب فؤاد قنديل إلى الرحلة العبد ربية ومواضيع أخرى منوعة يتخللها حضور لافت للشعر التراثي والمعاصر.

خاتمة المقال

يقفل العدد صفحاته بقصيدة للشاعر الإماراتي حبيب الصايغ نقتطف منها الأبيات التالية:

يشتاق إلى شراعه الأبيض العتيق في أقصى

الرأس. نعم يشتاق لكنه يكتفي باستحضار

أحلام متنافرة ولا تتفق أبداً

هو مشتاق وعنده لوعة. هذه عادة الشعراء

لكن مصيبته الكبرى أنه كتب قصيدته

الأخيرة وهو بلا رأس

الدكتور يوسف مراد

الدكتور يوسف مراد من أبرز علماء النفس العرب. ولد في مدينة القاهرة في 28 ديسمبر 1902م. حصل على البكالوريا، قسم أدبي سنة 1921م، وعلى البكالوريا قسم علمي سنة 1925م. عمل موظفاً في وزارة المالية، ومصلحة الصحة العمومية، ومدرساً للمرحلة الابتدائية. التحق بكلية الآداب، جامعة القاهرة في أكتوبر 1926م. وتخرج في قسم الفلسفة في مايو 1930م. وحصل على الدكتوراه في فبراير 1940م. أسس مدرسة مستقلة في علم النفس عرفت باسم مدرسة علم النفس التكاملي.

مؤلفاته

مبادئ علم النفس العام.

دراسات في التكامل النفسي.

كتب عنه

يوسف مراد والمذهب التكاملي، إعداد وتقديم: د. مراد وهبة.

مؤلفات في المدرسة التكاملية

مجموعة الكتب التي صدرت حاملة عبارة "منشورات جماعة علم النفس التكاملي":

مبادئ علم النفس العام، د. يوسف مراد.

ميادين علم النفس (جزءان)، جلفورد.

الكتاب السنوي في علم النفس.

مناهج البحث في علم النفس (جزءان)، أندروز.

علم النفس الفردي، د. إسحق رمزي.

المدخل إلى علم النفس الجماعي، د. شارل بلوندل.

مشكلة السلوك السيكوباتي، د. صبري جرجس.

الغرضية في السلوك الإنساني، د. كمال الدين عبد الحميد نايل.

الأسس النفسية للإبداع الفني، د. مصطفى سويف.

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، د. مصطفى سويف.

ارتقاء اللغة عند الطفل، د. صالح الشماع.

تطور الشعور الديني عند الفرد، د. عبد المنعم المليجي.

سيكولوجية المرضى وذوي العاهات، د. مختار حمزة.

علم النفس العقابي، د. كمال دسوقي.

علم الطباع (المدرسة الفرنسية)، د. سامي الدروبي.

مشكلة الانتحار، د. مكرم سمعان.

سيكولوجية الإشاعة، د. جوردن ألبورت وبوستمان.

علم النفس والأدب.

الإبداع والشخصية.

دراسة مقارنة في مشكلات المراهقين في المدن والريف (السلطة والطموح)، د. خليل ميخائيل معوض.

حوادث العمل في ضوء علم النفس.

الإبداع والتوتر النفسي.

الحقيقة والوهم في علم النفس، أيزنك.

ملف العدد

السيكولوجيا السياسية
في مجال الجاسوسية

السيكولوجيا السياسية في مجال الجاسوسية

خوفاً من إساءة استخدام اختراعاته وتصوراته للمستقبل، عمد الفنان ليونارد دافنشي إلى إخفاء هذه الإختراعات. أما ألفرد نوبل فقد صدم لتحول اختراعه (البارود) إلى أداة لتدمير الحضارة. وهكذا ينقسم العلماء بين مواقف الصدمة ومواقف الرهبة، دون أن يؤدي أي من هذه المواقف إلى الحد من سوء استخدام العلوم وتحويلها إلى عكس غايتها الأصلية. ومن الطبيعي ألا يشذ علم النفس وسائر العلوم الإنسانية عن هذه القاعدة. ولعل أسوأ وجوه استخدام علم النفس في معاداة الإنسانية هو ما يمكننا تسميته مجازاً بـ"علم نفس التجسس". وبتعدادنا لوجوه استخدامات علم النفس على صعيد التجسس نبدأ بـ:

1 ـ التأثير على الوعي: وهي تقنية باتت مستخدمة على نطاق واسع. وهي تتلخص بتعريض الشخص للحرمان الحسي. إضافة لتعريضه للمواقف المتراوحة بين تهديد الحياة والشعور بالأمان. وتهدف هذه الممارسات إلى تدمير ردود الفعل والإرتكاسات الإعتيادية لدى الشخص، وذلك بغية إحلال ردود فعل ومنطلقات مبدئية جديدة مكانها.

2 ـ العقاقير النفسية: يمتاز هذا الموضوع بتعقيده الفائق، وبحساسيته المبالغة. ذلك أن استخدام بعض هذه العقاقير يتم بصورة مخالفة لكافة وجوه الحضارة، ولكافة قواعد حقوق الإنسان، ومما يزيد هذا الموضوع حساسية كون هذه الممارسة اللإنسانية تتم مبدئياً في الدول التي تعتبر متحضرة. ومن الأمثلة الشائعة على هذه الممارسات استخدام مخدر الـL.S.D لانتزاع الاعترافات. وغير ذلك من العقاقير التي تنتقص من قدرة العقل الإنساني في حالات سوء الاستخدام.

3 ـ الجراحات النفسية: وهي جراحات تهدف إلى إدخال تعديلات على سلوك الشخص. وهذه التعديلات لا يمكنها أن تتم دون المساس بحرمة العقل الإنساني وقدراته.

4 ـ الشائعات: اصطلح على تسمية هذا الفرع بـ"علم نفس الإشاعة". وكان من الأصح تسميته بـ"علم نفس الخديعة". فهذا الفرع إنما يهدف إلى تضليل الرأي العام، ومحاولة دفعه في الاتجاهات الخاطئة. والإشاعة، وإن كانت سطحية الجدوى ظاهرياً، ولكنها في الواقع تمارس تأثيرات على أعداد هائلة من الناس، حتى لو كانت هذه التأثيرات موقتة وبسيطة.

والإشاعة تكون أكثر تأثيراً كلما كانت أقرب إلى الحقيقة. فالحقيقة التي تقال بنية سيئة تكون أكثر هدماً وتأثيراً من سائر الأكاذيب. وهكذا، فإن الإشاعة الناجحة تستوجب وجود قنوات الحصول على المعلومات والحقائق القابلة للتحوير. وكذلك فإنها تقتضي معرفة عميقة لـ اللاوعي الجماعي للجماعة موضوع الإشاعة والجماعة، حيث تنتشر الإشاعة. كما أن نجاح الإشاعة يقتضي التعرف عن قرب على معاناة الجماعة، وعلى رغباتها ومصالحها. فكلما كانت الإشاعة ملائمة لرغبة الجماعة، ومراعية لمصالحها، كلما كانت هذه الجماعة أكثر تقبلاً وتبيناً لهذه الإشاعة. وفي هذه الحالة تتقبل الجماعة الإشاعة حتى ولو استشعرت ضعفها، وحتى بعدها عن الواقع والحقيقة. ولا يخفى ما استطاعت الإشاعة تحقيقه من استغلال وإنجازات ملتوية تفتح الباب أمام جدلية النسبية في مفاهيم الخير والشر والبطولة والخيانة.

5 ـ تجنيد الجواسيس: بات علم النفس مستخدماً بصورة أساسية في عمليات تجنيد الجواسيس، فعن طريق دراسة شخصية الشخص المراد تجنيده يتوصل العاملون في علم نفس التجسس إلى تحديد نقاط ضعف هذا الشخص ونواقصه.

1 ـ الشاذون جنسياً.

2 ـ الشهوانيون.

3 ـ الساعون وراء المال.

4 ـ القلقون بسبب عوامل قد تسبب لهم الفضيحة.

5 ـ التابعون. ويسهل على أجهزة الاستخبارات تجنيد مثل هؤلاء.

6 ـ التجسس المضاد: وهو يستخدم علم النفس في مكافحة الجاسوسية. وفي التحقيق مع الجواسيس، واستخراج المعلومات منهم. ومن ثم تحليل مدى مصداقية وترابط هذه المعلومات، حتى إن بعض الاستخبارات تصور التحقيق على فيلم فيديو، ومن ثم تعرضه على مجموعة من الاختصاصيين النفسيين لتحليله. ولا ننسى الإشارة في هذا المجال إلى آلات كشف الكذب وآلات التعذيب، وغيرها. كما نذكر في هذا المجال طريقة النوم

المتقطع، وطريقة إعطاء الباربيترات عن طريق الحقن الوريدي... إلخ.

7 ـ **سيكولوجيا الحروب:** تطور هذا الفرع من فروع التجسس ليصل إلى مرحلة الاعتراف بتسمية الحرب النفسية. هذه الحرب التي تجمع بين مختلف الفروع المذكورة أعلاه. مع ما يضاف إليها من جديد، كمثل العمل على تفشي استخدام المخدرات في صفوف العدو. كما يستخدم علم النفس الحرب في تحصين الجهة الداخلية من الحرب النفسية المعادية. وذلك بحيث أصبح الصراع النفسي ـ الفكري وجهاً هاماً من وجوه الحرب الحديثة. فهنالك الإشاعات المضادة والارتفاع بمعنويات الجبهة الداخلية، ومكافحة التجسس، والتحسب للآثار النفسية للحرب، وردود فعل أهالي ضحايا الحرب... إلخ.

هذا ويمتد علم نفس الحرب ليشمل الجبهة نفسها. فقد واجهت ألمانيا معضلة كبرى إبان الحرب العالمية الأولى. إذ كانت أعداد كبيرة من الجنود الألمان تصاب بنوع من الرعاش والاهتزاز في مناطق مختلفة من الجسد. وكانت هذه الإصابات تستوجب إبعاد هؤلاء عن الجبهة على أساس أنهم من المرضى العصبيين. ولكن أبحاثاً مطولة أثبتت أن هذه الإصابات كانت من النوع الهيستيري. ويقول بعض العلماء إنها تكثر لدى وجود الذين يخوضون حرباً لا تقنعهم، فيخوضونها وكأنهم مرتزقة، أو مجبرون، فيضطرون للجوء إلى الهيستيريا للخلاص منها. في حين يرى غيرهم أنها تحدث لدى أناس ذوي مستوى ثقافي وحضاري أدنى. وعلى أية حال، فقد أفادت إسرائيل من هذه التجارب إبان حرب حزيران، إذ كان الأطباء الإسرائيليون يعالجون الحالات الهيستيرية على أرض المعركة، ويمنعون الهيستيري من الهرب إلى الخطوط الخلفية.

وانطلاقاً من هذه التعريفات سنعرض للتطبيقات التالية:

1 ـ التأثير على الوعي: وهي التقنية التي عرفت أساساً بمصطلح "غسيل الدماغ"، وفي هذا الفصل سنعرض لطريقة التعذيب بالرجرجة، التي تتبعها السلطات الإسرائيلية مع الأسرى العرب.

2 ـ العقاقير النفسية: حيث البحث عن مصل الحقيقة، وسنعرض في هذا الفصل لتجربة المخابرات الأميركية مع عقار الـ L.S.D.

3 ـ الجراحات النفسية: سنقدم سرداً لبعض تجارب استخدامها.

4 ـ غسيل الدماغ: سنقدم في هذه الفقرة عرضاً لنظرية (D3)، ولتطبيقات تقنيات التأثير على الوعي (الحرمان الحسي والعقاقير والجراحة في حالات غسل الدماغ).

5 ـ تجنيد الجواسيس: وسنتناوله من خلال عرض نقدي لرواية تشرح تفاصيل استخدامه

على النفس في مجال تجنيد أحد السفراء كجاسوس.

6 ـ علم نفس الحروب: وسنقدم عرضاً حول الآثار النفسية والمستقبلية لـ"عناقيد الغضب" كنموذج عن هذا الفرع.

التأثير على الوعي

لم تخترع العلوم النفسية التعذيب، ولكنها ساهمت في تحويله إلى فن. فهذه العلوم قدمت معلومات وأفكاراً ووصفات لكل المؤسسات البوليسية في العالم، والتي تستخدم هذه المعطيات لإجبار الأفراد على البوح بالمعلومات، أو لإكراههم على تغيير قناعاتهم. والواقع أن افتقاد التعريف الدقيق للشخصية السوية (الطبيعية) يجعل الفصل دقيقاً بين الشفاء النفسي، وبين عودة الشخص إلى طبيعته (التي لا نملك لها تعريفاً)، الأمر الذي يغري المعالج والإختصاصي ـ البوليسي باجتياز هذا الفاصل، وهو اجتياز يساوي بداية إساءة استخدام العلوم النفسية، وهي إساءة تحدث بدرجات مختلفة باختلاف الدافع لهذا الاجتياز. ولعل أبسط درجاته الدعاية التي تستغل نقاط ضعف المستهلكين وتدعوهم لإكمالها (الوصول إلى السواء). من هنا يبدأ التأثير على الوعي باستغلال نواقص لدى المستهلك، وهي نواقصه، وليس إلى مواجهته بها (وإلا كان الوضع مطابقاً لما يسمى بالعلاج الوحشي).

وبمراجعة المحاولات البوليسية للتأثير على الوعي، نجد من المفيد إيراد بعض الأمثلة:

أ ـ في إصلاحية (Wallo – Wallo) في ولاية واشنطن استخدام المدير وسائل إصلاحية فريدة من نوعها. فقد كان يجبر المساجين على العودة إلى طفولتهم (نكوص إجباري) عن طريق إجبارهم على ارتداء القماط (اللفافة)، وعلى تناول الحليب بالرضاعة، وعلى الزحف أرضاً. وقد خضع لهذا العلاج حوالي الألف سجين، وعلى امتداد اثني عشر عاماً. وقد أطرى بعض السلوكين من المتخصصين هذه النظرية العلاجية!!

ب ـ في أيرلندا الشمالية سادت، ولفترة الطريقة التالية: يلبس المجنون قناعاً له فتحة فقط مكان العينين، ويتضمن عازلاً سمعياً. ثم يحرم الشخص من النوم نهائياً خلال الأيام الأولى من احتجازه، ويجبر أيضاً على البقاء في وضعية الوقوف (ولا يسمح له بالاستلقاء)، وكذلك فهو يحرم من الطعام خلال هذه الأيام.

ج ـ يعترف الجنرال الفرنسي (Massu) في مقابلة أجراها معه فرانسوا شاليه (Francois chalai) (على قناة الثانية الفرنسية) باستخدام الفرنسيين لتقنية "الاستجواب العميق"

في الجزائر خلال فترة أواخر الخمسينيات. وتتضمن هذه التقنية الحرمان الحسي للشخص لبضعة أيام (أي منعه من الأكل والنوم والسمع والنظر والاستلقاء.. إلخ).

د ـ في البرازيل جرى الحديث عن تقنية "الضجة البيضاء"، فبدلاً من الصمت المطبق (الهادف للحرمان الحسي والسمعي)، كان السجين يتعرض إلى ضجة طاغية كفيلة بأن تغطي على ما عداها من الأصوات (بما فيها صوت السجين نفسه). وبهذه التقنية يصبح الشخص عاجزاً عن التمييز بين ما هو واقع وبين هواماته وهلوساته الشخصية، مما يضعه في حالة اصطناعية من تفكك الشخصية.

هـ ـ لقد طورت بلدان ما وراء الأطلسي، وابتداءً من العام 1956، تقنيات متطورة لتفكيك الشخصية، وكلها متمحورة حول عزل السجناء بهدف تعطيل دماغهم، وإلغاء أية مقاومة دفلعية عندهم. إضافة إلى التسبب بالقلق والإذلال المعنوي، وصولاً إلى إحداث تناذر دماغي يحول الشخص إلى ودود مطواع على استعداد لتقبل الإيحاءات، وصولاً إلى العجز عن سيطرته على نشاطه الذهني.

و ـ رأي الطب: أجرى البروفيسور زيبيك (Zubec) دراسات على أشخاص تعرضوا لتجربة الحرمان الحسي. وخلص من دراساته إلى أن الأشخاص الذين يتعرضون طويلاً لهذا الحرمان تلاحظ لديهم تغيرات على صعيد تخطيط الدماغ، بحيث تصبح موجات هذا التخطيط بطيئة، كذلك جرت بحوث تحت إشراف وزارة الدفاع الكندية. وقد أثبتت هذه البحوث أن إقامة قصيرة في الزنزانات الإنفرادية كانت تكفي لإحداث تهيؤات هذيانية لدى المسجون. وتتحول إلى الهلوسة مع ازدياد مدة الإقامة. وكان الباحثان سميث ولويتي (Smith and Leuty) قد أثبتا منذ العام 1959 بأن الاحتجاز في غرفة صامتة من شأنه أن يؤدي إلى اضطرابات نفسية تتفاوت حدتها وخطورتها بحسب الشخصية الأساسية للأفراد.

ز ـ التعذيب الإسرائيلي: لقد استلهمت إسرائيل كافة التجارب الأنجلوساكسونية للتأثير على الوعي، ولغسيل الدماغ، وهي قد خرجت منها بباقة منتقاة من وسائل التفكيك للشخصية أضافت إليها تجارب ألمانية، وخصوصاً تجارب غروس وماير، وصولاً إلى تقنية الجرجة. وفي ما يلي نموذج لهذا التعذيب:

أ ـ الغرفة الصامتة: تخيل الرتابة لزنزانة مزودة بنور مصباح من النيون، بياضه يبهر وهو مضاء ليل نهار. وهذا العزل البصري يتلازم إضافة إلى ذلك مع عزل سمعي: تخيل هذا السكون المصطنع، حيث أبسط الأصوات، كحفيف الثياب مثلاً، تصم الآذان. وإيقاع

الأصوات اليومية التي يحتاجها كل إنسان للارتكاز إلى ذاته. هذا الإيقاع يلغي، والمعذب لا شكل معروفاً له، ولا وجه له. تلغى كل المثيرات الخارجية الحواسية (ضجيج تعكس الأضواء والألوان)، وهذه المثيرات لا يستغنى عنها في عملية حفظ وصيانة الوظائف الأكثر أهمية عند الكائن الإنساني.

تدمير الدماغ: إن هذا الشكل من أشكال التعذيب يجعل المرء في حالة من الخضوع لم يعرف حتى في العهد النازي. ومن هنا ندرك بأن غسيل الدماغ ما هو إلا مرحلة من مراحل التدمير الكامل للشخصية، وهو السبب الحقيقي لابتكار الغرفة الصامتة. وهذا أمر يسهل برهانه (إثباته)، إذ أن العزل السمعي والبصري (الكامل) أي عزل محيطي كامل، لا يمكن إلا أن يؤدي إلى تشويه الشخصية، إذ أن العلاقة التواصلية مع البيئة الاجتماعية المحيطة تشكل أحد العناصر الأساسية التركيبية للشخصية. وفي هذا الصدد يقول الطبيب النفسي الهولندي "سجيف تونز" بأن السمع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحس الجاذبية، وهذا الأخير هو حس في غاية الأهمية بالنسبة إلى حس التوجيه. وبأن حس التوجيه في ما يتعلق بمركز الجاذبية، كما أن إعاقة حس التوجيه هذا في ما يتعلق بمركز الجاذبية تشكل أحد العوارض الأساسية للوصول إلى أحداث الصرع وتأثير الصدمات الكهربائية. والبنية الإنسانية تعجز عن مقاومة الحرمان الحواسي المصطنع الذي يحدثه البشر.

متعددة هي إذن تأثيرات ذلك التعذيب، وكل وصف لها لا يمكن إلا أن يكون تقريبياً. ومع ذلك، ها نحن نظهر بعضاً من تأثيراتها الأساسية: فقدان خاصية التركيز والتفكير بشكل متماسك، والعجز عن التوجيه زمانياً ومكانياً، وهلوسات و(هذيانات) إحساس بالازدواجية، وبفقدان الأعضاء، واضطرابات قلبية ونفسية، وفقدان التوازنات الحركية، وارتجاف وتقلصات، كما يحدث أثناء الصدمة الكهربائية.

ج ـ شهادة سجينة: تصف سجينة تعرضت لهذا التعذيب في سجن ألماني إحساسها على النحو التالي: "يشعر المرء بأن رأسه ينفجر، وبأن قفص جمجمته سوف ينكسر وينفجر، وبأن النخاع الشوكي يدخل عنة إلى الدماغ. وينتابنا إحساس بأن الدماغ يتقلص باستمرار تحت وطأة توتر يجهل مصدره، وكأنه مسير إلكترونياً. ثم إن الإنسان يحس بأنه يدير وتتقارب الأفكار في رأسه، ولا يستطيع التخلص من هذا الإحساس إلا إذا تحرك. والمرء لا يدري لماذا يرتجف، ولماذا تتجلد أطرافه برداً، ولكي يتكلم بصوت طبيعي عليه أن يبذل جهوداً مضنية، وعليه تقريباً أن يصرخ ويشعر المرء كما لو أنه أصبح أخرس، ولا يمكنه أن يحدد معنى الكلمات...".

د ـ تقنية الرجرجة: وهي من أحدث إساءات استخدام المعارف المتوافرة عن دراسات النوم

وعلاقتها بالتوازن النفسي للإنسان. فأساليب غسيل الدماغ المعتمدة على الحرمان الحسي باتت معروفة ومدانة. وهي عملياً صالحة للاستخدام خلال الفترة الأولى من الاعتقال. أما تقنية الرجرجة فهي تمتاز بعدم وجود دراسات كافية لتأثيراتها، إضافة إلى انخفاض نسبة وفيات المتعرضين لها. وهي مميزات جلبت الإسرائيليين اليها لأنها تجنبهم الإنتقادات الموجهة إلى وسائل التعذيب التقلدية. وتعطيهم ذات التأثير المطلوب على أسراهم. وتتلخص تقنية الرجرجة بوضع جهاز يحدث رجرجة بسيطة تحت الرأس، بحيث لا يمنع الشخص من الإغفاء. لكن هذه الرجرجة تؤثر على مراحل النوم، بحيث يصبح تعاقبها معوقاً، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة فترات النوم السطحي، وانخفاض في فترات النوم التي تحدث فيها الأحلام. فتكون النتيجة اضطرابات ذكروية. خصوصاً لجهة انتقال الذكريات من حيز الراهنية إلى حيز التخزين. كما تؤثر هذه الرجرجة إلى الأنماط اليومي Rhytmes Circadiennes للشخص، بحيث تضطرب ساعته البيولوجية في ما يتعلق بوقت النوم، وبعدد ساعاته، ومرات التبول، وسائر العمليات المرتبطة بالجهاز العصبي اللإرادي، الأمر الذي يؤثر على القوى الإدراكية للشخص، فيصيبها بأعطال مزمنة. كما تؤدي هذه التقنية، ولو في حالات نادرة، إلى تشجيع تطور أعطال دماغية عديدة، لدرجة التسبب بوفاة بعض المعتقلين.

ومع كل السرية والتكتم المحيطين بأساليب معاملة إسرائيل للأسرى العرب، فإن تقارير الصليب الأحمر الدولي تشير بأن التقنيات التعذيبية المستخدمة ضد السجناء العرب في إسرائيل تفوق قدرات الاحتمال البشري. ولعله من المفيد للموضوعية أن نذكر هنا بأن هذا التعذيب يرتكز إلى منطلقات تمييزية تتعلق بإنسانية الأسير نفسه. فهو يتعرض للمعاناة بسبب انتمائه العربي، والشك بأفعال تنسجم مع هذا الانتماء، وليس بسبب مخالفات قانونية أو سياسية محددة. لذلك فإن كل عربي مرشح لأن يكون إرهابياً، أو ذات صلة بالإرهابيين تجعل تعريضه للرجرجة مبرراً. دون الالتفات إلى تعريف قانوني وإنساني مقبول وشامل للإرهاب، إذ يخضع للرجرجة كل من تنطبق عليه صفات الإرهابي بحسب قاموس نتانياهو في كتابه عن مكان تحت الشمس لا يجده إلا بإرهاب الآخرين، وبقمع ردود فعلهم على إرهابه.

العقاقير النفسية في الجاسوسية

إن التعذيب المتخصص لا يقف عند حدود الحرمان الحسي، والإذلال المعنوي، وإحداث تغيرات في النشاطات اليومية الاعتيادية للجسم البشري، بل هو يتعدى هذه الطرق السلبية إلى تدخل لا إنساني بصورة فاعلة، إذ تستخدم في هذا التعذيب تقنيات كيميائية وكهربائية،

وحتى جراحية. ونقصر حديثنا في هذه الفقرة على التقنيات الكيميائية (أو العقاقير النفسية) المستخدمة في التعذيب المتخصص، حيث البحث عن مصل الحقيقة قديم.

ولعله من المناسب في هذا المجال، إذ نعرض لحادثة نشرها الباحثان شيفين وأوبتون(Scheffin and Opton)، وهما أميركيان، ويرويان الحادثة التالية... ليل الثلاثاء الواقع في 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1953 كان هناك عشرة رجال يتسامرون في هدوء بعد عشاء فاخر. كان هؤلاء يحتسون كأساً في دارة بحرية، شيدت من الخشب الدائري الشكل، مؤلفة من طابقين. كانت هذه الدائرة واقعة على ضفة بحيرة (دير كريك) في ماريلاند. أحد هؤلاء الرجال كان فرانك أولسون (Frank Olson)، لكن هذا الجو الشاعري كان كابوساً، لأن ثلاثة من المدعوين كانوا يعملون لحساب وكالة المخابرات المركزية الأميركية (C.I.A)، الأمر الذي كان بقية المدعوين يجهلونه. في تلك الفترة كانت الوكالة مهتمة باختبار مادة كيميائية جديدة تسمى (L.S.D) ذات التأثيرات المجهولة آنذاك. كانت الوكالة تتوقع نتائج باهرة من استخدام هذه المادة في قضايا التجسس الدقيقة. ففي الجاسوسية من الملائم دفع من يعرف كثيراً إلى الكلام دون أن يدرك ذلك، أو دون أن يستطيع منع نفسه عن ذلك. لقد تصرف العملاء الثلاثة دون استئذان رؤسائهم، وقرروا تجربة هذا المخدر الجديد على باقي المدعوين لمعاينة تأثيراته. فوضعوا كميات مدروسة منه في كؤوس الكوانترو، وقدموها للمدعوين. وحده من بين هؤلاء تأثر فرانك أولسون تأثراً واضحاً بهذا المزيج، حتى أنه ألقى بنفسه من النافذة. كانت هذه وصمة عار، لكنها سرعان ما غيبت. إن هذه الحادثة ليست وصمة العار الوحيدة في تاريخ الوكالة. فالمؤلفان يذكران حوادث عديدة أخرى بشعة. منها على سبيل المثال قضية هارولد بلوير (H.Blaower)، وهو لاعب تنس محترف قتل بحقنة تجريبية أمر له بها معالجه النفسي بايحاء من قسم التجارب الكيميائية التابع للجيش الأميركي. على أن الأمر لا يقف عند تجارب المخدر، وغيره من المواد الكيميائية، بل يتعداه إلى الاعتداء على الدماغ.

وتقليدياً، يجري استعمال، أو بالأحرى إساءة استعمال، تقنيات التنويم ـ التحليل (Narco Analyse) بحث الشخص على الإفضاء بما يملك من معلومات، حيث تستخدم في هذه التقنية مادة آموباربيتال (Amobarbital) عن طريق الحقن الوريدي البطيء.

وعلى أية حال، فإن تجارب عديدة من هذا النوع لاتزال تجري في أنحاء متفرقة من العالم، وخصوصاً في الولايات المتحدة، حيث تذكر إيفلين لوران (Eveline Laurent) في مقالة لها في مجلة العلوم النفسية (الفرنسية) ما يلي: "... إنها حوادث متفرقة دونما روابط ظاهرة في ما

بينها، مما يجعلها غير ذات مغزى في بلد كبير مثل الولايات المتحدة، لكن الواقع يبين لنا تورط مسؤولين اجتماعيين وطبيين في عمليات حقن وإعطاء مواد مجهولة لأفراد يجهلون مخاطرها، ولا يملكون الحماية. إن هؤلاء المسؤولين لا يمثلون فقط مشاهد خرقاء من نوع الجيمس ـ بوند، بل هم يتورطون تدريجياً في عمليات جهنمية...".

ولعله من الضروري التذكير هنا إلى الأنباء التي حملتها بعض المنظمات الإنسانية عن تورط إسرائيل في إجراء تجارب شبيهة ومكثفة على أسراها العرب.

الجراحة النفسية

مثلها مثل سائر العلوم، بدأت الجراحة النفسية عبر محاولات لخدمة الإنسان، ورغبة في شفائه من اضطراباته النفسية، إلا أن الجاسوسية رأت فيها إمكانية إحداث خلل دماغي دائم لدرس أشخاص معينين.

والواقع أن هذا النوع من الجراحة يعود في جذوره إلى بدايات التشريح الطبي، إذ تشير المخطوطات إلى أن البابليين والمصريين واليونانيين كانوا يمارسون، في تلك الأزمنة السحيقة، عملية ثقب العظام (الجح). وقد وصلت إلينا من تلك المخطوطات قصة مصرية تحمل اسم المصري سينويه Sinouhe Egyptien)، وهي تقص لنا الأحداث الدرامية السيئة الطابع لطبيب مصري، وهو "ثاقب العظام الملكي"، الذي وقبل موت فرعون، حاول القيام بعمليته الفرصة الأخيرة. ومن البديهي أن عملية كهذه لا يمكن أن يكتب لها النجاح. كون المريض الملكي أي الفرعون لم يكن على الإطلاق مصاباً في دماغه. وفي الواقع علينا أن نميز بين استئصال بعض الأورام المحددة والشفاء المزعوم من سوء الشخصية، أو من ميول سيئة، إذ إن هذا هو المجال الخاص للجراحة النفسية.

وفي صبيحة يوم خريفي جميل، وبتاريخ الثالث عشر من أيلول 1848، وقع حادث مؤسف قلب رأساً على عقب الحياة الهادئة لشخص يدعى فينيا غاج Phineas Gage، وهو رئيس عمال في شركة سكك الحديد الأميركية. ففي صباح ذلك اليوم، وبينما كان يتفحص شحنة من الديناميت كانت قد وضعت في ثقب فإذا بها تشتعل عرضياً، ثم تنفجر، ولقد أدى انفجارها إلى إصابة فينيا المسكين بقضيب من الحديد اخترق خدّه ثم دخل إلى دماغه، وخرج من مقدمة جبهته. والمعجزة هي أنه نجح في البقاء على قيد الحياة، ثم نجح في الشفاء، وبعد ثلاثة أشهر بدت الحادثة وكأن يد النسيان قد طوتها.

ومع ذلك، فإن شيئاً ما قد تغير، إذ إن غاج، الذي كان على الدوام إنساناً شديد الانضباط، وموضع احترام عميق من قبل رؤسائه، أخذ يهمل كل شؤونه، وقد أصبح مزاجياً قليل التهذيب، سوقياً. السؤال الآن: هل باستطاعتنا أن نغير بهذا الشكل شخصية ما؟ هذا، في الواقع، ما أثبتته الاختبارات المنهجية التي أجريت على الحيوانات، وذلك بالإعادة المتعمدة للجراحة الفصية (أي الجراحة التي تجري في فصوص المخ الجبهية، والتي كانت المصادفة وحدها المسؤولة عن إجرائها في تلك الحادثة التي جرت لغاج).

وفي خلال مئة سنة تقريباً، لم يجرؤ أحد على التعرض إلى المخ البشري، بيد أن مونيز، وهو جراح مشهور "جرب حظه" في هذا المجال، وذلك في فترة ما بين الحربين العالميتين، واكتسب شهرة واسعة نظراً لأعماله في ميدان الجراحة النفسية، هذه الأعمال التي أتاحت له الحصول على جائزة نوبل عام 1949. إلا أنه، يوم، أصيب بطلق ناري أطلقه عليه أحد مرضاه السابقين، والذي كانت حالته على ما يبدو قد ساءت. وقد شلّ مونيز أثر تلك الحادثة، واضطر بالتالي إلى التخلي عن تجاربه.

إلا أن هذه التقنية قد استعيدت وحسّنت على يد آخرين كثر، ومنهم "والتر فريمين" "Walter Freeman"، وهو أميركي ابتكر جراحة العبر "Orbital Undercutting"، وهي عملية سريعة، وإن كانت غير مضمونة، تجري من خلال حجاج العين، ويطلق عليها أيضاً اسم "تقنية المخرز"، ذلك بسبب الأداة التي تستخدم لإجرائها، وهذا التعبير يعني بالفرنسية Leucotumie أو Logotomie Trans Orbital، أي الجراحة الفصية قد أساءت إلى نوعية العلاقات ما بين الطبيب والمريض، ولقد أصبحت هذه العملية عملية منمطة، كما أصبح الآلاف من الناس أشخاصاً لهم شخصيات مصطنعة. وفي الحقيقة فإنه لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من الإصابة بالهلع الفعلي عند قراءتنا وصف هذه العمليات، سواء عند المؤلف كوخ أوسشيفن. أو في مؤلفات أويتون. وفي هذا السياق كان والتر فريمان يجري العملية الفصية لمريضين في آن واحد سعياً لتسلية الطلاب الذين كانوا يحضرون مثل هذه الجراحة وإثباتاً لمتانة أعصابه.

ومن ناحية أخرى، ينتابنا ذعر شديد عندما نطلع على الإهمال المستمر للفريق الطبي. ففي أغلب الأحيان لم يكن يؤخذ بعين الاعتبار التاريخ الشخصي للمريض والمصادفة وحدها كانت تتحكم بالتوجيهات المحتملة لعلاج كهذا، إذ أن اختيار إجراء العملية الفصية كان يعود بالمطلق إلى رئيس القسم الذي قد تثيره العملية، أو قد لا تثيره. وكان الانتباه إلى النتائج التي قد تنجم عن العملية معدوماً: فأسئلة كالتالية: "هل أصبح المريض أقل ذكاء، أقل جرأة،

أكثر قلقاً، أقل اجتماعية، تطرح، للأسف، نفسها بقوة ذلك أن الجراحة الفصية التي اختبرت على "حالات" شديدة التمايز كان لها في معظم الأحيان نتائج مشلّة، إلا أن أكثر مسؤولي الفرق الطبية ليس باستطاعتهم الإجابة على هذه المظاهر، وذلك لعدم اكتراثهم بها، وعدم اهتمامهم بدراستها.

أ. قضية شقيقة الرئيس الراحل جون كنيدي

من بين أشهر ضحايا هذا التخريب الدماغي شقيقة الرئيس الأميركي الراحل جون كنيدي، وتدعى روز ماري كنيدي. فالقصة بدأت عندما لوحظ بأن هذه الشقيقة تعاني من تخلف عقلي بسيط (وهنالك تساؤل حول هذا الموضوع: فهل كان لأمر يتعلق فعلاً بتخلف عقلي، أو باضطرابات عصابية). وأهل كنيدي لم يتقبلوا الأمر برحابة صدر، إذ أنهم قد اعتادوا أن يكون أولادهم من اللامعين والمبرزين. وخلال فترة مراهقتها، أصبحت روز ماري صعبة المراس، عنيفة إلى حد أنها ألقت على أمها "شيئاً ما"، مما أثار الفضيحة، فالعائلة مرموقة وغنية. وهذه الأحداث تدور في الأربعينيات، حيث كانت الجراحة الفصية في أوج مجدها، فاستشارت العائلة طبيباً نفسياً مشهوراً أقنعها بقبول إجراء العملية للإبنة المصابة.

"إلا أن روز ماري"، وأثر الجراحة، لم تعد هي نفسها، كما في السابق، بالرغم من أنها قد أصبحت هادئة تماماً، وهذه الشابة التي كانت في السابق مليئة بالحيوية أصبحت دون شخصية على الإطلاق. ومنذ ذلك الحين أمضت حياتها في تراخ ساكن، وكان قدرها أن تستقر في مشفى في ويسكونسين Wisconcin.

وواقع الحال أنه، وفي أيامنا هذه، يقول أيفمون كوخ، لم يعد هنالك لجوء إلى الأسلوب "الوحشي" الذي كان يستخدمه الجراحون الفصيون في الأيام السالفة، فقد تطورت التقنية إلى أبعد الحدود، واختفى المبضع ليفسح في المجال للقطب الكهربائي (L'electrode) الخاص بنظام التعيين الدقيق للبنيانات الدماغية العميقة. وهذا النظام مستخدم في جراحة الأعصاب Sthesotaxie. وبفضل هذا النظام يمكن اجتثاث مناطق دماغية محصورة بشكل دقيق ومعينة سلفاً. وهذه الطريقة تتيح الإقلال من تدمير المادة الدماغية وبتحقيق تغييرات لا تحصى على الترسيمة نفسها: تأثير على اللوزتين، على منطقة ما تحت المهاد، Hypothalamus، ومنطقة المهاد البصري، إلى آخر ما هنالك. ولكن، وفي الوقت الذي تصبح فيه موجبات إجراء العملية متنوعة أكثر فأكثر: العصاب القهري، الشذوذ الجنسي، الجنوح، العنف، وحتى الهوس الديني، كلها تصبح حجة لإجراء الجراحة، كما تشهد على ذلك قصة ذلك المريض

الهولندي التي رواها كوخ في كتابه استناداً إلى أحاديث الجراحيْن اللذين أجريا العملية، وهما هايمان وفان فيلين Van Veelen. Haayman.

ب. الكهرباء والتأثير على الدماغ.

"عندما نثير كهربائياً منطقة دماغية كان قد تم تعينها، وذلك من أجل التأكد من التموضع الدقيق للموجة، كان بإمكاننا، وكما نشتهي، إظهار أو إخفاء أي مظهر قهري (وسواس قهري). ففي كل مرة كنا نثير فيها منطقة معينة من مناطق الدماغ كان المريض يبدأ بتلاوة: أبانا الذي في السموات"، ولذا كنا نثير هذه المنطقة أو تلك في الدماغ". وهذه عملية كما يؤكد كوخ كانت تؤتي ثمارها، "وعندما كان المريض يفقد الرغبة في الصلاة، كان يصبح عرضة إلى حالات خطيرة من القلق، كما لاحظ ذلك جراحو الأعصاب بأنفسهم". ومن هنا كان يطرح السؤال عما إذا كان عليهم إجراء عملية جديدة وفي هذه الحال، إلى متى الاستمرار؟

كيف وأين يجب التوقف؟ هذا ما لم تحدده دراسة إيفمون كوخ. فبالنسبة إلى جراح الأعصاب كل شيء تحلله له مهنته. فلماذا لا يحاول مثلاً انتقاء "مرضاه" من نزلاء السجون، فمن المغري والسهل إجراء عملية من هذا النوع لمجرم من المجرمين وبموافقته طبعاً بعد أن يأخذ وعداً بأن يطلق سراحه عندما يصبح "عاقلاً"، وأيضاً يمكن انتقاء "المرضى" من أفراد المجتمع: معارضين مزعجين متظاهرين صاخبين، أو حتى الأولاد المتعبين الذين كما يقول بعضهم، يظهرون "خللاً بسيطاً في الدماغ، ولم يجر التحقق منه تشريحياً".

غسل الدماغ

قبل أن ننتقل لعرض مراحل عملية تجنيد الجواسيس من خلال رواية تصف هذه المراحل بدقة بالغة نجد من الضروري أن نعرض لبعض المعلومات التي توضح مبادئ غسيل الدماغ بعد أن أشرنا إلى مبادئه التقنية، ونبدأ بعرض بعض الأفكار الواردة في كتاب فانس باكار Vance Packard، وهو المؤلف الأميركي المعروف بكتابيه "الإقناع الخفي"، و"فن التبديد"، وهي أن هذا الكتاب قد طرح أسئلة حول كل نواحي هذا الموضوع، وبالتالي فإنه لم يحلل نمطاً واحداً، أو أنماط عديدة من هذا العمل الخفي، وأنماط "تحريك" المواطنين نمطاً واحداً، أو أنماط عديدة من هذا العمل الخفي، وأنماط "تحريك" المواطنين البسطاء، بل إنه طرح المسألة كلها بظواهرها الاجتماعية، الطبية والنفسية.

وهنالك مرجعان يذكرهما فانس في مقدمته، وهذان المرجعان يضعان القارئ على الفور في صلب المسألة، وهما "1984" لجورج أورويل، و"أفضل العوالم" للكاتب الروسي هوكسلي، وهذان الكتابان معروفان جيداً لهواة الخرافة العلمية بشكل خاص، ولقراء الروايات بشكل عام.

و"أورويل" كان يكتب في زمن ستالين وهتلر، و"الاخ الأكبر" الذي يقود العالم في عام 1984 يستخدم بشكل خاص الوسائل القمعية، ولذا فهو يراقب البيوت بواسطة آلات التصوير الخفي، كما أنه نصّب رجال شرطة لمراقبة أفكار الناس، أما بالنسبة إلى هكساي، فإنه بالأحرى يذكر معالجات ذات طبيعة بيولوجية، وروايته تجري أحداثها بعد وقت طويل من الزمن الذي جرت فيه أحداث رواية "أورويل"، وتتلخص رواية هكساي بما يلي:

تؤخذ الأجنة البشرية وتوضع في حاضنات اصطناعية تهدف إلى تكوين كائنات بشرية محددة المواصفات، وذلك بارتباط وثيق مع كمية الأوكسجين، والتي تحدد مستوى الذكاء. وعندما يكبر الطفل يعالج بمختلف ضروب التقنيات التي تهدف إلى جعله يقبل بمحض إرادته، وبكل طيبة خاطر وسعادة وضعه الاجتماعي وتنظيم العالم.

فالشرطة والبرنامج البيولوجي (البرمجة) والتأثير النفسي تشكل ثلاثة وسائل لتعديل التصرفات البشرية، إلا أن فانس باكار يحذرنا من أن غالبية الوصفات المتخيلة لمستقبل بعيد هي طور التحقيق، أو أنها موضوعة في احتمال علماء مشهورين.

ا ـ نظرية 3 د "3 D":

كيف يمكن مراقبة إنسان وجعله يقبل القيام بأفعال تحمله على الاشمئزاز عندما يكون في حالته النفسية الطبيعية؟ هذا بديهي يا عزيزي واتسون Watson (وهو صاحب نظرية الأشرطة المشهورة) يجيب باركار: الخطوة الأولى: تستولي على جسده، وقد يطرح هذا الأمر بعض الإشكالات أحياناً، وخاصةً في البلدان ذات الأنظمة اللاقمعية. ولكن بعد ذلك أمر بسيط حقاً، إذ أنه يكفي تحقيق الحالات الذهنية الثلاث التي تهيئ التحول، والتي يدعوها باكار "بالدال المثلثة" Les Trois D.

والدال (د) هي الحرف الأول لثلاث كلمات إنكليزية، والتي تعني بالعربية:

1 ـ المتاهة Debility.

2 ـ الرعب Dread.

3 ـ التبعية Dependancy.

وبالفرنسية:

1. Affaiblissement.

2. Terreur.

3. Dependence.

1 ـ العتاهة: يجبر السجين على البقاء دون حراك لساعات طويلة، وهذا ينهكه بالطبع. وهنالك أنواع عدة للتوصل إلى هذه الخطوة الأساسية.

2 ـ الرعب: السجين يعيش التهديدات، ويعامل بوحشية، وهو قد يعذب أو يجلد أحياناً، وبالتالي يعيش حالة قصوى من الإذلال والانحطاط.

3 ـ التبعية: يصار إلى فهم السجين بأن مصيره يتعلق بمزاجية الحراس، وبأنهم هم الذين ينعمون عليه، أو لا ينعمون، بالطعام والنوم، وتتوالى التصرفات تارة عدائية، وتارة أخرى ودودة، وذلك دونما سبب واضح.

ونادرون هم الأشخاص القادرون على المقاومة الفعالة الطويلة الأمد لهذه العمليات الثلاث. وبالإمكان إعطاء أمثلة على استخدامها: المحاكمات السياسية في الاتحاد السوفياتي، في التشيلي وفي الأرجنتين، تنظيم مجموعة شارل مانسون Charles Manson، التي أدارت عن بعد عملية اغتيال شارون تايت Sharon Tate، و"ضبط" باتي هيريست Patty Hearst هذه الوريثة الثرية التي اختطفت، والتي التحقت أو بالأحرى "الحقت" بصفوف "جيش التحرير"، وقامت بهجومات مسلحة. والمثل الأخير هو الانتحار الجماعي لأتباع (طائفة جونز) في غويانا Guyana.

والتشريط الفعال (Conditiqmemmt operat) بوروس. ف. سكنير Skiner Burrhus يبدو أنه أكثر علمية ومنهجية، وأكثر قدرة على أن يؤثر بنعومة فائقة وخفية في كتل بشرية ضخمة. وهذا الباحث الأميركي يمكن اعتباره كمنافس لبافلوف وواطسون مؤسس "المذهب السلوكي" Behaviorisme، فموضاً من أن يأخذ بعين الاعتبار الأفعال التشريطية الجسدية السلبية (مثلاً كلب بافلوف الذي كان يبدأ بإفراز اللعاب فور سماعه صوت الجرس الذي يلازم الوجبة)، فإنه أي سكينر ركز انتباهه على بناء تصرفات فعلية الأعداد (وهي سلسلة من الحركات المعقدة عند الحيوانات التي ترغب في الحصول على الطعام مثلاً)، وعلى حساب جلسات التعلم. وهكذا، وفي الخمسينيات، وبعد أن حضر درساً في الحساب عند ابنته تخيل سكينر آلات تعليمية تجزئ كل مراحل العلم، وتنبه الطالب الذي كان يتقدم بصورة مرضية إلى صحة جوابه قريباً مكافأة ممتازة.

وهذا كله لا يشكل في ظاهره ما يصدم. ولكن، هل بإمكاننا أن نتوقف عند هذا الأمر دون أن نأخذ بعين الاعتبار مجموع مفاهيم سكينر؟ فهو يرفض أن يأخذ في الحسبان ما يجري في داخل الكائن البشري، إذ أن النفس الإنسانية هي عبارة عن صندوق أسود لا فائدة له، ويضع نفسه عمداً في الجانب الآخر من الحرية والكرامة، كما يؤكد في أحد كتبه، وهو يعتقد بأن الكائنات البشرية يجب أن تخضع لمراقبة متزايدة، ويبرهن عن تشاؤم مناهض لكل المتناقضات التي يمكن أخذها بعين الاعتبار. وكما يؤكد أحد تلامذته، فإن هدف أبحاثه، أي أبحاث سكينر، هو "إنتاج أو خلق كائنات بشرية جديدة، والذي يمكن أن يتحقق، وخاصة انطلاقاً من السجون، بواسطة دمج الحرمان الحسي، والمخدرات، والاستخدام الذكي للحوافز والعقوبات أي باختصار كل التقنيات والوسائل التي تتيح السيطرة المطلقة على السلوك الفردي.

ب. من اللواطيين إلى المرذولين:

تشكل إعادة تأهيل الجانحين حقلاً تطبيقياً لهذه المبادئ الأساسية. ولنأخذ مثلاً حالة اللواطيين. فدون شك أن هؤلاء يربكون إلى حد ما النظام الاجتماعي (الاستقرار الاجتماعي)، وهذا أمر لا يتقبله سكينر مطلقاً، إذ أنه من المتمسكين المتشددين في قضية النظام والاستقرار الاجتماعيين، ويريد من الجميع صونهما والحفاظ عليهما كما هي الحال في نظام المختبرات.

ويصف لنا باركارد العلاجات المطبقة على أولئك الذين فسدت ميولهم فلا يحبون النساء، يصفها لنا على النحو التالي: "تقنية إثارة الاشمئزاز هي التي كانت تستخدم غالباً مع اللواطيين، وتقضي بأن تعرض عليهم صوراً تثيرهم جنسياً، وفي لحظة الإثارة هذه ترسل على أعضائهم التناسلية شحنة كهربائية مزعجة (مؤلمة)، ثم بعد ذلك تعرض لهم صور نساء في أوضاع مثيرة، ولكن دون تعريضهم إلى شحنة كهربائية. وتقنية فك الارتباط هذه استخدمت في سجن كوننكيتكوت "Connecticut" في الولايات المتحدة الأميركية.

وهنالك علماء نفس متخصصون في دراسة السوك يفضلون استخدام العقاقير التي تحدث تقيؤاً عند إظهار الصور، أو عرضها على اللواطيين، إلا أن الأفراد الذين تجري عليهم التجارب ليس فقط من السجناء الذين قد يتطوع بعضهم لهذا الغرض، فهنالك عدد كبير من برامج التشريط التي وضعت في سبيل تخليص الأطفال من التصرفات السيئة التي تزعج أهلهم ومحيطهم على السواء. ومؤخراً، وفي كتاب ترجم إلى الفرنسية (ن. انزن ور. فوكس: "هل

تريد أن يكون عندك ولد لطيف". هنالك طبيبان يرشدان الأهل الراغبين في ذلك كيف أن الطفل المنمط (المشرط) يمكن أن يصبح نظيفاً وبسرعة. ومن ناحية أخرى، يذكر باكارد حالات سلس البول (التبول غير اللإرادي)، والتي قد تشفي أكثرها، وخاصة في بريطانيا، بواسطة شحنات كهربائية سلطت على الأعضاء التناسلية حالما بدأ المصابون بها بتبليل فراشهم، وكما لاحظ الكاتب "فإن السؤال الذي بقي دون جواب هو: أليس سلس البول عبارة عن عارض مزعج بشكل خاص ناتج عن اضطراب عاطفي؟".

واحد المقاطع المضحكة والمبكية معاً في كتاب باكارد هو ذلك المقطع الذي يتفحص فيه المؤلف "تناذر المرذول"، والتي يقترحها المشرّطون. فعلماء النفس "السكينريون" يذهبون إلى منزل الطفل مجهزين بآلات تسجيل، وبآلات تصوير وآلات توقيت الزمن، وذلك لكي يحيطوا بالمشكلة في إطارها الطبيعي. ثم يرتبون المشاهد التي تؤخذ على مدى فترة طويلة من الوقت والتي، أي المشاهد، تحمل مغازي كثيرة للتناذر الذي هو موضوع الدرس والمراقبة، وأثر ذلك يحدد العلاج. وهنالك صبيان صغيران، أحدهما يدعى "جف"، والآخر "بيتر" استطاعا الاستفادة من طريقة العلاج هنا. سجل بيتر يشتمل على تسع جرائر (نقائص، أو عيوب)، وهي إبراز اللسان إلى الخارج، شتم الناس، نزع الثياب أو التهديد بذلك، قول "لا" بشكل عنيف، دفع أخته الصغيرة، إلى آخره... وبعد ذلك يقوم المعالجون بإعداد لائحة لردات فعل الأم، والتي يكون قد سبق الإتفاق عليها بينها وبين أولئك المعالجين: فعند إشارة (أ): مثلاً يُعطى بيتر أمراً بإيقاف ما يقوم به. وعند الإشارة (ب) يُعطى مكافأة، أو يداعب. ولقد دامت كل جلسة من الجلسات الخمس والأربعين، ساعة كاملة. وفي نهاية الجلسة الثلاثين، أصبح بيتر يبدو أكثر ليونة وأكثر تقبلاً للأوامر من ذي قبل.

"جيف" وهو ولد في عمر الثامنة، صعب المراس جداً وعدائي، لم يكن حظه كحظ بيتر، فسلس بوله الذي عولج بنفس الأساليب، قد زال إلا أن أزمته الصدرية وحساسيته لم تتحسنا.

ومجال عمل هؤلاء المعالجين كان دون حدود تقريباً، إذ إنهم يبدون رأيهم في تشريط السعادة الزوجية، والتي كانوا يحققونها في بضعة دروس هادئة، كما أن لهم رأيهم في تشريط سلوك طلاب المدارس الذين كانوا يعدلونه بواسطة قطع معدنية لها قيمة رمزية، وكانت توزع على الطلاب في اللحظات المناسبة. كذلك لهم رأيهم حتى في الحياة اليومية لمجموعات اجتماعية كاملة كمجموعة "توين أوكاس" التي أنشئت في نهاية الستينيات، وفي ذلك أول محاولة للتطبيق الشامل للمبادئ السكينرية.

وهنالك طريقة أخرى تسمح بالحصول على نتائج مذهلة، ألا وهي طريقة التأثير على

الدماغ، ونحن لا نعني بذلك فقط الجراحة النفسية كما رآها باكار وكوخ، وإنما أيضاً الإثارة العضوية بواسطة المساري الكهربائية تبعاً لتقنية جوزيه دلكادو. وهو باحث إسباني قام بأبحاث وتجارب في جامعة "زياتس" في الولايات المتحدة الأميركية.

ومنذ بضع سنوات، شرع دلكادو بإعداد خريطة لمناطق الدماغ التي إذ أثيرت كهربائياً تجعل الحيوانات المتوحشة هادئة ومسالمة. وأثناء هذه التجارب، قرود متوحشة عادة، وهي من فصيلة معروفة بشراستها (Rhesus) تقبلت مداعبة أفواهها، دون أن تعض من كانوا يقومون بذلك {وكان يكفي أن تثار كهربائياً منطقة خاصة من (Noyaux Caudes)، والتي تقع بالقرب من الدماغ الأوسط}. كما أنه، وبنوع من الإثارة، بدا هرٌ أمام فأرة صغيرة جداً. ولقد تم الحصول على نفس النتيجة مع ثور مصارعة: فعندما كان دلكادو يضغط على زر محدد كي يثير بواسطة جهاز إرسال نواة اللوزتين عند الحيوان الهائج، كان هذا الأخير ينتحي جانباً مخففاً من سرعته، ويغادر الحلبة.

وتخفيف العدائية بواسطة تمرير التيار الكهرائي طبق أيضاً على البشر، والذي قام بذلك على الأخص هو روبرت هيس من جامعة تولان (Tulane)، ولقد قام بتجهيز المرضى العقليين العدائيين بشكل خطير، قام بتجهيزهم بمساري كهربائية. ولم يكن على المريض إلا أن يشغل الآلة عندما كان يشعر بانزعاج، وفي واقع الحال فإن فيلماً قد صور في هذا الخصوص، فأبرز أحد المرضى الذي جنّب نفسه حالة عدائية، وذلك بضغطه على زر المثير.

أما بالنسبة إلى التأثير بواسطة العقاقير، فيبدو أنها هي أيضاً تبشر بمستقبل واعد. فالعلماء سبق لهم أن جهزوا جميع أنواع العقاقير التي يمكن أن تقارن "بقميص كيميائي يلبسه المجانين"، وكم هو سهل إعطاؤها لكل إنسان عنيف بشكل مختلف، ودون أن يدرك بالطبع، وأيضاً يمكن إعطاؤها لمجموعات، أو لشعب بكامله، بواسطة مياه الشرب. ويمكن أيضاً، وكما يقترح باكار بشكل لطيف أن تعرض على الحكام "حبوب سلام" تمنعهم من تفجير أزمات خطيرة. ولنضف لهذه المجموعة، التنويم المغناطيسي، المراقبة الإلكترونية، والرياضية للدماغ، وذلك لرفع (Q I) (معدل الذكاء)؟ ولسوف نقرّ بأننا في أعلى درجة من الجهوزية لمراقبة كل نتاجات الفكر الإنساني والسلوك الإنساني ابتداءً من هذه اللحظة. ولكن علينا أن نقر أيضاً بحاجة الإنسانية إلى مواثيق أخلاقية شمولية قابلة للتطبيق دون تمييز، ومن بينها تعريفات للإرهاب والعنف والعدوان. وذلك حتى لا تتجرع الضحية عقاقير مضادة للعدائية، بما يشجع الجلاد على عدوانيته.

تجنيد الجواسيس

نظراً للغموض والسرية المحيطان بتطبيقات علم النفس في ميدان الاستخبارات، فإنه من المتعذر الكلام عن تقنية موحدة لهذه التطبيقات، فالأمر يشبه إلى حد بعيد لعبة الشطرنج، حيث توجد قواعد عامة للعبة، ولكن لا توجد لها خطط ثابتة. فالتجسس المضاد، ومحاولة تجنيد جاسوس، تقابلها جهود حماية الشخص من التجنيد كجاسوس.

والواقع أن عرض عملية تجنيد الجواسيس هذه تصادف عقبات تحول دون تقديمها في قالب منهجي متكامل. هذا التقديم الذي تمكن منه روائي يدعى جيل بيروت (G. Perrott) من خلال روايته المعروفة بالملف 51 "Dossier 51" الصادرة عن دار فايارد (Fayard) الفرنسية العام 1968، ضمن مجموعة كتب الجيب (Livre de Poche) الرقم (3379).

هذه الرواية البوليسية تدور حول محاولات تجنيد أحد الجواسيس، وتركز على الأجواء النفسية التي تخلقها الاستخبارات لتجعل الشخص في حالة نفسية تجعله يقبل فكرة التجنيد. في المقابل، فإن عنصر الإثارة في الرواية يرتكز إلى جهود التجسس المضاد التي تعرقل سير محاولات التجنيد. وفي ما يلي عرض في غاية الإيجاز لهذه الرواية:

.... سفير إحدى الدول النامية في دولة أوروبية يتولى منصبه عقب حدوث انقلاب في بلده، ويبعثه الانقلابيون كسفير لإبعاده عن المطالبة بمنصب آخر محلي كونه من المشاركين في الانقلاب، بحيث يبدون أن طموحاته كانت أكبر من مكافأته.

جهاز الاستخبارات من جهته يود كشف غموض الانقلابيين، ومراقبة التطورات المرتقبة في بلدهم، وفي مواقفهم السياسية، والسفير يشكل هدفاً رائعاً لجمع هذه المعلومات. الرواية لم تشر للسفير باسمه بل برقم ملفه. وفي هذا إيحاء بأن عمليات التجنيد هذه مكثفة ومبرمجة ومصنفة بصورة رقمية، وليس بصورة فردية. مما يؤكد للقارئ ميكانيكية الأساليب المعتمدة. وتعتمد هذه الميكانيكية بداية على جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشخص. بداية من جمع آراء رفاقه في المدرسة حول طفولته وحول الانطباعات الشخصية التي خلفها لدى هؤلاء الرفاق، ثم جمع المعلومات عن عائلته ومصادر الضغوط العائلية الملقاة على عاتق الشخص، بما في ذلك الأزمات والخلافات والفضائح والمسائل التي يمكن تحويلها إلى فضائح... إلخ. يلي ذلك جمع المعلومات عن زوجته، وعن علاقتها الأسرية والاجتماعية، وعن ظروف زواجها وقبولها المبدئي به، مروراً بتحديد دينامية تطور العلاقة الزوجية وحالتها الراهنة... إلخ، بالإضافة إلى أية معلومة يمكن للجهاز الحصول عليها بشتى الطرق المتاحة

(التنصت على الهاتف، المراقبة، التسجيل، المقابلات... إلخ).

وعندما اكتملت هذه المعلومات لدى الجهاز حولها كاملة (بشكل تقارير متفرقة إلى الاختصاصيين النفسيين لتحديد نقاط الضعف التي يمكن الاستناد إليها في الضغط على الشخص لغاية شعوره بأن كل أزماته ستنفجر في وقت واحد، بحيث لا يتاح له ضبطها، أو التصدي لكل منها على انفراد. وعندها يصبح المرء بإنتظار المعجزة، أو الظاهرة الخارقة... وعندها فقط تطرح مسألة التجنيد ويطرح في مقابلها التعهد بحل كافة المشاكل الشخصية.

وبالفعل، يتوصل الجهاز إلى تحديد هذه النقاط، وأهمها أن للسفير أخاً يعاني من مشاكل يمكنها أن تتحول إلى الفضائحية، وتؤثر على مركز السفير ومستقبله. أما عن علاقته بامرأته، فإنها لم تكن دافئة، ولكنه كان يكنّ لها مودة وحباً غير ظاهرين، وهذه طبيعة الانطوائيين. في المقابل كانت لامرأته علاقة خارج إطار الزوجية.... إلخ.

بالعمل على هذه النقاط، تمكن الجهاز من إقناعه بالعمل معه كجاسوس، لكن هذه القناعة لم تجد طريقها للترجمة، لأن المخابرات المضادة عمدت إلى تصفية هذا السفير جسدياً.

وهكذا، تقدم هذه الرواية عرضاً مفصلاً وواقعياً عن مراحل تجنيد الجواسيس، وعن الأساليب المتبعة في جمع المعلومات عنهم، وتحليلها من الناحية النفسية التي ترسم للشخص صورة واضحة عن شخصيته وميوله وعلاقاته وردود فعله المحتملة.

علم نفس الحروب

إن تطبيقات العلوم النفسية في الميدان العسكري تحولت سراً إلى اختصاص متكامل يختلف عن باقي الاختصاصات بعدم إمكانية دراسته في الجامعات والمعاهد التعليمية، كونه يشكل مجموعة من الأسرار الأمنية. وهذا الاختصاص يتناول كافة النواحي التي تهم القادة الأمنيين، سواء في مرحلة السلم، أو في زمن الحرب، لذلك فإن هذا الاختصاص يهتم بالنواحي التالية:

أ ـ دعم الروح المعنوية للعسكريين.

ب ـ اختيار الأشخاص المؤهلين للدخول إلى الحياة العسكرية.

ت ـ التعامل مع الطوارئ النفسية في حالات الأزمات والحروب.

ث ـ مواجهة محاولات التجسس المضاد.

ج ـ تنظيم العلاقات مع الجمهور (من غيرالعسكريين وتقنين انفعالاته).

ح ـ توجيه السياسة الدعائية للمؤسسة العسكرية.

خ ـ دعم أجهزة المعلومات.

د ـ علاج الحالات الصدمية.

من هذا الاختصاص اخترنا أن نعرض لموضوع: الآثار النفسية والمستقبلية لعملية "عناقيد الغضب". وهي مقالة تم عرضها للجمهور الواسع، عن طريق الصحف اليومية، بهدف التوعية وتعريف الجمهور على الآثار المباشرة والمتأخرة لهذه المواجهة الصدمية (راجع فصل تطبيقات لبنانية).

فخ تحويل العلماء إلى جواسيس

تراجعت طموحات الفلسفة مع تطور المعارف الذي أتاح معرفة أوثق بالجهل، واستمر هذا التراجع تدريجياً حتى وصلت الفلسفة إلى عصر أطلقت عليه تسمية "عصر سقوط الأيديولوجيات"، واقترنت هذه التسمية بمصطلح آخر هو "النظام العالمي الجديد".

هذه المصطلحات والتسميات وتفرعاتها على علاقة مباشرة بسقوط الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة. لكن معاني هذه المصطلحات تشبه مصطلح الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي لم تكن امبراطورية، ولا رومانية، ولا مقدسة. ولكنها على أية حال ساعدت على إطلاق أفكار يصعب اعتبارها فلسفية بالمفهوم التقليدي للفلسفة. وكان من الطبيعي أن تتأثر العلاقات الدولية بهذه التغييرات الطارئة على الفكر الإنساني، ومن ضمنها العلاقة التجسسية التي كانت علماً جرى تسخيره لدعم الأيديولوجيات، واستنفرت من أجله العلوم والمعارف المتوافرة كافة. فماذا حصل بعد انحسار الأيديولوجيات؟ لقد تحولت طموحات الفلسفة من الكون إلى الإنسان، ومنه إلى الفرد، فكانت أهمية قصوى وليدة العلوم الإنسانية، التي تبدو اليوم وكأنها الرديف المعاصر للفلسفة. كما باتت هذه العلوم أداة من أدوات التجسس، فانتقلت الجاسوسية بذلك من علم الجاسوسية إلى جاسوسية العلم.

الوطن العربي من جهته فشل في تطوير مناهج إنسانية صالحة لثقافته، كما فشل في تحديد الموضوعات ذات الفعالية الإجرائية بالنسبة له. حتى بات ينظر للعلوم الإنسانية نظرة سيكولوجية وسوسيولوجية وأنثروبولوجية نظرات شك تمتزج بالخوف من هذه العلوم كأداة اختراق ثقافي. وبقي السؤال المحير مطروحاً: "هل تستخدم هذه العلوم كحصان طروادة للاختراق الثقافي؟". ثم صار السؤال ذاته أكثر إرهاباً مع تطور وسائل الاتصال من إنترنت وقنوات فضائية.. إلخ.

في عودة إلى الواقع العملي، وفي محاولة لاستشفاف الأجوبة، نجد بعض الظواهر اللافتة والمتعددة، حيث تكرار هذه الظواهر ينفي عنها بعد الصدفة. أعني بهذه الظواهر تلك الجمعيات والدراسات ومراكز البحث المهتمة بالإنسانيات في الوطن العربي، والتي شهدت طفرة لا يمكن ردها إلى الصدفة، خصوصاً أن معظمها يعتمد في تمويله على جهات أجنبية، وهذه الجهات هي مفتاح اللغز حول الاختراق الثقافي.

بادئ ذي بدء، أود تسجيل انخفاض الطموحات من الاختراق الثقافي إلى الحصول على معطيات حول حركة المجتمع العربي تتيح لمحليها استشفاف متغيرات حركة هذا المجتمع خلال العشرين سنة المقبلة، وربما مع محاولة التأثير على هذه الحركة، وتوجيهها باتجاهات عكس أيديولوجية. ولعله من المهم إعطاء بعض عناوين الإنسانيات التي تشجعها وتؤسسها وتحركها الجهات الأجنبية. لكنني قبل أن أعرض لهذه العناوين أود التذكير بأن الشك والخوف من الإنسانيات يجب ألا يمتد إلى الجميع، وإلا فقدنا إمكانيات الإفادة العملية من العلوم الإنسانية.

إن غالبية هذه الجمعيات تحمل عناوين حقوق الإنسان، ورعاية الضحايا والمقعدين، وحل الصراعات، ومناهضة الاستبداد والتعصب والديكتاتورية وحقوق الأقليات... إلخ.

هذا ويتحول الخوف إلى رهاب عندما نعلم حجم المعونات الأجنبية المقدمة إلى هذه المراكز، فقد ارتفع الإنفاق على دراسات حقوق الإنسان لوحدها من 80 مليون دولار في عقد الثمانينيات إلى 8 مليارات دولار خلال أوائل التسعينيات. ولقد دخلت مساهمة في هذه المعونات دول لم يكن لها اهتمام بوطننا العربي، مثل ألمانيا، وخصوصاً الدول السكندينافية والسويد على الوجه الأخص.

عند هذا الحد، لا بد من التساؤل عن مواقف المثقفين العربي من هذه الظواهر وتفسيرهم لها، وقناعاتهم بآثارها الجانبية المحتملة على المدى القريب والبعيد. هذه المواقف تتوزع على النحو التالي:

1 ـ الموقف المتعاون: يرى عدد لا يستهان به من الاختصاصيين العرب بالإنسانيات أن هذه الظواهر طبيعية، وأنها تتيح لهم تمويلاً يفتقدونه محلياً لإجراء دراسات وأبحاث يعتبرونها ضرورة اجتماعية وتنموية. وهم يردون ارتياحهم للتعاون مع هذه الجهات الأجنبية، إلا أن الدول العربية نفسها تتعاون مع هذه الجهات على صعيد حكومي رسمي، حتى أن المراكز الحكومية تستقطب ما بين 50 و90٪ من المنح والمعونات البحثية الأجنبية.

2 ـ الموقف المعادي: ويرى أصحابه أن هذه الهبات المادية لابد من أن تكون موظفة لغاية بعيدة عن المصلحة الوطنية الصرفة، أقله أنها ترمي إلى جعلنا نبتلع مبدأ "النظر غير المتساوي"، أي أن تخضع حقوق الإنسان والإنسانيات عموماً لنسبة من المصالح السياسية الممولة، وربما هي القناع الجديد للمخابرات لتحويل العلماء إلى جواسيس.

3 ـ الموقف الوسطي: ويرى أصحابه أن الخوف من هذه التمويلات هو خوف غير منطقي إذا كان مرادفاً للانغلاق العلمي والثقافي، لكنهم يرونه منطقياً إذا كان فيه ما يتعارض ولو من بعيد مع المصلحة الوطنية. وهؤلاء يعلنون عن استعدادهم لقبول المساعدات الأجنبية، ولكن بشروط، منها القناعة بالموضوع المطروح للبحث، وشروط العقود يجب أن تكون محترمة، وغير متجاوزة، وضرورة مراجعة دورية للبحوث الممولة أجنبياً من قبل لجان علمية وطنية.

4 ـ الموقف الساخر: وهو وإن كان موقف قلة من المتخصصين العرب، لكنه يحظى بقبول أوسع من بقية المواقف. ويرى هؤلاء أن هذه الجهات الأجنبية تقع ضحية محترفي فبركة أبحاث، وبأن مراجعة بسيطة لتاريخ المتعاونين مع هذه الجهات تبين اهتمامهم بالشهرة وبالمال والسياسة أكثر من اهتمامهم بالعلم، حتى أن أحد الزملاء المصريين من أصحاب هذا الموقف أجابني بالنص: "يا ويل هذه الجهات الأجنبية إذا كانت تعتمد فعلاً على معلومات هؤلاء النصابين".

ربما جاز لي بعد استعراض هذه المواقف الإدلاء برأي الشخصي بهذا الموضوع، فأنا أعتبر أن المعلومات التي تنتجها هذه الأبحاث يمكن للجهات الأجنبية الحصول عليها بأساليب متعددة، وعبر قنوات مختلفة، وبالتالي فإنها مصدر محدود للمعلومات. كما أنني أستبعد احتمال الفبركة وتزوير النتائج من قبل بعضهم. ولي في ذلك تجربة شخصية مع أفراد غير متخصصين كانوا يدعون إجراء الإحصاءات التي تأتي نتائجها مضخمة عشر مرات على الأقل مقارنة مع الواقع. مع ذلك فإن الموضوع الرئيسي في رأيي يبقى مسألة مناهج. وسأحاول تدعيم رأيي هذا ببعض الأمثلة:

1 ـ جرت دراسة عالمية عن مستوى البؤس في العالم، وكانت نتيجتها أن الدول الفقيرة بائسة، وأن الدول الغنية راغدة العيش، لكن هذه الدراسة اعتمدت مؤشرات مثل كمية المياه المتوافرة للفرب، وأهملت مؤشرات الانتحار، والإدمان والأمراض المتنقلة جنسياً والشذوذ... إلخ.

2 ـ إن إهمال الدراسات المتعلقة بالأشخاص المحتاجين إلى دور إيواء لعامل إصرار الأسرة

العربية على رعاية من يحتاج من أعضائها يجعل هذه الدراسات تقدر حاجة مجتمعنا إلى مثل هذا الدور بضعة أضعاف الحاجة الفعلية، بل إن هذه تخرج بنتيجة مؤداها أن النقص في دور الإيواء هو علامة من علامات البؤس في هذه الدول.

3. إن ما يجري تحديثه من الأنظمة الضريبية يتجاهل واجب رعاية الوالدين، وغيرها من الأعباء المترتبة على دافع الضرائب انطلاقاً من قواعد القيم في مجتمعنا.

4. إن الدراسات الأجنبية كافة تتعامل مع المجتمع العربي من خلال مبدأ "النظر غير المتساوي"، فهي تنسى أن لكل مجتمع قيمه الخاصة، وتتجاهل في تحليلها للنتائج عوامل ومؤشرات حيوية، فتصل بذلك إلى تشخيص خاطئ لأزمات هذه المجتمع وحاجاته، الآخر الذي يستتبع اقتراحات حلول تكون نتائجها كارثية في حال تطبيقها.

خلاصة القول، إن الفلسفة تحولت للإهتمام بالإنسان، وأننا إذا أردنا الاهتمام بالإنسان العربي كان من واجبنا تطويع مناهج العلوم الإنسانية بما يتلائم مع واقع هذا الإنسان وبيئته الاقتصادية والحضارية. فخوف هذا الإنسان من هذه العلوم لا يعالج من خلال تكرار ببغائي وعشوائي لمناهج غير صالحة للاستعمال في حالة هذا الإنسان، وهذا أمر يقتضي أول ما يقتضي تخطيط السياسات الجامعية والبحثية في الدول العربية باتجاه تحويل هذه العلوم إلى الفعالية الإجرائية في خدمة المجتمع والإنسان العربيين.

الثقافة النفسية المتخصصة

WWW.psyinterdisc.com

Psychologie Interdisciplinaire | Interdisciplinary Psychology

الطب النفسي | السيكوسوماتيك | العلاج النفسي | تحليل نفسي | ندوية نفسية | الكوارث | علم النفس

السمنة وعلاجها النفسي

د. محمد احمد النابلسي

العدد الثالث والخمسون / يناير السعر : دولارات

يناقش العدد موضوع السمنة والبدانة بوصفها شكل من اشكال إدمان الأكل. عارضاً لمختلف النظريات الطبية المفسرة للسمنة والطارحة لأسبابها. ودون اهمال لإقتراحات علاج السمنة الدوائية وحتى الجراحية فإن الملف يعرض للعلاجات النفسية المقترحة للسمنة. حيث يصنفها المؤلف ومعها اضطرابات الأكل عامة في إطار الإضطرابات السيكوسوماتية. للمزيد

المعلوماتية والعلوم النفسية

د.جمال التركي

العدد الثاني والخمسون/ أوكتوبر السعر دولارات

يناقش العدد موضوع استخدام المعلوماتية في مجال العلوم النفسية في البلاد العربية. حيث اللغة المشتركة تؤمن تضافر الجهود المعلوماتية في هذه البلاد. ويشرف على الملف الزميل التركي صاحب السبق في هذا المجال. للمزيد

اقرأ في العدد القادم

سيكوفيزيولوجية الألم

دراسة نفسية عصبية يشارك فيها ثلاثة من الباحثين الألمان المعروفين. ترجمها للمجلة الزميل سامر رضوان. كما يضم العدد مقابلة مع العالم فاخر عاقل وهو من رواد الاختصاص في المشرق العربي....

سيكولوجية أطفال الإنتفاضة

جماعة من الباحثين

العدد الخمسون / ابريل السعر : دولارات

يتضمن البحوث التالية: خصوصية الضغوط الناجمة عن الانتفاضة. قراءة في سيكولوجية طفل الانتفاضة. تصور خطة لعلاج الأطفال الفلسطينيين. ومتابعات الانتفاضة. للمزيد

أزمات المراهقة

أ.د. أنور الجرابة

العدد الثامن والاربعون / أوكتوبر السعر دولارات

يحتوي الملف على البحوث والمقالات التالية: المراهق والسلطة. سلوكيات المراهق. المراهق والصحة النفسية. المراهق والتغيب الأسري. والمراهق والانحرافات. للمزيد

شروط النشر
الهيئة الإستشارية
مؤتمرات المجلة
ملفات المجلة
دليل الموقع

الصفحة التالية

إصدارات
مركز الدراسات النفسية

«إن الخطأ الكبير لأطباء عصرنا هو أنهم يفصلون النفس عن الجسد لدى تصديهم لعلاج الجسم البشري. فطبيعة الجسد لا يمكن أن تكون مفهومة ما لم ننظر للإنسان ككل» ويتوالى الاهتمام بهذه الخلفية على امتداد التراث الإنسان حيث توقف عندها ابن سينا ليفرد لها فصلاً خاصاً في قانونه وذلك وصولاً إلى العصر الحديث إذ بدأ الأطباء منذ القرن التاسع عشر بإعادة النظر في موقفهم من العلاقة بين النفس والجسد وبالتالي من هذه الخلفية. ولقد كان الطبيب فان دوش Van Dush أول من تخطى الثنائية الديكارتية (التي تفصل بين النفس والجسد) ليعلن عن نمط نفسي خاص بمرضى القلب في العام 1868 حيث وصفهم بأنهم يتكلمون بصوت عال وبأنهم يخوضون الصراعات المتركزة حول تدعيم سحرهم وسطوتهم. وكان هاينروث Heinroth قد أطلق مصطلح «سيكوسوماتيك» في العام 1818. لكن الاستخدام الدقيق للمصطلح تأخر لغاية العام 1922 على يد دوتش F.Deutch. وقد كان لظهور التنويم المغناطيسي. وقدرته على شفاء العديد من الحالات المرضية الجسدية، دور هام في إقناع الأطباء بالعلاقة بين النفس والجسد.

Sous la direction de
Hossaïn BENDAHMAN

DU PULSIONNEL AU CULTUREL

L'Harmattan

Sous la direction de Hossaïn BENDAHMAN

DU PULSIONNEL AU CULTUREL

DU PULSIONNEL AU CULTUREL

Si nous parlons de la pulsion articulée aux cultures conformément au titre de cet ouvrage, il s'agit bien de la pulsion de vie et non d'une oblitération de la pulsion de mort. Bien avant d'être l'otage d'un surmoi socioculturel, la pulsion de vie nous donne la sensation et la représentation d'être vivant dans un corps, limité à ce qu'il exprime de son énergie interne, de ses besoins et de son organisation naturelle, bio-psychique.

Chaque culture a ses phases de croissances, de naissance, de bien-fondé mais aussi d'ombres, de turbulences, de passage à vide et de déclin. Les crises sont toujours des crises d'identité prises au piège de la dualité mais elles nous font évoluer et font évoluer notre relation à l'autre.

Les approches rassemblées ici témoignent dans leur différence d'une unité: celle de cerner les effets des mutations culturelles, notamment dans l'exil. Elles sensibilisent à l'émergence de dimensions nouvelles et plus complexes de l'altérité. Ces approches peuvent être une réponse à l'attente pratique de formation des acteurs sociaux, un moyen d'approcher les référents culturels des publics d'origine étrangère souvent en souffrance qu'ils sont amenés à côtoyer ou à prendre en charge. Les contributions réunies dans cet ouvrage sont le témoin du désir de la découverte de la culture de l'autre et de l'effort de réduire les dérives discriminantes quelle que soit la culture de l'autre ou son étrangeté.

Le présent ouvrage ne prétend pas traiter l'ensemble de la question. Celle-ci est d'une complexité telle qu'aucune étude ne pourrait être exhaustive.

Hossaïn BENDAHMAN, Docteur d'Etat en Psychologie Clinique et Psychopathologie, Psychanalyste, Maître de Conférences HDR en psychologie, Directeur de « l'Equipe de Recherche Pluridisciplinaire en Psychologie Interculturelle : Discours et Modes de Pensées » à l'I.U.T. de Troyes (Université de Reims). Directeur de recherches, équipe « Psychanalyse, Psychopathologie et Psychologie Clinique » de l'URPSCLS (EA 3071), Université Louis Pasteur, Strasbourg I, dir. Professeur Serge Lesourd.

Auteur de *Personnalité maghrébine et fonction parentale au Maghreb : Etude maghrébin* (1984) et *Travail culturel de la pulsion et rapport à l'altérité* (2000) et de nombreux articles et conférences.

ISBN 978-2-296-06427-0
20 €